

دليل يرافقك في رحلتك إلى الله

لا سيما في المواسم الفاضلة كرمضان وعشر ذي الحجة



محمد بن محمد الأسطل

الطبعة الأولى

١٤٤٥ هـ - ٢٠٢٣ م

اسم الكتاب	أنيس المُتعبد
اسم المؤلف	محمد بن محمد الأسطل
رقم الإيداع	2023/18327
اسم الناشر	المؤلف
عدد الصفحات	304
عدد الألوان	2 لون

لطلب جميع كتب د. محمد الأسطل

التواصل مع



للنشر والتوزيع - القاهرة



الافتتاحيَّة

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد:

فـإنَّ الله تعالى خلـق الخلق لعبـادته كما قـال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال سبحانه: ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

وقد جعل الله أمر القلوب بيده، فمن أقبل عليه من عباده واتَّبَعَ هداه فلا يضلُّ في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ويرزقه في حياته السكينة والطمأنينة وصفاء الحال وراحة البال، ويجعل غناه في قلبه، ومن أعرض عن ذكره فإنَّ له معيشةً ضنكًا، ويحشره يوم القيامة أعمى.

ومن هنا فإنَّ العبدَ يجد حاجةً تجتاح كوامنَ نفسِهِ إلى عبادة ربه، فإن طالت عن الله غيبته وامتدَّت غربته.. استوحش من نفسه، وصار يبحث عن الطرق الموصلة إلى رضوان ربه؛ ليجد أُنسَه وطمأنينته في الدنيا قبل أن يُوفَّى جزاءه يوم القيامة، وإن لم يفعل عانى الهمَّ وضيق الصدر، وهذا ما صرَّح به بعض السلف بقولهم: «**إذا قصَّر العبدُ في العمل ابتلاه الله بالهموم**»[1].

والحقيقةُ المُرَّةُ أنَّ إنسانَ هذا العصر منهمكٌ في دوَّامةِ الحياةِ اليومية وتفاصيلها، تطارده الأعباء، وتشغله وسائل الاتصال ومواقع التواصل الاجتماعي، وصل إلى العالم وعرف أخباره وربما رأى الأحداث لحظة وقوعها لكنه لم يصل إلى قلبه بعد.

لقد فَقَدَ قلبه وصفاءه ونقاءه، حتى غدا مستوحشًا ضالًّا عن السبيل، وربما كان يرتدي ثوب المرشد الدليل، ومع عشرات الأصوات التي تناديه لم يزدد إلا تيهًا وحيرةً وذهولًا.

ومن أفظع نتائج ذلك الانهماك المضني تلك القسوةُ التي أخذت تدبُّ إلى القلوب،

---

(١) وأصل الكلمة مأخوذة من حديث لكنه ضعيف، ونصه: «**إذا قصرَّ العبد في العمل ابتلاه الله بالهمِّ**»، أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» وضعفه الألباني.

فتزيد معها الذنوب، وتفزع بسببها السكينة الداخلية، ويتعكر معها صفو البال ويسوء الحال، حتى ما عاد الإنسان يلتذ بعبادة، أو يشعر بسعادة، وإذا صلى فبلا خشوع، وإن تهجد فبلا دموع، أثقلته تكاليف الحياة، حتى صارت هذه الأعراض شكوى ذائعة، فلا تكاد تجالس أحدًا من الخاصَّة أو العامة إلا وهو يعانيها ويجدها في نفسه[1].

ومن ثم كان لا بد من استنفارٍ ذاتيٍّ على المستوى الشعوريِّ الفرديِّ بالجلوس جلسةً جادَّةً تمام الجد مع النفس؛ تزكيةً لها واستدراكًا للنقص، فيفتح الإنسان ملفات أرشيفه الشخصي، ويعيد ترتيب أولوياته، ويستحضر خططه وطموحاته، ويعرف عوامل القوة عنده، ويحدد مواضع الضعف، ويفتح ملف التعبد، ليأخذ الدين بقوة، ويقوم بما أمره الله به قبل أن يصل إلى السكرات، وتيه العبارات والعبَرات.

وإنَّ الذي يفهم سرَّ خَلقِهِ لا يُستدرَجُ لصخب الدنيا ودوَّامتها؛ وإنما يعتني بنفسه اعتناءً يليق بضخامة المهمة التي خُلِقَ من أجلها، ومن ثم يستقطع وقتًا من عزيز يومه وأسبوعه وشهره وعامه لإدارة الملف الإيماني والتربوي في حياته؛ ليرد العافية إلى روحه، ولتبقى سحائب التوفيق تحوم بقلبه وحياته.

وإنَّه بهذه الخطوةِ الاستدراكيَّةِ يُنعشُ نفسَه ويستنقذُهَا من ذلك الصخب والنَّصَب، ويمتع نفسه وقلبه وعقله بجنة الدنيا جنة التعبد، وهل لذاذة الدنيا إلا في حسن التعبد!

إنَّ هذه اللذاذة هي التي تنفخ الروح في جميع أعمال الإنسان؛ من عملٍ وظيفيٍّ ودعويٍّ وجهادي، ومن ترتيبٍ لأمر بيته من بناء بيتٍ وزواجٍ وعملٍ، ومن شعورٍ نفسيٍّ واتصالٍ اجتماعيٍّ واعتناءٍ علميٍّ واهتمامٍ سياسيٍّ وغير ذلك، حتى يشعر أنَّ الدنيا ما هي إلا محرابٌ كبيرٌ للتعبد، وكلُّ ما يباشره فيها يمكن أن يكون عبادةً يتخذ بها إلى ربه سبيلًا.

ومن هنا فقد رأيت أن أدوِّن كتابًا يعد أنيسًا للمتعبد في رحلته إلى الله تعالى، وحرصت فيه على قدرٍ من التأصيل فضلًا عن التنزيل والتمثيل، ومن ثم سطَّرت «**الأصول التربوية**» التي تُعَدُّ أصلًا لغيرها، وحبَّرت القول في «**أعمدة بناء الإيمان**» التي من عرفها وامتثل ما

---

(١) رقائق القرآن لإبراهيم السكران ص (٥-٧) بتصرف.

فيهـا.. خـرج مـن حالة التآكل النفسي والشـتات الروحـي؛ إذ النَّفـسُ إذا تفرَّقت تبعثرت.

وحرصـت أن أقف وقفـةً متأنيـةً مع هَـدْيِ النبيِّ ﷺ في التعبـد؛ لنقتات منه ونعبـد الله على بصيرةٍ بإذنـه وعونـه وتسـديده سبحانه.

وبعـد أن أنجزت هـذه الموضوعات شرعـت في بيان مهـمات الأعمال باختـلاف أنواعها، سـواء كانـت بدنيـةً أو قوليَّـةً أو عقليـة أو قلبيـةً أو ما كان خليطًا من ذلك.

ومـادة الكتـاب في جملتهـا بمثابـة العيـن التـي يُبـصر بهـا المتعبـد طريـق التعبـد، وبمنزلـة الدليـل الـذي يسـتهدي بـه فيما يحتـاج في طريقه إلى ربـه، ويعينـه في تطهير ما علـق بقلبه وعقله مـن كـدرٍ وتعكـير في وعثـاء السـفر وخضـم المسـير.

ولا يعنـي هـذا أنَّي أتيـتُ عـلى كامـلِ المطلـوب؛ كلا؛ بل اجتهـدت أن أذكـرَ أصـولَ المَعَانِي التـي تـدلُّ عـلى غيرهـا، وأكثـرت الإحالـة في الكتـاب لمـن أراد أن يتوسـع ويسـتوعب، فضـلًا عـن أني كثيرًا مـا كنـت أذكـر المقصـود بأوجـزِ لفـظٍ، كلُّ ذلـك لئـلا يطـول الكتـاب، ومـن ثـم تتـوزع المهمـة بيـن الكاتـب والقـارئ.

وبقـي الحديـث في **«الأحـكام الفقهيـة المتعلقـة بالتعبـد»**، وهـذا يحتاج لمُؤَلَّفٍ مسـتقل، وفيه مـن العنـاء مـا فيـه؛ لكثـرة تشـعبه ومـا يتضمنـه مـن تفاصيـل، وعسـى الله أن يمـدَّ في العمـر ويهيـئ الأسـباب ليُنجَـز، أو ينشـط لـه أحـدُ الأفاضـلِ مـن ذوي المُكنـة وأصحـاب القلـم.

ولأنَّ النفـوسَ تنشـط في المواسـم الفاضلـة وتتحـرك.. فقـد اجتهـدت أن أجعـل عقـلي مسـكونًا بهـذا الهاجـس أثنـاء الكتابـة ليكـون لهـا مزيـد عنايـةٍ.

ومـع أنَّ حُسْـنَ العلاقـة مـع الله غـير منـوطٍ بأوائـل الأزمنـة؛ ولكـن بإقبـال الأفئـدة.. إلا أنـه يمكـن اعتبـار موسـم رمضـان أحسـن المنطلقـات الإداريـة والنفسـية لإعـادة ترتيـب الملـف الشـخصي لا سـيما للمتعثـر مـرة بعـد مـرة.

ويليـه في ذلـك موسـم العـشر مـن ذي الحجـة، ومـع أنـه أفضـل من رمضـان باسـتثناء ليلة القـدر إلا أنَّ شـهر رمضـان بـما يتضمنـه مـن الصيـام الواجـب في النهـار والقيـام المتأكـد في

الليل[١] يعد أعظم المواسم التربوية في العام.

وذلك أنَّ الله تعالى لم يجعل أمرَ الإقبالِ عليه في رمضان بيدك، ولا باستعدادٍ منك؛ وإنما أكرم به أهل الإسلام تفضلًا منه وكرمًا.

كما أنَّه أَذِنَ سبحانه في أيامه الثلاثين بجملةٍ من التغيرات في الكون تزيح عنك العوائق التي كانت تقف لك بقارعة الطريق؛ فتفضَّلَ سبحانه على عباده في رمضان بفَتْحِ أبواب الجنة، وبذلك تُفتحُ أبوابُ الحسنات فتسهل لك، وبغَلقِ أبواب النار وبذلك تُغلق أبواب السيئات فتُصرف عنك، وتصفيد الشياطين ومردةِ الجن فلا تقع الوساوس لك، وبذلك يسهل الاستكثار من الحسنات وترك السيئات ومدافعة الإغراءات من غير كبيرِ عناءٍ ومجاهدة[٢].

أما ما يقع بعد ذلك من ذنوبٍ.. فإنَّه من تأثير النفس الأمارة بالسوء وشياطين الإنس إذْ لم تُصَفَّد من مثل الصاحب السيء والبيئة الفاسدة، فضلًا عما رُكِّبت عليه الدنيا من الشهوات والملذات التي يقع في كلاليبها من لم يتوقَّ سبيلها.

ومع أنَّ جبهات الغواية لا تنحصر في الشياطين التي صُفِّدت بالأغلال كما رأيت.. إلا أنَّ ما بقي يسهل دفعُه بهجره ومغالبته، بالإضافة إلى أنَّ تأثيرَ تلك التغيرات الكونية تجعل الصائم ذا نفسيةٍ تستعصي على قبول إملاءات النفس وإغراءات الدنيا ووساوس شياطين الإنس.

ولهذا لا غرابة حين ترى مطلع الشهر أهلَ الإسلام شرقًا وغربًا في سائر الأقطار والأمصار من الكبار والصغار والرجال والنساء يُقبلون في لحظةٍ واحدةٍ على الصيام والقيام والمصاحف والأذكار والدعاء وشهود صلاة الجماعة في المساجد في مشهدٍ يأخذ بالألباب بما لا يقدر على فعله إلا الله جلَّ في علاه.

فتحصَّل بذلك أنَّ شهرَ رمضان هو أعظم المواسم التربوية في العام، والذي يزيده أهميةً على الصعيد التربوي أنَّ الأشهر التي تسبقه خاليةٌ من المناسبات التي تُحرِّك الإيمان؛ فالعهد بعيدٌ بأيام الستة من شوال، وبعشر ذي الحجة ويوم عرفة ويوم عاشوراء، فالنفوس

---

(١) أي: صلاة التراويح.

(٢) فتح الباري لابن حجر (٤/ ١١٤)، فيض القدير للمناوي (١/ ٤٣٧).

في غاية العطش لغيث رمضان، وعبق نسائمه ونفحاته، وهذا أمرٌ واقعٌ مشاهدٌ لا يحتاج لإقامة البيِّنة عليه.

وعليه؛ فإذا كان اطلاعُ القارئ على الكتاب بين يدي رمضان أو عشر ذي الحجة فهذا خير، وإلا.. فإني بنيتُ الكتابَ على أن يكون دليلًا للمتعبد على مدار العام، لا يرتبط بموسمٍ معين.

وإني لأرجو أن يقطع معك أطوار رحلتك إلى الله مرحلةً مرحلة، بأسلوبٍ خالٍ من التعقيد، وطرحٍ خالٍ من الحشو وما لا يفيد، وسميته: **«أنيس المتعبد»**.

وأشكر كلًّا من فضيلةِ شيخنا الدكتور **يونس بن محيي الدين الأسطل** وفقه الله وأخي الحبيب الشيخ **حمزة بن عبد الكريم الأغا** وفقه الله على مراجعتهما للكتاب، والشكر ممتدٌّ لكلِّ من استفدت منه حرفًا جاء فيه.

وأسأل الله جلَّ جلاله بعزته وجلاله وعظمته وكماله أن يتقبله مني، وأن يشيع نفعه بين الناس، وأن يجعله حجةً لي لا عليَّ يوم القيامة، كما وأسأله سبحانه أن يُسدِّدَ ويُصوِّبَ ويُكرمَ ويهدي ويتفضل ويعفو ويصفح ويغفر ويحسن، إنَّه رحيمٌ تواب، كريمٌ وهاب.

والله الموفق وحده، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

وصلِّ اللهم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

مُحَمَّد بن مُحَمَّد الأَسْطَل

فلسطين – قطاع غزة - خان يونس

للتواصل[1]: Mastal2010@hotmail.com

(١) يمكن التواصل على الفيس بوك على حساب: «محمد بن محمد الأسطل».





المبحث التمهيدي

وظيفةُ هذا المبحثِ أن يُقِيمَ البيِّنَةَ على أهميةِ العنايةِ بتزكيةِ النفس، ويقف على سرِّ العناية بالثغر التربوي في المواسم الفاضلة كرمضان وعشر ذي الحجة، بحيث تعد فرصةً حقيقيةً لبناء الإيمان، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مركزية تزكية النفس في التصور الإسلامي.

المطلب الثاني: سرُّ العناية بالثغر التربوي في المواسم الفاضلة.

ودونك تسطيرَ القولِ فيهما على بركة الله تعالى:

المطلب الأول

مركزية تزكية النفس في التصور الإسلامي

يمكن ردُّ معاني التزكيةِ بحسب هذا المقام إلى معنيين: التطهير والإصلاح، والتنمية والزيادة[1]، وإذا استحضرت أنَّ مكونات الدين ثلاثة: عقيدةٌ وشريعةٌ وسلوك ثم تأملت ذلك.. خلصت إلى أنَّ تزكيةَ النَّفسِ هي ثمرةُ العقيدةِ ولبُّ السلوكِ، ومن عظَّم الآمر عظَّم الأوامر، فتحصَّل أنَّ التزكية ذاتُ ركنٍ ركينٍ في بِنيَةِ هذا الدين.

وقد جعلها الله تعالى إحدى الوظائف الأربع التي جاء بها النبي ﷺ كما يُصرِّح بذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

ومن ثم لم يُبالغ الدكتور **طه جابر العلواني** رحمه الله حين عدَّ تزكية النفس إحدى المقاصد العالية للشريعة إلى جانب توحيد الخالق وعمارة الكون، فإذا كانت الشريعة تهدف إلى حفظ الدين والنفس والعقل والمال والنسل بما يُعرف عند العلماء بمقاصد الشريعة الخمسة.. فإنَّ هذه الثلاثة هي مقاصد المقاصد.

ومن كلامه في ذلك: إنَّ الله هو خالق الإنسان والكون والحياة، وإنه استخلف الإنسان في هذه الأرض، وأوكل إليه مهمة إعمارها، فما يجري على الأرض هو حاصلُ العلاقةِ بين الربِّ المستخلِف والعبد المستخلَف، والتوحيد يُمثِّل حق الله على العباد، والتزكية أهم صفةٍ في المخلوق تجعله أهلًا للقيام بدور الخليفة في الأرض، وعامة سور القرآن الكريم تدور حول هذه المقاصد الثلاثة[2].

---

(١) تهذيب اللغة للأزهري (١٠/ ٣١٩)، المحيط في اللغة لابن عباد (٢/ ٥٩)، المعجم الوسيط لإبراهيم مصطفى وآخرين (١/ ٣٩٦).
(٢) انظر للتوسع الحوارَ مع الدكتور طه جابر العلواني تحت عنوان: مقاصد الشريعة.

وتمهدت بتقرير هذا المعنى ليتيسر لك أن تستشعرَ ضخامةَ المعاني المكتنزة في صدر سورة الشمس إذ يُقسِمُ ربُّنا الجليل أحد عشر قسمًا متواليًا على شيءٍ واحدٍ فيقول سبحانه:

﴿وَٱلشَّمْسِ
وَضُحَىٰهَا ١
وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ٢
وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ٣
وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ٤
وَٱلسَّمَآءِ
وَمَا بَنَىٰهَا ٥
وَٱلْأَرْضِ
وَمَا طَحَىٰهَا ٦
وَنَفْسٍ
وَمَا سَوَّىٰهَا ٧
فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾

[الشمس: ١-١٠].

فيُقسم الله تعالى بالشمس، وبالضحى، وبالقمر إذا تبع الشمس فطلع بعد غروبها، وبالنهار إذا أضاء وجلَّى الشمس وأظهرها، وبالليل الذي يغشى الشمس عندما تغيب، وبالسماء، وبمن خلقها وبناها وأنشأها على هذه الصورة البديعة، وبالأرض وبمن بسطَها وجعلها مهيئةً للاستقرار، وبالنفس الإنسانية، وبمن أنشأها من العدم في أحسن تقويم وجعلها مستعدةً لتلقي ما يُصلحها ويُكملها، فأفهمها وبيَّن لها ما ينبغي أن تتركه من شرٍّ ومعصية، وما ينبغي أن تفعله من خيرٍ وطاعة.. أنَّه قد أفلح وفاز وظفر بالمطلوب ونجا من المكروه من طهَّر نفسه من الكفر والذنوب وأصلحها بالأعمال الصالحة، وأنه قد

خاب وخسر من دسَّ نفسه مخفيًا إياها في المعاصي والآثام حتى حال بينها وبين الخير[١]!

إنَّ هذا أكبرُ قَسَمٍ في القرآن كله!

ولو أنك سمعت أحد أئمة الصلاح يقسم قائلًا: والله والله والله والله والله والله والله والله والله[٢] أنَّ هذا الأمر كذا.. لاجتاحتك زلزلةٌ نفسيةٌ ولذهب عقلك كل مذهب وأنت تنتظر المحلوف عليه الذي استحق من هذا الرجل الذي لا يُشكُّ في صدقه هذا العدد من الأيمان.

وأحسب أنَّ الذي يقرأ سورةَ الشمس وكان عقله يقظًا.. سيتفاجأ بعد هذا العدد من الأقسام أنها جاءت لتقرير معنًى واحدٍ وهو أنَّ **تزكيةَ النَّفسِ هي طريقُ الفلاحِ عند الله**، وأنها الأصل الأول لمن رام تحديد مصيره عند الله تعالى.

فتلخَّص أنه **لا فلاحَ من غير تزكية**.

ثم ضرب الله مثالًا على ذلك بثمود كما قال سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١١ - ١٤].

والمعنى: كذبت قبيلةُ ثمود بسبب طغيانها وإفراطها في الجحود والتكبر والعناد حين أسرع أشقى رجلٍ فيها لعقر الناقة التي نهاهم نبيهم **صالح** عليه السلام عن مسِّها بسوء، وقال لهم محذرًا حين شعر أنهم بيتوا النية على عقرها: احذروا عقر ناقة الله واحذروا الوقت المحدد لشرابها.

إلا أنهم كذبوه فيما حذَّرهم منه من نزول العذاب بهم، فعقروها فأطبق الله عليهم العقوبة وأهلكهم عن آخرهم دون أن يفلت منهم أحد[٣].

(١) تقريب تفسير الطبري لصلاح الخالدي (٧/ ٦٤٢)، الوسيط لطنطاوي (١٥/ ٤١٠-٤١٢)، المختصر في التفسير ص (٥٩٥)، وسورة الشمس من السور العظيمة التي كان لها دورٌ مهمٌّ في إعادة بناء التصور الديني للجيل الجديد في مكة أوائل البَعثة، وعسى الله أن ييسر مناسبةً أتناول فيها ذلك بشيءٍ من البسط.

(٢) التكرار والتأكيد يكون ثلاث مرات، ولكن ذكرت القسم مكررًا كما هو لمصلحة تصور المسألة.

(٣) تفسير الوسيط (١٥/ ٤١٦).

ومما يلاحظ في آيات السورة الأمورُ الثلاثةُ الآتية:

الأول: أنَّ تقريرَ قاعدةِ التزكية جاء بين سُنَّتين ثابتتين: سنةٍ كونية وسنةٍ تاريخية، وكأنَّ المعنى: إنَّ فلاحَ من زكّى نفسه سُنَّةٌ شرعيَّةٌ ثابتةٌ ثبات الشمس وضحاها، ومتحققٌ تحقق إهلاك ثمود بطغواها.

وهذا جارٍ على عادةِ القرآن من تقرير السنن الإلهية من خلال السنن الكونية[1].

الثاني: أنَّ القَسَمَ جاء بين متقابلات؛ فالشمس يقابلها القمر، والنهار يقابله الليل، والسماء تقابلها الأرض، ولعله ذكر هذا ليصل إلى المقابلة بين الفجور والتقوى بقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾.

وكأنَّ القسم يومئ إلى محيط الابتلاء الذي يعيش فيه الإنسان، فروحٌ تنهضُ به إلى السماء، ونفسٌ تهوي به إلى الأرض، وهو ما بين تَرَقٍّ تارةً وتَدَلٍّ تارةً أخرى.

الثالث: إنَّ السورة تشير إلى العلاقة بين النفس والطغيان، والطغيان هو مجاوزة الحد، والنفسُ تميل بطبيعتها إلى مرغوباتها، فإن لم تجد ما يلجمها توسَّعت وتوسعت حتى تصل إلى الانفجار والطغيان، أو قُلْ: إلى الفجور والطغوى كما هو تعبير السورة، والغالب عليها حينئذٍ أنها تستبد بالعقل فيصبح يقيم الأدلة على صواب ما ذهبت إليه، وما ذلك من الهدى؛ ولكن من اتباع الهوى.

وصفوة القول:

إنَّ التزكيةَ هي التي تأخذك إلى الله، وتُعَرِّفُك به، وتُصيِّرك عبدًا له، تستجيب لأوامره، وتنقاد لأحكامه، تخشاه ولا تخشى أحدًا سواه.

وعلى قدر كمال العبودية له تنفك من العبودية لغيره، وتبقى في تَرَقٍّ في معراج العبودية حتى تصبح مكتمل الحرية، منفكًّا من كلِّ تبعيةٍ لغيره.

---

(١) انظر مثلاً: سورة آل عمران (٢٦-٢٧)، وسورة الإسراء (١٢-٢١)، وسورة الحج (٦٠-٦١)، وهذه قضية ذات أهميةٍ وخطر وينبغي أن تأخذ حقَّها من البسط إلا أنَّ المقام ليس لها.

ولا يقف فضلُ التزكيةِ عند مستوى الفرد؛ فإنَّ سورةَ الشمس تُؤذِنُ بأنَّ التزكيةَ هي السبيل الآمن لنجاة الأمم من الاندثار والهلاك، ومتى تخلت أمةٌ عن مسلك التزكية فإنَّ مصيرها الدمدمة والتسوية، فلم تَعُد التزكية بذلك سلوكًا إيمانيًّا فرديًّا؛ بل قضية يتوقف عليها مصير الأمم والجماعات والدول، مما يعني أنَّ علم التزكية أحد علوم الأمن الاجتماعي(١).

وبُرهانُ ذلك من السُّنَّةِ: ما روى **البخاريُّ** و**مسلمٌ** عَنْ **زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ** رضي الله عنها أنها سألت النبيَّ ﷺ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «**نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخُبَثُ**»(٢).



(١) الترياق لأديب الصانع (١/ ٥٧-٦١) بتصرف وزيادة.
(٢) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٣٣٤٦)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٧٤١٦).

المطلب الثاني

سر العناية بالثغر التربوي في المواسم الفاضلة

أو قل: **لماذا العناية بالثغر التربوي وترتيب الملف الشخصي في المواسم الفاضلة كرمضان وعشر ذي الحجة؟**

وبمعنى أكثر وضوحًا: **ما الذي تفترق فيه المواسمُ الفاضلةُ عن غيرها لتنال هذا الضخ الهائل من أشكال العناية بالثغر التربوي وترتيب الملف الشخصي؟**

الحق أنَّ الله تعالى كما اصطفى من الملائكة رسلًا ومن الناس.. اصطفى كذلك من الأزمنة والأمكنة والأحوال، وله الحكمة البالغةُ سبحانه.

ومن حكمة ذلك: أنَّ النفوسَ تنشط وتتراخى بحسب ما يرد عليها من عوارض وشهوات، فلو كانت أيام العام قطعةً واحدةً متساويةً في الفضلِ والمنزلةِ والعمل.. لأدَّى ذلك إلى شيءٍ من الإلف والدَّعة والكسل.

أما إذا سار الإنسان في رحلته، ثم وجد في كل بضعة أشهر أيامًا فاضلة، وارتبطت بها أعمالٌ صالحة.. فإنَّه سيكون أكثر استعدادًا ونشاطًا وأملًا وفألًا، فيستجمع قوته ويحتشد لها ما لا يحتشد في غيرها؛ لأنَّها موقوتةٌ ولها حدٌّ تنتهي إليه.

وما يفعله العبدُ في هذه المُدَدِ المُرَكَّزَةِ يشحنه لآمادٍ أخرى فيبقى ذا عافيةٍ وإقبال، فإذا ما تراخى وجد أمامه زمنًا فاضلًا أعاد حيويته من جديد.

وقل مثل ذلك في الأماكن والأحوال؛ فتجد الإنسان يمضي في حياته، مشتغلًا بأعماله، ما بين هدوءٍ وصخب، وراحةٍ وتعب، فإذا زار المسجد الحرام ورأى الكعبة والصفا والمروة وعرفة ومزدلفة ومِنى، أو المسجد النبوي ورأى قبر النبي ﷺ وقبور أصحابه رضي الله عنهم في البقيع، وزار جبل أحد وسار بأقدامه فوق جبل الرماة ووقف إزاء قبور شهداء أحد حيث **حمزة ومصعب وعبد الله بن حرام** وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم، أو قصد مواطن الثغور حيث عبق الجهاد والشهادة ورابط فيها.. رُدَّت إليه روحُه من جديد.

والحاصل: أنَّ هناك انسجامًا بين طبيعة النفس وحركة النص التي أخبرتنا بما عَظُمَ فضلُهُ من أوقاتٍ وأماكن وأحوال وأشخاص وغير ذلك.

وعليه؛ فإنَّ أحكام الشريعة جاءت متوافقةً مع قوانين الفطرة التي ركَّبها الله في النفوس، ومن ثم كان لهذه المواسم من الخصائص ما تمايز به عن غيرها من أيام العام.

ولما كانت دراسة خصائص كلِّ موسمٍ فاضلٍ يطيل بنا الكلام.. فإني أكتفي بمثالٍ واحدٍ وهو موسم رمضان؛ لما تقدَّم من أنه أعظم المواسم التربوية في العام، ولأنَّ ما تميز به من شعائر ظاهرة عامة من مثل القيام المتأكد في الليل والصيام الواجب في النهار وما يسبقه من أكلة السحر وما يعقبه من إفطار.. يجعله أكثر تأثيرًا من غيره من المواسم.

وإلا فإنَّك قد علمت أنَّ عَشْرَ ذي الحِجَّةِ أفضل منه، باستثناء ليلة القدر؛ فإنَّها أفضل من ليالي ذي الحجة، ويقابلها في الفضل يوم عرفة، لكنَّ العمل فيها مفتوحٌ غير محدد.

ومع أنَّ النصوصَ أبرزت أعمالًا بعينها كالذِّكْرِ والصيام والأضحية إلا أنَّ السمة الغالبة فيها فتحُ بابِ العملِ الصالح؛ لما روى **البخاري** وأصحاب السنن إلا **النسائي** عَنْ **ابْنِ عَبَّاسٍ** رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَى الله مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعَشْرِ**».

فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله؟

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ**»[1].

فالحديث يفتح باب العمل الصالح، من مثل الذكر والتلاوة والصلاة والصيام والقيام والاعتكاف والجلوس للشروق والصدقة والعلم والدعوة وإغاثة الملهوف وذي الحاجة، ويقرر أنَّ أورادَ التَّعَبُّدِ مقدمةٌ على الجهاد، إلا إذا احتيج إليه بأن كان جهادَ دفعٍ أو كان إعدادًا لا يتأخر فإنه يقدَّم، ويكون من جملة العمل الصالح.

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٩٦٩)، سنن أبي داود، رقم الحديث: (٢٤٤٠)، سنن الترمذي، رقم الحديث: (٧٥٧)، سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (١٧٢٧) واللفظ للترمذي.

وعلى ذلك؛ فإنَّ استيعاب عشر ذي الحجة بالعبادة ليلًا ونهارًا أفضل من جهادٍ خرجت فيه بنفسك ومالك ورجعت سالمًا منتصرًا، فأوراد التعبد هي عبادة الوقت، فأيام العشر هي أيام العُبَّاد وسائر العام أيام المجاهدين، ومن الفقه أن تُقدِّم ما قدَّم الله وتؤخر ما أخر الله.

إذن سيقع الكلامُ هنا على جهةِ البسط في موسم رمضان وما تضمنه من خصائص، وقد ساقني التأمل إلى تسجيل خمس خصائص له هذا بيانها بين يديك:

الخاصية الأولى:

التغيرات الكونية التي تُيَسِّرُ فعل الطاعات وترك المنكرات:

وقد تقدَّم ذكرُ ذلك في الافتتاحيةِ على وجهٍ مختصرٍ فأزيد الكلام فيه مع بيان الدليل إن شاء الله فأقول:

إذا دخل رمضان طرأت أربعة تغيراتٍ:

أولًا: تصفيد الشياطين:

وبهذا تغيب الوساوس الشيطانية، ويضعف التزيين والإغراء، فيبقى الصائم على حيويته من الإقبال على الخير وهجر الشر.

ثانيًا: فتح أبواب الجنة:

وهذا يؤذن بفتح أبواب الحسنات، وعندئذٍ لا يوجد كبيرُ مجاهدةٍ في تعدد الأوراد والالتزام بها، ومن هنا تجد الرجل الذي كان يتثاقل عن صلاة ركعتين من النافلة، بل ربما تثاقل عن السنن الرواتب وصلاة الوتر، وربما مضى عليه العام دون أن يصوم يومًا واحدًا من النافلة سوى رواتب الصوم المؤكدة كيوم عرفة وعاشوراء.. وإذا به هو نفسه ما أن دخل رمضان يصوم النهار ويصلي التراويح ويتهجد من الليل، ويدرك تكبيرة الإحرام ويجلس في المسجد حتى شروق الشمس، ويختم القرآن أكثر من مرة، ويتصدق ويصل الرحم ويدعو ويذكر الله كثيرًا، حتى إنَّ خاتم التسبيح يكاد ألا يفارق يده، وغير ذلك!

ثالثًا: غلق أبواب النار:

وهذا يؤذن بغلق أبواب السيئات، وحينئذٍ لا يوجد كبيرُ مجاهدةٍ في ترك السيئات، ومن هنا تجد الرجل الذي كان يعاني السيئات ويقاسي الخطيئات، وربما ما خلا يومٌ من معصيةٍ، وتستعصي عليه نفسه.. وإذا به هو نفسه ما أن دخل رمضان وإذ بالأيام تمر عليه تلو الأيام دون أن يرهق ظهره بأحمال الذنوب.

رابعًا: توقف القانون المعتاد للآخرة:

بحيث تطلبك وكنت من قبل تطلبها.

وبيان ذلك: أنَّ الأصل أنَّ الآخرة تُطلَبُ ولا تَطلب، وتُستَجْدَى ولا تَستجدِي؛ لأنها عزيزةٌ في نفسها، لا تزاحم القلب لو امتلأ بالدنيا، بخلاف الدنيا فإنها ذليلة، لو رأت الآخرة تعمر القلب فإنها تزاحمها لتجعل لها موطئ قدم فيها، ولا تزال تطلب الزيادة، ولا تجد حرجًا في ذلك.

لو كنت في عملك وعدت إلى البيت بعد الظهر وتأخر طعام الغداء.. فإنك تضيق ذرعًا، فلو مضى الوقت حتى دخل العصر ثم المغرب ثم العشاء وصليت ولم تَطعم بعدُ.. فالظنُّ أنك سوف تعاني ألم الجوع، فلو مضى على هذا الحال يومان أو ثلاثة.. فإنَّ حياتك ستتعطل من غير شك.

إنَّ هذا قانونُ الدنيا وسلطانُ الجسد، أما لو تركت وِردك من القرآن، وكنت تعتاد أن تقرأه بعد صلاة الفجر.. فإنَّ وقته لو مضى دون أن تقرأ فلن تشعر بوخزٍ في القلب، ولو صارت الساعة الثامنة صباحًا أو التاسعة أو دخل وقت الظهر ثم العصر ثم المغرب.. فلن تجد الألم أيضًا.

بل لو مضى يومٌ ويومان وثلاثة، وأسبوع وأسبوعان وثلاثة، وشهر وشهران وثلاثة، وعام وعامان وثلاثة دون أن تقرأ وِردك أو تختم ختمة.. فإنَّ القلبَ لن يستعصي عليك، ولن تشعر بألم يُقعدك الفراش حتى تعود إلى وِردك.

إنَّ حاجةَ الروحِ إلى القرآن أشد من حاجةِ الجسد إلى الطعام، ولن يجد الإنسان راحته

ولا هناءه إلا مع الله وكلامه في كتابه، ومع ذلك فإنَّ الآخرة لا تُقبل عليك، ولا بد أن تُقبل أنت عليها وتتعنى أنت لها، وحين تقبل فلا يخلو الإقبال من مجاهدة.

هذا هو القانون المتبع، اللهم إلا في رمضان!

فإذا دخل رمضان وإذ بالآخرة هي التي تفتح أبوابها لك لتدخل مكرمًا معززًا، وهي التي تنادي عليك بما ييسر لك الاستكثار من الخيرات وترك المنكرات.

وهذه التغيرات الأربعة جاء ذكرُها في حديثٍ واحد؛ روى **الترمذيُّ وابن ماجه** من حديث **أبي هريرة** رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إِذَا كَانَتْ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ:**

صُفِّدَتْ الشَّيَاطِينُ وَمَرَدَةُ الْجِنِّ.

وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ فَلَمْ يُفْتَحْ مِنْهَا بَابٌ.

وَفُتِحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ فَلَمْ يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ.

وَنَادَى مُنَادٍ: يَا بَاغِيَ الْخَيْرِ أَقْبِلْ، وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ، وَللهِ عُتَقَاءُ مِنَ النَّارِ وَذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ»[1]. صححه الألباني.

أخي في الله:

إنَّ الله تعالى تفضَّل على عباده بتغييراتٍ في الكون من أجلك أنت في الأرض، ومن غير أن تدفع الثمن أو تتخذ الأسباب لذلك، بما يشبه قطعة الحلوى التي يذيقك إياها بائع الحلويات لتدفع الثمن إذا طلبت المزيد، والله تعالى جعل رمضان محضَ هديةٍ منه وفضل، تذوق فيه طعم العبادة، ولذاذة القرب من الله، فإذا أردت هذه الرياض من الجنة في الدنيا بعد رمضان.. فلا بد أن تدفع الثمن وتبذل الأسباب.

واللافتة التي يرفعها هذا المشهد:

إنَّ البابَ مفتوحٌ لتدخل، وقد خلا من الحواجز فهيَّا تقدم ولا تتقهقر، والتقط الفرصة

(١) سنن الترمذي، رقم الحديث: (٦٨٢)، سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (١٦٤٢).

من فورك، ولا تستعظم ذنوبك ولو بلغت أمثال الجبال الراسيات؛ فإنها تطيش في بحور عفوه وواسع رحمته وسعة فضله سبحانه، وهو الذي فتح لك الباب، وأذن لك بالدخول، فطب نفسًا وأنت تخوض في رحمة الله جلَّ جلاله.

إنك الآن في رمضان، وقد ذهبت عنك وساوس الشيطان، وآن لك أن تُعيد إنتاج نفسك بالذي يدنيك من ربك، حتى تخرج من رمضان كيوم ولدتك أمك بلا خطيئةٍ أو ذنب، بعد أن طالت عن الله غيبتُك وامتدَّت غربتك.

فإن فعلت ودخلت وبذلت سعيك وجهدك.. فقد نزل التوفيق بقلبك، وحامت سحائب العطاء والمنن بديارك، وإن لم تفعل وتباطأت.. فلا آمن أن تُقيَّد بأغلال الخِذلان، ويُختم على قفاك بخاتم الحرمان.

فإن مضت أيام رمضان وأنت على هذه الحال فقد بت على غُبنٍ وخسرانٍ، وأحاط بك الذل والهوان، قد أذلتك نفسك حتى ألصقتك بالتراب، كما قال النبي ﷺ في كلامٍ واضحٍ بيِّنٍ: «وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَمَضَانُ ثُمَّ انْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ»[(١)] صححه الألباني.

فقوله: «رغم أنف رجل»؛ أي لصق أنفه بالرغام؛ وهو ترابٌ مختلطٌ برمل كناية عن حصول الذل والخزي والمهانة، يقال: أرغم الله أنفه؛ أي ألصقه بالتراب، هذا هو الأصل، ثم استعمل في الذل ونحوه[(٢)].

الخاصية الثانية:

موافقة بِنية رمضان لقانون تغيير العوائد:

وبيان هذا: أنَّ التحول من عادةٍ إلى أخرى يستلزم تكريرها واحدًا وعشرين مرة بحد أدنى، إلى أربعين مرة بحدٍّ أقصى كما يقرر علماء النفس، ويشترطون لذلك قوة العزم،

---

(١) سنن الترمذي، رقم الحديث: (٣٥٤٥).

(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي (٢/ ٦٧)، مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للرحماني المباركفوري (٣/ ٢٧٦-٢٧٧)، المعجم الوسيط لإبراهيم مصطفى وآخرين (١/ ٣٥٨).

وعدم الانقطاع، ووجود المُعزِّز ونحو ذلك.

ورمضان ثلاثون يومًا، وإذا استصحبنا مادة الخاصية الأولى من حيث وجودُ تغيراتٍ أربعة في الكون تعين الإنسان على الاستكثار من الخيرات وترك المنكرات.. فإنَّ رمضان يكون بذلك أعظم فرصة لصناعة التحولات.

فمثلًا: صار مألوفًا عندك أن تقرأ وِرْدَك من القرآن أول النهار، وتستيقظ للسحور قبل الفجر بنحو ساعةٍ، وتذهب إلى المسجد بمجرد سماع الأذان، وتأتي بأذكار الصباح والمساء والنوم، وتقلل من النظر في الجَوَّال، ومضى لك على هذا الحال ثلاثون يومًا من غير انقطاع، فإنك إذا دخل شوال.. سهل عليك أن تواصل هذا البرنامج أو بعضه.

على أنَّك قد تتعنى أول الأمر؛ لأنَّ المعينات قد ولَّت؛ فقد عادت المكابدة في الطاعة بإغلاق أبواب الجنة، وعادت المجاهدة في ترك المعصية بفتح أبواب النار، ورجعت الوساوس بإطلاق سراح الشياطين، لكن الإِلف للأوراد الذي حصَّلتَهُ على امتداد الشهر يعد من المنجزات الضخمة على المستوى النفسي، مما يُمَكِّنُكَ من تثبيتِ المنجزات بشيءٍ من العزم، وإذا بقيت على ذلك صرت تستمتع بالأوراد وتعيش لذاذة القرب من الله من غير كبيرِ مجاهدةٍ بعد ذلك بعون الله تعالى وفضله.

وإن كنت ممن ابتلي بمعصيةٍ؛ كشرب الدخان أو استماع الأغاني الماجنة أو حضور المسلسلات والأفلام الهابطة.. فرمضان يعد فرصتك الذهبية للإقلاع عن ذلك؛ لما يوفره لك من إقبالٍ روحيٍّ واستعدادٍ نفسيٍّ لترك ذلك.

وأنبه على عدم الإكثار من العوائد التي تريد إجراء تغييرٍ عليها؛ فهذا ليس متيسرًا؛ إذ العادة طبيعةٌ ثانية، وخلع جبل ربما كان أسهل من خلع عادة، والتحول يحتاج لفطمٍ شديدٍ للنفس، فيكفي أن تعتني بتغيير عادتين أو ثلاث، ولتكن من العوائد المركزية.

فمثلًا: عادة الاستيقاظ قبل الفجر بساعة أمرٌ مركزيٌّ في صلاح الإنسان، وإذا أصبحت ضمن المنجزات.. فإنك قد حصَّلت قدرًا هائلًا من الخيرات من غير كبير عناء.

وذلك أنَّ الذي يعتاد اليقظة قبل الفجر بساعة يسهل عليه التهجد وطول الركوع والسجود والقنوت، وحسن الافتقار إلى الله تعالى والانكسار بين يديه والتوبة إليه، وتلاوة

ورده من القرآن بتدبر، وتصفية نفسه من ضجيج الحياة وصخب العمل، ويسهل عليه أن يصلي الفجر في المسجد ويدرك تكبيرة الإحرام، وبذلك يستفتح يومه على حيويةٍ وفاعليَّةٍ وسكينة نفس وصفاء حال وراحة بال.

وقل مثل ذلك فيما لو فطم نفسه عن إدمان النظر في وسائل التواصل الاجتماعي؛ بأن جعل النظر في وقتٍ معلومٍ من اليوم لا يجاوزه إلا من حاجةٍ تشتد، وبمدةٍ محددةٍ لا تمتد.

والأهم من ذلك ألا يكون النظر وقت ذروة الحيوية والنشاط، فهذا يجعله للأعمال الفاضلة من مثل تلاوة وِرده من القرآن وقراءة حظِّه من العلم والمعرفة وغير ذلك، فإذا قضى حاجته وطلبت نفسه الاسترواح نظر في وسائل التواصل.

وبلغةٍ أوضح: أعط ساعات اليوم أثمانًا بحسب حالتك من الحيوية والإقبال والنشاط الذهني، واجعل النظر في وسائل التواصل فيما دنا سعره منها.

ولو جعلت وسائل التواصل على جهاز الحاسوب أو على جهازٍ غير مخصصٍ للاتصال الهاتفي.. لكان ذلك أعون في ضبط النفس.

والمقصود أنَّ العادة الواحدة قد يترتب عليها كثيرٌ من الأعمال والأفضال.

وقد لا يرتبط الأمر بعادةٍ تُغير؛ ولكن بمشروعٍ يبدأ به في رمضان أو غيره من المواسم؛ كما لو شرعت في حفظ القرآن الكريم أو في دراسة علم التلاوة والتجويد أو في طلب العلم، وكان رمضان هو فاتحة العناية، ثم واصلت السير بعد رمضان، وبهذا تنتظم في سلك ذوي الصلاح والإصلاح وأهل العزائم والمكارم، وفضل الله واسع.

بقي التنبيه على أنَّ ما قرأته من عدد التكرار المطلوب للتحول من عادةٍ إلى أخرى إنما هو بحسب ما يتردد قوله عن إفادة علماء النفس بذلك، وقد يتفاوت أصحاب التخصص في النظر فيه واعتماده بين مُقِلٍّ ومستكثر ومُقِرٍّ ومستنكر.

وأيًّا كان الحال؛ فإنَّ ثباتك على أمرٍ ما لمدةِ شهر كامل يعد أمرًا عظيمًا ييسر المهمة، ويبقى العزمُ هو كلمةَ السر فيما يريد الإنسان حسمه من تحولات، والله هو المعين والموفق وحده وهو الهادي إلى سواء السبيل.

الخاصية الثالثة:

تَرَكُّبُ بِنيَةِ رمضان على البرامج الفردية:

وذلك أنَّ الشهر ما أن يطل علينا بنفحاته إلا وتجد نداءً داخليًّا عند جميع الناس بحاجةِ الالتفات للنفس والعناية بأوراد التعبد، فالتوجهُ النفسيُّ العام إنما هو لعمل الفرد لا لعمل المجموع.

ثم إنَّ وجودَ الصِّيَامِ يحجز عن التوسع في الزيارات والمناشط الاجتماعية، وإذا أراد الشخص أن يزور أحدًا فإنَّ رغبة المزور أن تكون الزيارة في وقت الإفطار ليقدر على القيام بواجب الإكرام.

وإذا دخل وقت الإفطار لم يبق كثير وقت لصلاة التراويح، ثم يحصل الاشتغال بها ويذهب قدرٌ من الليل، ومن ثم تطلب النفوس عدم التوسع في السهر لتقدر على الاستيقاظ المبكر للتهجد والسحور.

ولو أراد الشخص أن يزور أحدًا بعد العصر تحسس من ذلك لئلا يشق على المزور بالإصرار على تفطيره؛ فإنَّ الناس مجبولون على إكرام الزائر ولو ضاق الحال، ويخشى الزائر أن يَنزِلَ قدرٌ ولو قلَّ من الحرج بالمزور، فيتوقى الزيارة في هذا الوقت.

وغالب ما يحصل من زياراتٍ اجتماعيةٍ يكون سريعًا وخاطفًا، من غير أن ينزل اللوم بساحة أحدٍ.

وهذا كله يؤكد النتيجة التي سمعتها مرارًا من فضيلة شيخنا الدكتور **يونس الأسطل** وفقه الله إذ كان يقول: «رمضان لا يتَّسِعُ لغيره»، وذلك نقلًا عن شيخه **محمد عبد القادر أبو فارس** رحمه الله كما أخبرني بذلك.

وهذه الأجواء الميمونة بهذه التركيبة التي عليها رمضان تمنحك قدرًا حسنًا من صفاء الحال وراحة البال، وهي فرصةٌ كريمةٌ لا ينبغي أن تفوت أو تُشغل عنها بما لا كبير نفع فيه؛ فإنَّ النفس لا تتربى في ضجيج، وإذا جمع الله لك بين صفاء القلب وصفاء العقل.. فثمة الإبداع والتركيز وحسن الإنتاج.

الخاصية الرابعة:

إمكان تعويض النقص واستدراك ما فات:

وهـذه نتيجةٌ للخاصيتين الأولى والثالثة، فتمثَّلْهُمَا في نفسك وأعد التأمل فيهما لتعرف أي فضلٍ ساقه الله إليك في هذا الشهر.

إنَّك الآن تجد وقتًا جيدًا لأورادك الذاتية، وتجد نفسًا مقبلةً على ربها، من غير أن تجد تشويشًا من تسلط السيئات أو وسوسة الشياطين، فضلًا عن أنَّ أبوابَ الخيرِ مفتوحةٌ على مصراعيها لك، والآخرة تنادي عليك أن أقبِل أقبل، والأجور المدهشة تحيط بك من كل جانب، والناس يشاركونك أعمالك وأجواءك فلست متفردًا بهذا لتشعر بالثقل، فكل شيء يدفع للعمل، ويمنح الفأل والأمل.

إنَّ المشاعرَ التي تنزل بالقلوب وتقرؤها في العيون حين يجتمع الناس لصلاة التراويح، ويبدأ الإمام في ترتيل الآيات حتى يختم بالقنوت، وإن الحالة النفسية التي تراها في جمع الناس عند صلاة المغرب وصلاة الفجر، وما يُسمع في المسجد من صوتٍ كدويِّ النحل بالدعاء قبل المغرب، وبالتلاوة والتسبيح قبل صلاة الفجر.. لهي من أعظم الرزق النفسي الذي يُنتج لك نفسًا تقبل على الأوراد على مدار الساعة من غيرِ كللٍ ولا ملل، ومن غير أن تُدفع بمواعظ الدعاة أو منابر الخطباء، فالبيئةُ نفسُها هي أعظم من كل واعظٍ وأفصحُ من كلِّ خطيب.

وفي هذه الأجواء يتيسر لك أن تنظر فيما فاتك في عامك وتقوم بتعويض الفَوت واستدراك النقص.

وقضيةُ الاستدراك قضيَّةٌ مركزيَّةٌ في التصور التربوي على الصعيد الإداري لكلِّ شخص، وقد أفردت لها كتابًا اسمه: «**فقه الاستدراك.. كيف تصحح المسير، وتستدرك ما فات من العمر الطويل في زمن قصير؟**» وهو منشورٌ على الشبكة فأحيل عليه لتحصيل المقصود.

ومما قلته في مقدمة الكتاب:

إنَّ كثيرًا من أصحاب الطُّمُوحِ تكتمل مداركُهم، وترجع إليهم هِمَّتُهم بعد سنواتٍ من

المسير، فإذا انعطف الواحدُ منهم إلى الوراء، وأخذ يُعَدِّد السنين التي فاتته مسَّته الحسرة، ونزلت به الكآبة، واحتار كيف يُعَوِّض ما فات!

ثم إنه إذا ألقى نظرةً حوله، ورأى من تفقه وتعلم وجاهد وتقدَّم وبنى وتزوج مع اتحاد الظرف بينهم وبينه.. كادت تصيبه حالةٌ نفسيَّةٌ من الهم والغم والحزن والألم، فماذا عسى أن يفعل؟ وكيف له أن يستدرك ما قصَّر؟

هذا رجلٌ أقام على بدعته دهرًا طويلًا ثم اهتدى، لكن قلبه يكاد يتقطع على ما مضى من العمر، ويريد أن يستدرك فيما تبقى، فماذا يعمل؟

شابٌّ من الشباب تردَّد حاله بين الهداية والغواية، واعتراه من الشيطان ما اعتراه، حتى ضعفت همته، وانتكست سيرته، وفسدت سريرته، ولمَّا سمع مناديًا ينادي للإيمان أو أصحابًا يدعونه: إلى الهدى ائتنا.. قرر النهوض والانطلاق، لكنه يسأل عن التعويض والاستدراك، فماذا يفعل؟

طالبُ علمٍ أنفق سنواتٍ عزيزةً من عمره، ولم يهتد إلى طريق الرَّشَد في الطلب إلا بعد حين، ولو استقبل من أمره ما استدبر لفعل كذا، ولصنع كذا، وربما تَعَجَّل التَّصَدُّرَ قبل التأهل، وشعر بالورطة في منتصف السبيل، ويريد الآن أن يستدرك على نفسه، فكيف يصنع؟

ثم إنَّ هذا أو ذاك لو أخذ يتذكر طموحاته وخططه وبرامجه ومشروعاته التي كان يُؤَمِّلُ إنجازها، فلربما اشتدت زفراته، وعلت آهاته، حتى ليكاد يضطرب نبضُه القلبيُّ عندما يحسب السنين التي ضاعت منه، وما زالت تركض أمام عينه.

ولكن ماذا عسى البكاء وحده أن يصنع؟ وإن كنا نستفيد من البكاء على ما فات دفعَهُ للاستدراك بالاجتهاد فيما هو آت؛ فإنَّ الهَمَّ يفضي إلى الهِمَّة، ولذلك عدُّوا **أفضل البكاء ما كان على ما فات من الأوقات، أو سبق من المخالفات**[١].

إنَّ قضيَّةَ الاستدراكِ شغلت أذهانَ كثيرٍ من الصَّحَابة رضي الله عنهم كما تشغلك الآن؛ فقد أسلم كثيرٌ منهم في زمنٍ متأخر، ورأوا من تَقَدَّمَ في رضوان الله، وأكثَرَ من العلم والعمل

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي (١/ ٥٠٩).

والجهاد والدعوة، فصرَّحوا بعباراتٍ تنبيك عن الحالةِ النفسيَّةِ التي استحوذت عليهم، حتى صاحبتهم إلى آخرِ حياتهم، ورسمت لهم خطَّة العمل فيما تبقى من العمر..»[1].

خذ مثالًا واحدًا من جملة الأمثلة التي ذكرتها في الكتاب:

إنه عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه.

أسلم **عكرمة** رضي الله عنه يوم فتح مكة، وهذا يعني أنه أسلم بعد ٢١ سنة من البَعثة النبوية، وكان قبل إسلامه من رؤوس الكفر والغلاة فيه.

ولما مات أبوه أبو جهل يوم بدر ولي مكانه سيادة بني مخزوم، وكان من أشد الناس على المسلمين، حتى إنَّه كان من جملة من أهدر النبيُّ ﷺ دمهم يوم فتح مكة، وقال -كما عند **النسائي**-: «**اقْتُلُوهُمْ وَإِنْ وَجَدْتُمُوهُمْ مُتَعَلِّقِينَ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ**»[2].

وعدَّدهم وبدأ بتسميته؛ وذلك لأنَّه كان يُمثِّل أحد أركان النظام القديم الذين تولوا محاربة الدين واشتد أذاهم بالمسلمين، وهؤلاء إن لم يتم القضاء عليهم فإنهم سيكونون غالبًا بذرة المؤامرة لتأليب الناس على استئصال الحكم الإسلامي الجديد، ومن ثم فالمعاملة معهم تكون بالعدل لا بالإحسان.

إلا أنَّ زوجة **عكرمة** سعت عند النبيِّ ﷺ ليُؤَمِّنَهُ، وقد فعل، وكان قد ركب البحر فارًّا إلى اليمن، ومن قدر الله ورحمته به وفضله عليه أن حصل له في الطريق ما يأخذ به إلى الإسلام.

جاء في حديث **النسائي** المذكور آنفًا: «وَأَمَّا عِكْرِمَةُ فَرَكِبَ الْبَحْرَ فَأَصَابَتْهُمْ عَاصِفٌ فَقَالَ أَصْحَابُ السَّفِينَةِ: أَخْلِصُوا؛ فَإِنَّ آلِهَتَكُمْ لَا تُغْنِي عَنْكُمْ شَيْئًا هَاهُنَا!

فَقَالَ عِكْرِمَةُ: «**وَاللهِ لَئِنْ لَمْ يُنَجِّنِي مِنَ الْبَحْرِ إِلَّا الْإِخْلَاصُ لَا يُنَجِّينِي فِي الْبَرِّ غَيْرُهُ، اللهمَّ إِنَّ لَكَ عَلَيَّ عَهْدًا إِنْ أَنْتَ عَافَيْتَنِي مِمَّا أَنَا فِيهِ أَنْ آتِيَ مُحَمَّدًا ﷺ حَتَّى أَضَعَ يَدِي فِي يَدِهِ**

(١) فقه الاستدراك ص (١).

(٢) سنن النسائي، رقم الحديث: (٤٠٧٨) صححه الألباني، وفي بقية الحديث ما يحسن الوقوف عليه، فانظره إن سرَّك أن يبسط لك في علمك.

فَلَأَجِدَنَّهُ عفُوًّا كَرِيمًا».

فالتقت النيَّةُ الصالحةُ منه مع سعي زوجته في تأمينه عند النبي ﷺ، فلما جاء قام له النبيُّ ﷺ محييًا وقال: «**مرحبًا بالراكب المهاجر**»، فلم يسمه بالفار إذ خرج من مكة، والهجرة هنا هجرةٌ إلى الله ورسوله ﷺ.

فقال: ما أقول يا نبي الله؟

قال: «**قل: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله**».

قال: ثم ماذا؟

قال: «**تقول: اللهم إني أُشهدك أني مهاجرٌ مجاهد**»، ففعل.

ثم قال النبي ﷺ: «**ما أنت سائلي شيئًا أعطيه أحدًا من الناس إلا أعطيتك**».

فقال: أما إني لا أسألك مالاً؛ إني أكثر قريش مالاً، ولكن أسألك أن تستغفر لي[١].

ثم قال: يَا رَسُولَ الله، **وَالله لاَ أَتْرُكُ مَقَامًا قُمْتُهُ لأَصُدَّ بِهِ عَنْ سَبِيلِ الله إلاَّ قُمْتُ مِثْلَهُ فِي سَبِيلِ الله، وَلاَ أَتْرُكُ نَفَقَةً أَصُدُّ بِهَا عَنْ سَبِيلِ الله إلاَّ أَنْفَقْتُ مِثْلَهَا فِي سَبِيلِ الله!**

فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْيَرْمُوكِ نَزَلَ فَتَرَجَّلَ، فَقَاتَلَ قِتالًا شَدِيدًا، فَقُتِلَ، فَوُجِدَ بِهِ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ ما بَيْنِ طَعْنَةٍ وَضَرْبَةٍ وَرَمْيَةٍ![٢].

وقد ورد أنه لما ترجل رضي الله عنه قال له **خالد بن الوليد** رضي الله عنه: لا تفعل؛ فإنَّ قتلَكَ على المسلمين شديد!

فقال: **خلِّ عني يا خالد؛ فإنه قد كان لك مع رسول الله ﷺ سابقة، وإني وأبي كُنَّا من أشد الناس على رسول الله ﷺ**.

فمشى حتى قتل[٣]!

وهنا تراه رضي الله عنه يغبط **خالدًا** رضي الله عنه على السابقة في الإسلام وما سبقه إلا بأربعة أشهر!

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٤١/ ٥٣).
(٢) مصنف بن أبي شيبة (١٣/ ٣٧).
(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (٤١/ ٦٩).

أرأيت كلام الرجل وفقهه وعقله!

هذه هي قصة الاستدراك.

إنَّ الرجلَ يقرر خطته باختصار، ويقول ما مفاده:

كل موقف وقفته ضد المسلمين سأقف مثله ضد الكفار.

وقد رأيتَ شدَّتَه الآن على الكفار بعد الذي أشرتُ إليه من شدته على المسلمين، وهو الذي اشتد أيضًا على المرتدين لما استعمله **أبو بكر الصديق** رضي الله عنه قائدًا على جيش المسلمين في معارك عمان حين ارتدوا، فقاتلهم حتى أظفره الله بهم، ثم شد النفير فيما بعد إلى الشام واستشهد[١].

وكل درهم أنفقته في حرب المسلمين سأنفق مثله في سبيل الله!

فلو كان قد أنفق طيلة حياته في الكفر ما يعادل مائة ألف درهم مثلًا.. فإنه سينفق مثلها؛ تعويضًا لما فاته من الخيرات، كأنه كان قد أسلم وأخذ في النفقة من أول البَعثة النبوية في مكة!

بل جاء عند **ابن عساكر** أنه قال: **«فوالله لئن طالت بي حياة لأضعفَنَّ ذلك كلَّه»**[٢].

وقال: **«أما والله يا رسول الله لا أدع نفقة كنت أنفقها في صد عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله، ولا قتالًا كنت أقاتل في صدٍّ عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه في سبيل الله»**[٣].

فالمواقف مضاعفة، والنفقات مضاعفة.

وهذا المنهج يمكن أن تعتمده في خاصة نفسك في سائر العام، لكنه في رمضان أشد مناسبةً؛ لما تقدَّم من فرصة استثمار الخاصيتين الأولى والثالثة من خصائصه.

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٤١/ ٥١-٥٢).
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٤١/ ٥٣).
(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (٤١/ ٦٤).

وبالمثال يتضح المقال:

إنَّ الحدَّ الأدنى من الوِرْدِ القرآنيِّ ينبغي ألا يقل عن ثلاثة أرباع جزء من القرآن؛ أي خمس عشرة صفحة؛ لما أخرج **أبو داود والترمذي** عن **عبد الله بن عمرو** رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «اقْرَأْ الْقُرْآنَ فِي أَرْبَعِينَ».

قَالَ **إِسْحَقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ**: وَلَا نُحِبُّ لِلرَّجُلِ أَنْ يَأْتِيَ عَلَيْهِ أَكْثَرُ مِنْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَلَمْ يَقْرَأْ الْقُرْآنَ لِهَذَا الْحَدِيثِ[1] صححه الألباني.

وترجمة هذا تعني أنَّ المسلم ينبغي أن يختم القرآن تسع ختمات في العام على الأقل.

إلا أنَّ كثيرًا من الناس تقعد همتهم عن الورد القرآني، وربما مضى العام دون أن يكملوا ختمتين أو ثلاثًا، وربما لم يختم بعض الناس إلا ختمة رمضان ويبقى أحدهم فاتر الهمة إلى رمضان الذي يليه.

فإذا دخل رمضان وتهيأت الأجواء للاستكثار من الطاعة من غير كبير مجاهدة، وفي ظلال حالة التفرغ الجيد والاستعداد الروحي الحاضر.. فإن ذا العزم يمكنه أن يستدرك ما فاته طيلة العام في رمضان، فيختم ما بقي عليه من الختمات أو يسد جانبًا حسنًا منه، فمن لم يُسدِّد فليُقارب.

مثالٌ ثانٍ:

إنَّ الأصل أن يكون للإنسان حظٌّ ثابتٌ من قيام الليل، إلا أنه قد يتكاسل عن ذلك، ويبقى كذلك حتى يداهمه رمضان، فإذا دخل، وفُتِحت أبواب العبادة من كلِّ جانب.. فقد آن أوان الاستدراك لما فاته من القيام من خلال جملةٍ من التدابير أكتفي منها بأمرين:

الأول: صلاة التراويح مع الإمام مع الإتمام: فإنها من قيام الليل، وإذا أتم مع الإمام فإنه يفوز بأجر قيام ليلةٍ كاملةٍ بإذن الله وفضله؛ فقد أخرج أصحاب السنن عن **أبي ذرٍّ** رضي الله عنه

---

(١) سنن أبي داود، رقم الحديث: (١٣٩٧)، سنن الترمذي، رقم الحديث: (٢٩٤٦) واللفظ للترمذي.

أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ قَامَ مَعَ الْإِمَامِ حَتَّى يَنْصَرِفَ كُتِبَ لَهُ قِيَامُ لَيْلَةٍ»[1] صححه الألباني.

الثاني: إتمام القيام بمائة آية: فلو كان المقروء في صلاة التراويح خمسين آية فإنه يكمل منفردًا أو في جماعة وصولًا للمائة؛ روى الإمام **أحمد** في مسنده عنْ **تَمِيمٍ الدَّارِيِّ** رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ بِمِائَةِ آيَةٍ فِي لَيْلَةٍ كُتِبَ لَهُ قُنُوتُ لَيْلَةٍ»[2] صححه الألباني وحسنه شعيب الأرنؤوط بشواهده.

وسيأتي مزيدٌ من صور تحصيل أجر قيام ليلة في مطلب الأعمال البدنية من المبحث الثاني إن شاء الله تعالى.

الخاصية الخامسة:

تآخي مقصد صيام رمضان الأكبر مع مقصد تزكية النفس:

إنَّ رمضانَ مدرسةٌ تربويةٌ متكاملةٌ، وعلى كثرةِ ما يمكن الوقوف عليه من المقاصد والثمرات من مثل صفاء القلب واستنارة الروح وإعمال الفِكر وتصفية الذهن، واستعادة الفأل والأمل، وتجديد الطاقة وتوجه الهمة نحو العمل، وحفظ الصحة وإراحة البدن، وتذكر المحرومين وذوي الابتلاء واللأواء من أبناء الأمة في شتى أماكن تواجدهم، وتقوية الإرادة وتحقيق الصبر بترك الطعام والشراب والشهوة، ولهذا اختبر طالوت جنوده بترك الشرب من النهر إلا من اغترف غُرفةً بيده.. إلا أنَّ رأس المقاصد ما نصَّ الله عليه في كتابه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وهذه أولُ آيــةٍ من آيات الحديث عن الصيام، وخُتِمت آخـــر آيةٍ في السياق نفسه بمــا خُتِمت بـــه الأولى فقال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧].

---

(١) سنن أبي داود، رقم الحديث: (١٣٧٧)، سنن الترمذي، رقم الحديث: (٨٠٦)، سنن النسائي، رقم الحديث: (١٣٦٣)، سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (١٣٢٧) واللفظ للترمذي.

(٢) مسند أحمد، رقم الحديث: (١٦٩٩٩).

وتحقيق التقوى أحد وظائف عملية تزكية الأنفس كما يؤخذ مما تقدم، لينتقل الإنسان بهذا من فجوره وطغواه إلى إحسانه وتقواه.

وإذا كان تحصيل التقوى هو مقصد رمضان الخاص فإنَّ تزكية النفس هي مقصده العام.

والتقوى: أن تجعل بينك وبين غضب الله وقاية، ويمكن تعريفها بأنها: اتقاء عقوبته باتقاء ما نهى عنه وأداء ما أمر به.

ولا يرفع وصف التقوى عن العبد وقوعه في الذنب متى تذكَّر وتاب عن قريب، وزفَّ هذه البشرى قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

ورمضان جوهرةٌ ثمينةٌ لا تسكن في بيتٍ نجس، شأن جواهر الذهب التي لا تُوضَعُ إلا في أوعيةٍ كريمة، فإذا جاء رمضان ولم يَسْعَ العبدُ في تعميرِ قلبِهِ بالتقوى وتطهيره من دنس الشهوات، وإصلاح عقله بحسن التدبر وتطهيره من خبث الشبهات.. فإنه يتجاوزه.

وذلك أنَّ الآخرةَ لا تستجدي أحدًا، وهي مطلوبةٌ لا طالبة، وقد تفضَّل الله على عباده في رمضان بفتح أبوابها من غير مفتاحٍ منك، فمن دخل نال الكرامة وغُفِر له، ومن تكاسل وتباطأ فقد مسه الذل والهوان، والتصق به وصف الخذلان، إلا أن يتوب، وقد علمت هذا المعنى في خواتيم الكلام على الخاصية الأولى.

إذا وعيتَ هذا علمتَ أنَّ اليقظة أمرٌ يشترك فيه الناس مطلع رمضان ونحوه من المواسم، ثم هم على مشارب:

فمنهم من يستيقظ من غفلته لكنه ينام سريعًا.

ومنهم من يستيقظ، لكنه يحتاج لمنبهاتٍ تُثبِّت يقظته، كحال من يحتاج للقهوة أو الشاي لضمان اليقظة، وهؤلاء يحتاجون لمثبتاتٍ ومعينات؛ من مثل الأخ الصالح والبيئة المحافظة واعتكاف العشر الأواخر من رمضان حيث الأجواءُ المُحَفِّزَة.

ومنهم من يستيقظ، ثم ينطلق في السعي فورًا، وربما أخذ يركض في بعض المحطات، ويبقى على هذه الحال لا ينحطُّ عنها، ولا أجد توصيفًا لهؤلاء أشد روعةً مما جادت به

قريحة ابن الجوزي إذ خطَّ قائلًا:

ومن الصفوة أقوامٌ مذ تيقظوا ما ناموا، ومذ سلكوا ما وقفوا، فَهَمُّهُم صعودٌ وترقٍّ، كلما عبروا مقامًا إلى مقام رأوا نقص ما كانوا فيه فاستغفروا![1].

ولا تضر السقطات العارضة إذا أعقبها نهوضٌ سريع، وباب الله مفتوحٌ لا يرد.

هذه خصائص خمس يتميز بها شهر رمضان، تجعل باب التعبد فيه مفتوحًا على مصراعيه، وعقب الذي تسطَّر فيها وتقرَّر أستطيع القول:

إنَّ رمضان ميزان العام، وما يُتلقَّى فيه من مادة الإيمان في القلب بمثابة شحنة الكهرباء التي تُختزن في البطارية، وتقتات عليها الأجهزة حينًا من الزمن.

والمرتجى لمن قام بحق رمضان أن يشحنه عقديًّا وإيمانيًّا وتربويًّا وسلوكيًّا إلى رمضان الذي يليه، وعلى قدر ما حصَّل فيه من إيمانٍ فإنه يبقى بعده متماسكًا مدة شهرٍ أو شهرين أو ثلاثة أو أكثر من ذلك.

وقل مثل ذلك في الصلاة؛ إذ إنَّها الميزان المتكرر خلال اليوم؛ فإنَّ كلَّ صلاةٍ ينبغي أن تزودك بالإيمان وحسن السلوك لغاية الصلاة التي بعدها.

وقل مثل ذلك أيضًا في يوم الجمعة بما يتضمنه من خصائص وأعمال؛ فإنه ميزان الأسبوع.

وقد ذكر **ابن القيم** من خصائصه ثلاثًا وثلاثين خاصية في كتابه **«زاد المعاد»**، وبلغت عند الإمام **السيوطي** خاصيةً ومائة في كتابه الذي أفرده لذلك بعنوان: **«نور اللُّمعة في خصائص الجمعة»**.

والقيام بحق يوم الجمعة ينبغي أن يشحنك بمادة الإيمان أسبوعًا كاملًا من الجمعة إلى الجمعة.

وما تُحصِّله من أصول كلية وقواعد مرعية من مادة الإيمان في الحج يبقى قوتًا لك على

---

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي ص (١١٩).

امتداد عمرك الطويل في رحلتك إلى الله تعالى.

وتناول **ابن القيم** ذلك فقال في كلامٍ فصيحٍ مليح: «**من صحَّ له يوم جمعته وسلم.. سلمت له سائر جمعته، ومن صحَّ له رمضان وسلم.. سلمت له سائرُ سنته، ومن صحت له حجته وسلمت له.. صح له سائر عمره، فيوم الجمعة ميزان الأسبوع، ورمضان ميزان العام، والحج ميزان العمر، وبالله التوفيق**»[1].

وما تقرر كله محله إذا كان الإنسان في أجواء رمضان أو ما قاربه من المواسم الفاضلة كالعشر من ذي الحجة، فإذا لم يكن كذلك.. فما عليك إلا أن تعزم أمرك وتجمع قلبك وتتخذ قرارك وتمضي على بركة الله.

وذلك أنَّ بابَ الله مفتوحٌ في رمضان وغير رمضان، وإنَّ **حسن الأعمالِ وصلاح الأحوال غير منوطٍ بالمواسم الفاضلة ولا بأوائل الأزمنة؛ وإنما بقوة العزائم وإقبال الأفئدة.**

وما عليك إلا أن تبدأ عملك من ساعتك، ولا تنتظر موسمًا فاضلًا، بل لا تؤجل حيوية إقبالك لأول الأسبوع أو الشهر، وفضل الله واسع ممتد لا ينقطع.

ولك في موعظة الشيخ **محمد الأمين الشنقيطي** سلوى إذ عقَّب على قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] بقوله: اعجب لأمةٍ يخاطب الله مسرفيها هذا الخطاب في الآيات البينات المحكمات من الكتاب وقوله لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾!



(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (١/ ٣٩٨).





المبحث الأول
الأصول التربوية وأعمدة بناء الإيمان

هذا المبحث بمثابة حجر الأساس للعملية التربوية بِأَسْرِهَا، والذي يُبنى عليه صرحُ التعبُّدِ برُمَّتِه، وبه يقع العمل على فقهٍ وبصيرة، وفيه مطلبان كما هي دلالةُ العنوان:

المطلب الأول: الأصول التربوية.

المطلب الثاني: أعمدة بناء الإيمان.

ودونك البيان:

المطلب الأول

الأصــــول التـــــربوية

إنَّ تقعيدَ المادةِ التربويَّةِ والإيمانيَّةِ على هيئة قواعد كليةٍ حاكمةٍ أمرٌ ذو قَدْر، لكنه لا يخلو من مشقةٍ، ثم هو موضع تفاوت نظر الناس، وما تراه هنا محاولةٌ اجتهاديَّةٌ لافتتاح القول في هذا الباب، وعسى أن يبقى في نموٍّ حتى ينضج، ومن ثَمَّ يُفرد في مقامٍ خاص.

والذي هداني الله إليه هو تسعة عشر أصلًا موزعة على ستة مسارات، والرجاء في فضل الله وكرمه أنَّ من وعاها واهتدى بهداها أنه لا يتيه في طريقه إلى الله ولو كثرت الفتن وعمت الشبهات والشهوات، والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم.

ودونك بيان ذلك:

المسار الأول: الأصول الكلية العامة

وفيه ثلاثة أصول:

الأصل الأول:

«أن تعرف نفسك وغايتك وطريقك وموضعك:

فأنت عبدٌ.

وغايتك: معرفة الله والوصول إليه وحسن عبادته.

وطريقك: الإسلام من عقيدةٍ وشريعةٍ وسلوك.

وموضعك: المقدار الذي قطعته في التعرف عليه والوصول إليه.

وقد قالوا: حقيقةُ العلم: أن تعرفَ رَبَّك ولا تعدو قَدْرَك».

إنَّ هذا الأصل هو جوابٌ عن الأسئلة التي تُبَيِّنُ معالِمَ العلاقةِ مع الله تعالى، فمن أنت؟ ولماذا خُلقت؟ وما المنهج الذي يتحدد به طريقُك؟ وإلى أي موضع بلغت؟

فهب أنك في سفح جبل والهدف أن تبلغ القمة، فضع المؤشِّرَ على موضعك من العلاقة مع الله تعالى وامتثال أوامره ونواهيه وتحلِّيك بحلية السلوك والأدب، وانظر أين كنت من قبل سعيك وإلى أين وصلت؟

ومن ثمرات تحصيل هذا الأصل الأمران الآتيان:

الأول: تيسير الشعور بمعنى العبودية: فمتى أجاب الإنسان عن الأسئلة ووعاها.. عرف أنه عبدٌ مخلوقٌ من تراب ثم من نطفةٍ قذرة، وأنه ضعيفٌ غاية الضعف ومحتاج إلى الله غاية الحاجة، وأنَّ الله هو الخالق القادر، وهو مصدر القوة والنور والهداية، وهو القائم بنفسه ولا يقوم كل شيءٍ إلا به، فالناس إليه فقراء وهو عنهم غني كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

الثاني: إنه على قدر تحقق معرفة النفس بما هي عليه من نقص ومعرفة الرب بما عليه من كمال.. ينزل عليك من أفضال.

وأشار **ابن عطاء السكندري** رحمه الله إلى ذلك في حِكَمِهِ قائلًا: **«تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه، تحقق بِذُلِّكَ يُمدك بعزه، تحقق بعجزك يمدك بقدرته، تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته»**[١].

ومن هنا جادت **قريحة بديع الزمان النورسي** رحمه الله بكلمته التي لخَّص فيها هذا المعنى بأوجز لفظٍ حيث قال: **«عجزي كنزي»**.

وسيأتي مزيدٌ لتقرير هذه الفكرة عند الكلام عن أقسام الدعاء في مطلب الأعمال القولية من المبحث القادم إن شاء الله.

الأصل الثاني:

«مفتاح الإسلام: الانقياد والاستسلام».

وهذا الأصل ثمرة الأصل الذي قبله؛ فمن كان عبدًا لله انقاد لأحكامه

(١) الحكم العطائية، الحكمة رقم: (١٧٨).

بالضرورة، وجاءت الإشارة لهذا المعنى الدقيق في قوله سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] قال **مجاهد**: أي لا يُؤمر ولا يُنهى[١].

ومن الأخبار التي تُبرز هذا المعنى: ما ذُكِر في قصة توبة **بِشر الحافي** رحمه الله أنه كان زمن لهوه في داره وعنده رفقاؤه يشربون، فاجتازٌ بهم رجلٌ صالحٌ فدقَّ الباب فخرجت إليه جاريةٌ فقال لها: صاحب هذه الدار حرٌّ أو عبد!

فقالت: بل حر.

قال: صدقتِ؛ **لو كان عبدًا لاستعمل دأب العبيد!**

فلما علم بِشر بسؤاله ومقاله سرت العبارة في كيانه سري الكهرباء في الأسلاك وأدرك مراده وسألها: أي ناحية أخذ الرجل؟ فقالت: كذا، فتبعه حتى لحقه وقال له: يا سيدي أنت الذي وقفت بالباب وخَاطَبْتَ الجارية؟ قال: نعم، قال: أعد عليَّ الكلام الذي قلت، فأعاده، فمرَّغ خدَّيه على الأرض وقال: بل عبدٌ عبد، وكان من أمره وصلاحه ما كان[٢].

وهذا درسٌ بليغٌ يتوجه لكلِّ من أقام على ذنبٍ وخالف بذلك أَمْرَ ملكِ الملوك سبحانه فيقال له: لو كنتَ عبدًا ما فعلتَ ذلك!

والمعنى: أنه لو كان عبدًا لله حقًّا ما خالف أمره؛ فقد جرت العادة أنَّ العبيدَ رهنُ إشارةِ أسيادهم رغبًا أو رهبًا.

وهذا الدِّينُ فيه آلاف الأعمال إذا نزلنا إلى مستوى التفاصيل، إلا أنَّ الاستسلامَ هو العملُ القلبيُّ الوحيدُ الذي صار علمًا على هذا الدين ليُسمَّى بـ «الإسلام»؛ لتدرك بهذا مركزية هذا الأصل في التصور الإسلامي.

ومتى ترك العبد هذا الأصل وكذا الذي قبله تسلسل به الداءُ حتى يصلَ إلى الطغيان، ولهذا جاء تقرير هذين الأصلين في أول سور القرآن نزولًا كما قال سبحانه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ

(١) تفسير الطبري (٢٤/ ٨٣).
(٢) التوابين لابن قدامة ص (١٢٢) بتصرف.

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ١ - ٧].

فقد أمرت السورة بالقراءة ولكن باسم الله لا باسم غيره؛ تقريرًا لجهة الحاكمية؛ إذ إنَّه الذي خَلَق، وهذا الإنسان الذي يعاند الله في أحكامه هو عبدٌ مخلوقٌ لهذا الخالق، وكان خَلقُهُ من علقةٍ، غير أنَّ الله شرَّفه بالعلم الذي يصل به إلى ربه.

لكنَّ هذا العبد المخلوق من علقةٍ إذا رأى نفسه استغنت عن الله بما أوتي من مالٍ وجاهٍ.. اغترَّ بما لديه، وتعاظم وتكبر وتجاوز الحد في التكبر والتمرد فيكون عند ذلك طاغيًا.

وقد عرضت سورة يس أول الأطوار وآخرها في آيةٍ واحدةٍ وذلك في قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٧٧]!

فهذا الإنسان المخلوق من نطفةٍ قذرةٍ هو الذي يخاصم في أمر البعث وينكره، فكأن الآية تقول: أبلغ الجهل بهذا الإنسان أنه لم يعلم أنا خلقناه بقدرتنا من ذلك الماء المهين وأنَّ من أوجده منه قادرٌ على أن يعيده إلى الحياة بعد الموت!

لقد كان من الواجب عليه أن يدرك ذلك؛ ولكنه لغفلته وعناده بادر بالمبالغة في الخصومة والجدل بالباطل وجاهر بذلك مجاهرةً واضحةً مع علمه بأصل خلقته[1].

وأخطر شيءٍ في هذا المقام جهلُ الإنسان بنفسه، وإنَّ معرفتَهُ لنفسه غنيمة، ومعرفته لأحجام الأشياء من حوله رزقٌ وفضيلة، فالنحاس نحاسٌ ولو زعم الناس أنه ذهب، والذهب ذهبٌ ولو قال الناس إنه نحاس، ولهذا كان من دعاء **ابن الجوزي** الذي سجَّله في كتابه العاطر «صيد الخاطر» قوله: اللهم أرني الأشياء كما هي[2].

(١) تفسير الوسيط (١٢-٥٥-٥٦).
(٢) صيد الخاطر ص (٦٢) بتصرفٍ يسير.

الأصل الثالث:

«المركزية في النظر الشرعي للآخرة، ولازمها الإيمان بالغيب، وثمرته اليقين».

تناول هذا الأصل أمورًا ثلاثة:

الأول: مركزية الآخرة، فالدنيا في التصور الإسلامي مع اعتبار كل ما يُطلب فيها من طيب العيش والاستقرار النفسي والمادي والاجتماعي إلا أنها وسيلةٌ للآخرة، ولا تخرج عن كونها ممرًّا إلى الحياة الباقية، ومحطةَ اختبارٍ يتمايز فيها الناس كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

ولهذا وعظ الله نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

الثاني: إنَّ لازمَ الإيمانِ بمركزيَّةِ الآخرةِ الإيمانُ بالغيب.

الثالث: إنَّ ثمرةَ الإيمانِ بالغيب اليقينُ المطلقُ بما ورد في كلام الله وكلام رسوله ﷺ، مما يجعل المسلم إذا سمع شيئًا من أمر الغيب أو فضلَ عملٍ في الآخرة؛ كمضاعفة الأجر على الصدقة وضخامة المثوبة على العلم والجهاد.. أن يتعامل مع النص بنفس درجة اليقين بما يراه في الحس، بل إنَّ وُثوقَهُ بما أخبر الله به في كتابه أو أخبر به النبي ﷺ في سنته أوثق في صدره مما تراه عينه أو تسمعه أذنه.

وهذا الأصلُ الكليُّ بما يتضمنه من أصولٍ فرعيَّةٍ يستحقُّ أن يُفرَدَ وحده في كتابٍ لمعرفةِ الطرقِ المُوصلةِ إلى تحصيله، وأكتفي هنا بالإحالة على جملةٍ من الكتابات التي يُغطِّي كل نوعٍ منها جانبًا من هذه الجوانب، وذلك في خمسة بنودٍ كما يلي:

أولًا: قراءة الكتابات التي تكلمت عن مركزية الآخرة، وأنصح هنا بقراءة ما كتبه الشيخ **إبراهيم السكران** فرَّج الله كربه في كتابه: «**مآلات الخطاب المدني**» في الفصل الثاني منه الذي خصصه لذلك، وهو بعنوان: «**منزلة المدنية المادية**»، وذلك في طرحٍ بديعٍ يأخذ بالألباب.

ثانيًا: القراءة في كتب العقيدة التي اشتغلت بتقرير معتقد أهل السنة ومادة الإيمان من غير الدخول في الخلافيات مع الفرق البدعية.

وذلك أنَّ القصدَ هنا هو بناءُ الإيمان وحسن التعرف على الله تعالى والوقوف على آثار قدرته، مع التزود بمادة الإيمان المتناثرة في جملة أركان الإيمان؛ وذلك تحصيلًا لقوة الإيمان بالله واليقين بما عنده بما يثمر قوةً في التعبد وصلابةً في الحق.

وأرشح سلسلة العقيدة للشيخ **عمر الأشقر** ﵀؛ فإنَّ باعثه على كتابتها هو هذا الغرض الذي أذكره هنا الآن.

ومن الكتب الوعظية التي تخدم في هذا الباب كتاب: **«رحلة إلى الدار الآخرة»** للشيخ **محمود المصري** وفقه الله.

ثالثًا: قراءة الكتب التي اعتنت بتعزيز اليقين بصحة هذا الدين عبر ذكر دلائل صدق النبوة، مثل كتاب **«دلائل النبوة»** للإمام **البيهقي**، وكتاب: **«أعلام النبوة»** للإمام **الماوردي**.

رابعًا: قراءة الكتب التي تتكلم عن الله سبحانه وتعالى وأسمائه وصفاته مثل كتاب: **«فقه الأسماء الحسنى»** للشيخ **عبد الرزاق البدر** وفقه الله، وكتاب: **«موسوعة أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى»** للشيخ **محمد راتب النابلسي** وفقه الله، فهذه الكتب لها أثرٌ عجيبٌ فعَّالٌ في غرس الإيمان في القلب وربط الإنسان بالله.

ومن حسنات طرح الشيخ **محمد راتب النابلسي** وفقه الله أنه يعتني إلى حدٍّ ما بمادة فقه السنن وهو يشتغل بتقرير معاني أسماء الله الحسنى وصفاته العلا.

خامسًا: قراءة الكتب التي تنمي عبادة التفكر في خلق السماوات والأرض مثل كتاب: **«موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة»** للشيخ **محمد راتب النابلسي** وفقه الله، وذلك في جزءيه: **«آيات الله في الإنسان»**، و **«آيات الله في الآفاق»**.

هذه هي الأصول الثلاثة الكلية العامة، والذي يدلُّك على مركزيتها في التصور الإسلامي أنَّ القرآن قرَّرَها في أوله من حيث الترتيب الذي صارت عليه السور.

فتناولت سورة الفاتحة الجواب عن الأسئلة الكبرى وقررت أن الله هو رب العالمين، وأنَّ الإنسان هو عبدٌ لله يعبده ويستعين به، فهو مفتقرٌ إليه غاية الافتقار، خاصة في هدايته للصراط المستقيم.

وثمرةُ هذا كله: الانقيادُ لله والاستسلامُ لأمره.

وتولت فاتحةُ سورةِ البقرة تقريرَ الانقياد لأمر الله بكون الكتاب لا ريب فيه، وجعلت أول صفةٍ للمتقين أنهم يؤمنون بالغيب، كما ذكرت من صفاتهم أنهم بالآخرة هم يوقنون.

المسار الثاني: الأصول العامة للفقه التربوي

وفيه أربعة أصول:

الأصل الأول:

«التربية لا تقوم إلا على ساق العلم».

وهذا إيذانٌ بأنَّ كلَّ ما يتقررُ من صُوَرِ التعبد والإنابة إلى الله وبناء النفوس والمجتمعات وإقامة الدول إنما يكون عقب العلم، ولذلك كان أول ما نزل من القرآن قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ - ٥].

فالأمر بالقراءة يمكن عدُّه أولَ فرضٍ فرضه الله على الأمة، ومن العجيب الذي يشد أذهان النبلاء أنَّ العلم وآلته جاءت الإشارة إليه في أول خمس آيات ستَّ مرات.

ومع أنَّ أكثرَ الشَّعائر الحسية الظاهرة دلالةً على الإذعان والعبودية هي السجود ولصق الجبهة والأنف الذي هو علامة العزة والأنفة بالتراب إلا أن الأمر به في قوله: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩] ما كان إلا بعد أن سُبِق بالأمر بالقراءة في قوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

وجاء تقرير هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩] فأمرَ بالعلمِ أولًا ثم بالاستغفار.

ومن ثمرةِ هذا الأصل: الوصيةُ بطلب العلم والأخذ عن أهله الثقات، فلا يؤخذ الدِّينُ من أصحاب الأذواق الشخصية، ولا من الوعَّاظ وأئمة المساجد لمجرد حُسْنِ الأسلوب أو جَمالِ الصوت.

وكثيرة هي الأمور التعبدية التي يكون منزعها لمسلكٍ عقدي أو حكمٍ فقهي، فلا يقع التعبد على وجهه إلا إذا أخذ المتعبد بحظِّه من علم العقيدة والفقه أو غير ذلك.

ولا يكفي مجرد الاتباع إذا غابت البصيرة التي هي علامة العلم، بل لا بد منهما معًا كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨].

الأصل الثاني:

«التربية مسؤوليَّةٌ فردية».

لا يخفى أن هناك مسؤوليةً على كلِّ ذي ولايةٍ من مثل الأب والأمير والسلطان؛ إذ **«كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»**[1]، إلا أنَّ البيئة بمكوناتها إن لم تقم بواجب التربية فإنَّ المسؤولية تلحق المكلَّف نفسه.

وذلك أنه يأتي يوم القيامة فردًا كما قال سبحانه: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥]، وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل: ١١١].

ولا يسلم من المؤاخذة لمنزلة قومه أو منزلته في قومه أو حزبه.

ومن الأخبار التي تشهد لهذا المعنى: أن رجلًا من الأنصار من بني ظَفَر اسمه **طعمة بن أبيرق** سرق على عهد النبيِّ ﷺ درعًا في جرابٍ من الدقيق من جارٍ له اسمه **قتادة بن النعمان**، وخبَّأه عند رجلٍ يهوديٍّ اسمه **زيد بن السمين**.

---

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٨٩٣)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٤٨٢٨).

إلا أنَّ صاحب الدرع اهتدى إلى مكانها؛ لأنَّ الجراب كان فيه ثقب وكان الدقيق ينتثر منه، فلما كلَّم اليهوديَّ في ذلك قال: دفعها إليَّ طعمة، وشهد له ناسٌ من اليهود بذلك، إلا أن طعمة أنكر ذلك وحلف أنه ما أخذها، وانطلق جمعٌ من قومه للنبيِّ ﷺ يجادلون عن صاحبهم ويسألونه أن يدافع عنه وقالوا: إن لم تفعل هلك وافتضح وبرئ اليهودي.

والذي يزيد المشهد حرجًا أنَّ السَّارقَ مسلمٌ والمتَّهمَ يهودي، والأجواء الاجتماعية تقرر أنَّ الإسلام يصنع أبناءه صناعةً قِيَمِيَّةً وأنَّ اليهود كفار، مما يعني أنَّ القضية يمكن أن تذهب لصخبٍ إعلاميٍّ لن يكون في صالح المسلمين باعتبار الحال.

وقد هم النبي ﷺ أن يستجيب لقومه وأن يعاقب اليهودي احتكامًا للظاهر؛ فإنَّ المسروق وُجد في بيته، وهذه قرينةٌ على أنه هو السارق، فنزل القرآن يتولى تربيةَ الجماعة المسلمة، ويضع قواعد تربويَّةً هاديةً على الطريق.

قال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٠٥ - ١٠٩].

وهذا هو الدرس، إنه يقول باختصار: ها أنتم أيها المدافعون عن **طعمة** وأمثاله جادلتم عنهم في الحياة الدنيا مُبرئين إياهم من الخيانة فمن ذا الذي يستطيع منكم أن يدافع عنهم أمام الله يوم القيامة!

ثم فتح الله الباب **لطعمة** ليقع التصحيح من وجهه الصحيح فقال سبحانه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٠ - ١١٢].

ولم يغفل السياق حالة التناجي التي حصلت من قومه، وسعيهم في تبرئته عند النبيِّ ﷺ بغير حق فقال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ١١٣- ١١٤](1).

إلا أنَّ طعمة لم يتعظ بهذه التربية، ولم يدخل من الباب الذي فتحه الله له؛ بل ارتدَّ ولحق بالمشركين بمكة، وتناولت الآيات ذلك؛ قال سبحانه: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وهذه الآية تقرر محدودية هذه الخسارة، وأنَّ ردَّةَ شخصٍ عن الإسلام لا يقوم لها وزن في مقابل درسِ تقرير الحق وتربية المجتمع على القيم؛ فالمجتمع بهذه التربية يصبح ذا حساسية إزاء أي خدشٍ لصرح القيم، ومن ثم يلتقط كل فرد داخل المجتمع الإسلامي هذه الدرس ويعتني بتربية نفسه وهو يرى القرآن يقرر خطأ الفرد، وأن جدال المجتمع عنه ولو حصل لا يغني عنه من الله شيئًا.

ومن المثورات التي تعين في تكوين الحس التربوي في النفس الأمورُ الأربعةُ الآتية:

أولًا: القراءة التدبرية للقرآن الكريم، لا سيما في صلاة الليل.

ثانيًا: التتلمذ على مواعظ العلماء والدعاة والمربين.

ثالثًا: إدمان النظر في سير العلماء والشهداء والصالحين، لا سيما من المعاصرين؛ فإنَّ النفس تنشط بنشاط من يشترك معها في ذات الظرف والزمن.

(١) زدت في الكلام عن هذه الآيات عماًّ جاء هنا في كتابٍ لم ينشر بعد بعنوان: «**سياسة الخطاب.. محطات في فقه الطرح المنبري**» يسَّر الله طباعته عن قريب.

رابعًا: الالتزام بوِردٍ منهجيٍّ ثابتٍ من القراءة التربوية؛ فإنَّ الورود الدائم للفتن يستلزم الأوراد الدائمة من المعالجة[1].

ويقف في رأس القائمة هنا القراءة في كتب السنة، خاصة الأبواب التي اعتنت بذلك ككتاب الرقاق في كلٍّ من صحيح **البخاري** وصحيح **مسلم**، فضلًا عن الكتب المفردة التي اعتنت بذلك ككتاب «**رياض الصالحين**» للإمام **النووي**.

الأصل الثالث:

«تربيةُ الإسلام تربيةٌ تحت الشمس».

وذلك لما وقع تحت الشمس، أما ما كان في السر.. فمعالجته تكون في السر.

والمقصود بهذا الدرس: أنَّ الخطأ إذا وقع وطَرَقَ سَمْعَ النَّاس.. فلا تُهدر القيم ولا تُغيَّب التربية ردمًا للأخطاء، بل ينبغي أن يكون فرصةً لتربية الصف المسلم على مرأى الناس جميعًا؛ فإنَّ النفوس لا تذعن لسطوة القِيَم إلا إذا خشيت من تبعات الفضيحة والحرج والمؤاخذة، ومن ثم لا تعود للخطأ بل تصلح نفسها في أسرع وقت.

فتحصَّل أنَّ التربية العلنية وإن أحْرَجَت في الحال إلا أنَّها المادة الحافظة للصف المسلم في المآل.

وقصة **طعمة بن أبيرق** التي تقدَّمت تشهد؛ فإنَّ قومه خشوا من الفضيحة وسعوا عند النبيِّ ﷺ لتبرئته؛ لينجو هو وينجو قومه وينجو المسلمون من تبعات الفضيحة حين ينتشر في الناس أن **طعمة الأنصاري** المسلم سارق!

وكأني بالذين سَعَوْا لتبرئته عند النبيِّ ﷺ متخذين من ظاهر وجود الدرع عند اليهودي دليلًا يتشبثون به.. يعتقدون أنَّهم يحسنون إلى أنفسهم وإلى الصف الإسلامي وإلى الإسلام نفسه بذلك، وما تيقظوا أنهم يجعلون التستر على الخطأ قانونًا يُلتزم وهذا من أسوأ الخطأ.

---

(١) سيأتي مقترحٌ بعددٍ من الكتب التربوية في مطلب الأعمال العقلية من المبحث الثاني إن شاء الله.

ومن هنا جاء القرآن يربي الصحابة رضي الله عنهم تحت الشمس، ويغرس فيهم أعمدة الخشية من الله تعالى في آياتٍ بليغةٍ لها سطوةٌ هائلة على النفوس.

أَصْغِ إلى ربك وهو يقول: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨]!

أيُّ عظمةٍ إيمانيَّةٍ وقوةٍ تربويَّةٍ تبثها هذه الآية حتى لكأنَّها قانونٌ يُنظِّمُ جميعَ أحوال العباد في سرائرهم وخَفِيِّ أعمالهم!

إنها تقول: إنَّ **طعمة** ومن يقف خلفه ممن يجادل عنه ويريد من النبيِّ ﷺ أن ينقذ الموقف لئلا تكون فضيحة يريدون إنقاذ أنفسهم من فضيحة الدنيا، فأين هم من جلال ربهم الذي يعلم السر وما تخفي الصدور!

إنَّ المجتمع المسلم يريد أن تبقى صفحته بيضاء أمام خصومه فأين أفراده من مراقبة العلي الكبير سبحانه الذي هو أجدر بهذه الخشية وهذه المراقبة!

ومن ثمرات هذا الأصل: أنه يقرر بكلِّ وضوح أنَّ الناس سواسية أمام القيم التربوية، فتربية الكبار كتربية الصغار، فكل من تعرَّض للشمس فإنه واقعٌ في نطاق التربية.

والقرآن الكريم زاخرٌ بشواهد تربية الله لنبيه ﷺ؛ كما في سورة عبس وموضوع أسرى بدر، وكذا تربيته للأنبياء من قبله؛ كما في قصة **آدم** عليه السلام **ويونس** عليه السلام، وكذا تربيته للصحابة رضي الله عنهم؛ كما في قصة **طُعمة** وخلاف الصحابة رضي الله عنهم في الأنفال يوم بدر، وما حصل منهم يوم أحد، وحادث الإفك، والثلاثة الذي تخلفوا يوم تبوك وغير ذلك.

الأصل الرابع:

«للتربية تكاليف، لا سيما فيما تعارض مع الطبائع، لكنَّ الله عظيمٌ مُستحِقٌّ للعبادةِ فإنَّه ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

إنَّ التربيةَ لها تكاليفُ في نفسها من مثل الصبر على التلقي والقراءة والاستماع والسؤال وما ينتج عن ذلك من حاجةٍ للوقت والمال وغير ذلك، نظير تكاليف الطعام والشراب وما يحفظ الجسد ويقيه من الأدواء.

ثم إنَّ لها تكاليف فيما تُمليه من قواعد هادية، لا سيما فيما تعارض مع الطبائع؛ كما لو كان الإنسان حادَّ المزاج والمعاملة فإنَّ قواعد التربية تملي عليه أن يتجلَّد ويكابد ويجاهد ليصبح حليمًا حكيمًا رفيقًا، وكما أنَّه مُكلَّفٌ بالامتثال للشرائع فإنَّه مكلَّفٌ بمغالبةِ الطَّبائع.

ومن حسب أنَّه يبلغ من غير دفع التكاليف فلن يراوح مكانه، وربَّما تقهقر، ولهذا تجلَّد وادفع الثمن، واصبر على ذلك بل اصطبر كما هو نص الآية الواردة في متن الأصل.

والاصطبار: نهايةُ الصبرِ وغايتُه[1]، والطاء أصلها تاء الافتعال التي تفيد التكلف في الفعل كأنَّ الإنسان في ساحة نزال وميدان قتال.

ولهذا عقَّب **ابن عطية** على الآية بقوله: وهذا أمرٌ بحمل تكاليف الشرع، وإشعار ما بصعوبتها، فهي شريعةٌ تحتاج إلى اصطبارٍ أعاننا الله عليها بمَنِّه[2].

ولا تحسبنَّ من بلغ أنه على شهواتٍ ضعيفة؛ ولكنه تكلَّف الصبر وعانى شدته في ذات الله كما قال **أبو يزيد**: **«ما زلت أسوق نفسي إلى الله وهي تبكي، حتى سقتها وهي تضحك»**.

ولا يزال الرجل على هذا الصبر حتى يبلغ الإمامة في الدين إذا جمع مع الصبر اليقينَ بما تبين له من الحق والتصديق بما جاء في الوحي كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

المسار الثالث: الأصول الكلية لسياسة النفس

وفيه أصلان:

الأصل الأول:

«فصل العقل عن النَّفسِ لئلا تستبدَّ به؛ إذ النفسُ وعاءٌ للميول والشهوات، والنفوس وإن تفاوتت في نوع ما تشتهي ومقداره وحدوده إلا أنَّها تشترك في النهم وطلب المزيد

(١) تفسير الثعالبي (٣/ ١٥).
(٢) تفسير ابن عطية (٤/ ٢٤-٢٥).

والرغبة في عدم التوقف عند حد، ولهذا خُلِقت العقول لتكون رقيبًا خاصًّا وأنزلت الشرائع لتكون رقيبًا عامًّا، فتُضبَطُ النُّفوسُ بذلك بما يصلحها ويدرأ المفاسد عنها».

بيان هذا الأصل: أنَّ النفس خُلقت لتشتهي وتهوى وترغب، وتحب وتكره وتفرح وتحزن وترضى وتغضب، والعقل لم يُخلق ليشتهي؛ ولكن ليَدُلَّ ويهدي ويتفكر ويُرِي صاحبه الطريق، ويكشف للنفس الصحيح والخطأ ويميز لها بين الخير والشر، والنافع والضار، وذلك بحسب ما في الصدر من علمٍ ومعرفةٍ وخبرةٍ وتجربةٍ في هذه الحياة.

وإذا اهتمت النفس بشيءٍ.. طوَّعتِ العقلَ ليُسيِّرَه إليها، وأقام الأدلة على صوابه، وإذا لم تهتمَّ بشيءٍ.. صرفت العقلَ عن الاهتمام به وأدائه على الوجه الذي ينبغي ولو كان في نفسه من أولى الأولويات.

ولهذا قد تجد العالمَ الموسوعيَّ متبحرًا في كثيرٍ من العلوم ثم إنه إذا وقف بين يدي الله.. نقر الصلاة أو لم يكن ضابطًا لأحكام التجويد، وقد تجد صاحب القراءات العشر الذي تبحَّر فيها ووعى الخلافات الدقيقة بين القراء باختلاف رواياتهم ثم إذا فتح المصحف يُقرئ.. فإذا به لا يُحسِنُ فهمَ الآيات؛ إذ لم يجعل من اهتمامه الدراية بمعاني كلام ربه فلم يقرأ أي تفسيرٍ ولو كان بالغ الاختصار والإيجاز.

فهذا من اهتمامات النفوس لا من توجيهات الوحي وإرشادات العقل، ومن ثم كان الأصلُ التربويُّ تحقيقَ الفصل بين النفس والعقل؛ ليكون العقل رقيبًا خاصًّا يسوس النفس بما يصلحها ويدرأ المفاسد عنها، ويكون الشرع رقيبًا عامًّا؛ إذ قد يبيح الشرع شيئًا ويمنعه العقل؛ كما لو منع العقل النفس عن تناول طعامٍ هو في الشريعة مباحٌ لكنه يتعب النفس ويضر بها، فالشرع قانونه عامٌّ لجميع النفوس، والعقل خاصٌّ.

والذي فتح لي آفاق هذا الأصل فضيلةُ الشيخ **عبد العزيز الطريفي** فرَّج الله كربه في كتابه النافع الماتع: «**الفصل بين النفس والعقل**»، ولب ما تسطَّر هنا مأخوذٌ منه، ولعله أحسن ما كُتِب في بابه، وهو من عيون الكتب التي أُلِّفت في هذا العصر، ويخسر طالب العلم والمتعبد بالغفلة عنه، ولا تغتر بما ذكرته لك؛ فليس هو إلا فكرة جزء من الكتاب.

والمقصودُ: أن يكون القرارُ التربويُّ الإيمانيُّ في سلامةٍ من المؤثرات النفسيَّةِ وكذا العقلية، تحصيلًا للهدى، ونجاةً من اتباع الهوى، وإذا كان أهم علاجٍ للشهوات هو الصبر فإنَّ أهمَّ علاجٍ للشبهات هو العلم.

الأصل الثاني:

«لا تنساق النفس لصاحبها إلا بالمجاهدة، وقوانين المجاهدة ثلاثة: مخالفة الهوى، والتحكم في الشهوات المباحة، والدوام على محبوبات الله».

هذا الأصل مرتَّبٌ على الذي قبله؛ فإنَّ النفسَ ذاتُ شراسةٍ ونهمٍ وطلبٍ للمزيد، ولا تقف رغباتها عند حد، ثم هي في عمىً تامٍّ عن اعتبار الحال أو الزمان أو المكان، فَهَمُّهَا قضاءُ وطرِها لا غير، فقد تستبد بصاحبها وتطلب شيئًا وهو في المسجد، ثم تزهد في الشهوة وهو في السوق.

ومن ثم لزم قيادتها بزمامِ المجاهدة وفق قوانين واضحة؛ لئلا تخرج عن المقادير الشرعية التي مُنِحت لها من الشهوات والمباحات، وقد قال **أبو ذؤيب**:

والنفس راغبةٌ إذا رغَّبتها ... وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تقنعُ

وقال **البوصيري**:

والنَّفْسُ كالطفلِ إنْ تُهمِلْهُ شَبَّ ... على حبِّ الرضاع وإن تَفْطِمْهُ يَنفَطِمِ

وقوانين المجاهدة ثلاثة:

أولًا: مخالفة الهوى: أي المذموم.

والهوى المذموم: ميلانُ النَّفسِ إلى ما تهوى من سيءِ الاعتقادات، أو تستلذه من المحرمات، أو تتفلت منه من تكاليف الكمالات.

فإنَّ النَّفسَ لها حظوظُها من القناعات والاعتقادات، ولهذا كثرت الفرق البدعية والمذاهب الفكرية الباطلة، كما أنَّ لها حظوظَها من الشهوات والملذات، ولهذا يقع من يقع في الفواحش، ثم إنَّها تُؤْثِرُ الراحة والقعود عن الكمالات؛ كطلب العلم وقيام الليل وأوراد

التعبد وصلة الرحم، ولهذا ترى السالكين كثرة والواصلين قلة.

ومن ثم لزمت مخالفةُ الهوى؛ لئلا يهلك الإنسان في الآخرة، أو يفوته حظه من الدرجات العلا في الجنة؛ إذ المستقر الخالد هناك.

وينبغي أن يُعلمَ أنَّ الخلاصَ من سلطان الهوى ثقيل؛ لشدة التصاقه بالنفس التي لا تحب من يقطع عليها الطريق، ومن ثم كان واقعًا داخل نطاق سُنَّة الابتلاء؛ كما جاءت الإشارةُ لهذا فيما روى **مسلمٌ** من حديث **أنس بن مالكٍ** ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»[١].

لكن إجلال الله يستحق من العبد أن يبذل وسعه في طاعته، فضلًا عما رُصِدَ له من المكارم في الدنيا والآخرة، فهذا نبيُّ الله **يوسف** عليه السلام خالف الهوى وتعفف عن مقارفة الفاحشة فبلغ الملك، وصار قدوةً للسالكين إلى يوم الدين، بينما لم يصبر أبونا **آدم** عليه السلام عن الأكل من الشجرة فأُهبِطَ من الجنَّةِ إلى الأرض وكان من أمره ما كان، ولولا التوبة لبقي خاتم العصيان ملتصقًا به كما قال سبحانه: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]، ولكن هذه طبيعة النفس تُقبِلُ وتُدبِرُ وتعلو تارةً وتهبط أخرى.

وأنبه أخيرًا إلى أنَّ اتباع الهوى من أمراض العامة والخاصة، ومن شدة خطره حذَّر الله نبيه **داود** عليه السلام منه فقال: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

بل تسلسل ببعض الأقوام حتى كفروا بالله وقتلوا أنبياءه كما قال سبحانه عن بني إسرائيل: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

ثانيًا: التحكم في الشهوات المباحة:

لا ينبغي أن يتجاوز الإنسان قدر حاجته من الطعام والشراب والكلام والنوم وخلطة

(١) صحيح مسلم، رقم الحديث: (٧٣٠٨).

الناس وما إلى ذلك، فلو كان الإنسان يأكل ويشرب ويتكلم وينام ويخالط الناس متى يشاء، وبالقدر الذي يشاء، مسرفًا في ذلك من غير حدٍّ يُهذِّبُه.. فكيف سيكون ذا عزمٍ في تحصيل الفضائل من مثل حفظ القرآن وتحصيل الأخلاق الحسنة وتوقي الصفات الرديئة وطلب العلم والالتزام بأوراد العبادة والجهاد والدعوة إلى الله وتأليف الرجال والكتب وأضراب ذلك!

أما حين يتحكم بالشَّهواتِ المباحة؛ بحيث يأكل بالقدر الذي لا يشبع معه، وينام بالقدر الذي لا يفوته حظُّه من الليل معه، ويتكلم بما لا يوقعه في محرَّم أو اختلالِ أدبٍ أو خدش مروءة وبما لا يجعله ثرثارًا، ويخالط الناس بتوازنٍ بين واجبات عزلته وخلطته.. فإنَّ نفسَهُ تدرك أنَّها أمام شخصٍ يفقه فقه سياسة النفس ومخالفتها والتحكم في شهواتها ورغباتها، ومن ثم تنقاد له فتصبح له عونًا على تحصيل الفضائل ومجانبة الرذائل.

خذ مثالًا حيًّا بفتح مواقع التواصل الاجتماعي؛ فإنَّه من جملة مخالطة الناس، فلو كان الشخص كلما خطر بباله فتحُهَا أمسك جواله وأخذ يتصفح، وفي ثوانٍ أخذ يتنقَّل بعقله وقلبه في جنبات العالم الافتراضي، وكان هذا حالَه دومًا.. فما أحسبه ينجز مشروعًا ذا بال، أو يخشع في صلاة، أو تكون له خطةٌ شخصيةٌ يلتزمها ويرقى من خلالها.

أما حين يُلزِمُ نفسَهُ إزاء ذلك بسياسةٍ لا تضيع أوقاته وأعماله بها؛ كأن يجعل لمتابعة هذه المواقع ساعةً معلومةً من اليوم لا يجاوزها إلا من حاجةٍ تشتد.. فإنَّ نفسه تضيق أولًا ثم تنقاد له، فيبقى محتفظًا بحيويته وصفاء ذهنه، ولهذا أستحب للشخص أن يجعل هاتف الاتصال غير هاتف مواقع التواصل.

وثمة درجةٌ أعلى من التحكم في الشهوات المباحة؛ وهي **التحكم بخواطر النفس**، ومن الصعب منعها في أصلها، ولكن التربية تمنع من الاسترسال فيها.

وتكمن أهمية التربية على ذلك: أنَّ خواطر النفس هي مبدأ كل خيرٍ أو شر، فلو كان الخاطر من الشر واسترسل فيه.. فقد بات الجسرَ الذي يصل به إلى المعصية، وكلما

توغَّل شق عليه العود، وربما لم يتماسك إن صار في منطقة الضعف فاحتاج حينئذٍ إلى مزيد مغالبةٍ ومجاهدةٍ ومكابدةٍ، فكان قطع الطريق بقطع الخاطر من أول الأمر أيسر مما بعده.

وهذا المنطق هو الذي استعمله **ابن القيم** في علاج الشهوة إذ قال: «**الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجبه الشهوة**»[1].

ثم إنَّ الدخول في المنطقة التي تضعف سيطرة العبد فيها على نفسه تجعله معذبًا نفسيًّا، وربما انحدر مستوى التزامه يومًا بعد آخر، فكان الأخف عليه والأيسر أن يقطع مادة الخواطر والاسترسال فيها ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.

ثالثًا: الدوام على محبوبات الله:

وهذا بعكس القانون الذي قبله؛ فإذا كان الإنسان يتحكم في الشهوات المباحة، ويقطع ما زاد عن حاجته منها وما لا نفع فيه.. فإنه هنا يداوم على محبوبات الله.

وهذا لا يخلو من مشقة حتى تلين النفس له، ومن ثم يُنَظَّرُ لامتثالِ هذا القانونِ بقوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ [مريم: ٦٥]؛ فإنَّ من خلق السماوات والأرض وإليه يرجع أمرهما وأمر من فيهما من الخلق يستحق أن يُعبد وأن يصطبر في عبادته.

وعلى هذا؛ فإنَّ من فقه المتعبد أن يكون في حياته وردٌ يوميٌّ ثابتٌ من محبوبات الله مما لم يُفترض عليه يكون الاقتراب منه أو المساس به خطًّا أحمر، ولو قل؛ فإنَّ القليلَ الذي لا ينقطع أحبُّ إلى الله من الكثير الذي ينقطع، والطَّلُّ المستمرُّ خيرٌ من الوابلِ المتقطع.

ودليل ذلك: ما روى **البخاري ومسلم** بسندهما عن **القاسم بن محمد** عن **عَائِشَةَ** رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى الله تَعَالَى أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ**»، قَالَ: وَكَانَتْ

---

(١) الفوائد لابن القيم ص (١٣٩).

عَائِشَةُ إِذَا عَمِلَتْ الْعَمَلَ لَزِمَتْهُ[١].

وما أحسنَ نصحَ الشريف الزاهد **علي بن أحمد الزيدي** لو أصغيت إليه وهو يعظك بذلك فيقول:

«اجعل النوافل كالفرائض، والمعاصي كالكفر، والشهوات كالسم، ومخالطة الناس كالنار، والغذاء كالدواء»[٢].

بقي التنبيه على أنَّ الهوى قد يدخل في العبادة؛ بأن يختار الإنسان من العبادات ما يهوى ويترك ما أوجبه الله عليه؛ كالذي يُؤثر أوراد التعبد أو العلم على الجهاد في زمن تسلط الأعداء، فلا بد من الخضوع لأمر الله.

ومن أمر الله أن يؤخذ الإسلام كلًّا متكاملًا من علمٍ ودعوةٍ وجهادٍ وتعبدٍ وإغاثةٍ للملهوف وغير ذلك بما يقع في نطاق قدرته واستطاعته؛ كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]؛ أي ادخلوا في الإسلام بشرائعه كافةً ولا تَدَعُوا منها شيئًا[٣].

وقد جاءت هذه الآية بعد الفراغ من أحكام الحج ومن قبله أحكام الصيام والأمر بالصلاة والزكاة فضلًا عن تناول أحكام القتال والقصاص وغير ذلك، فكأنَّ السورة لما فرغت من تناول الأركان أمرت بالاعتصام بجميع الأحكام.

وسيأتي تقريرٌ للمسألة من كلام **ابن القيم** يرشح فقهًا وفصاحةً في خاتمة الكتاب بإذنه تعالى.

إذن هذه هي قوانين المجاهدة الثلاثة، وكلها تجتمع في التهجد من الليل؛ فإنَّه من محبوبات الله، وفيه مخالفةٌ للهوى؛ إذ النفس تهوى النوم، وإذا نام الإنسان قدرًا واستيقظ قدرًا فقد تحكم في شهوة النوم التي هي من أشد العوائد تسلطًا.

---

(١) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٨٦٦) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٦٤٦٥) واللفظ لمسلم.
(٢) تذكرة الحفاظ للذهبي (٤/ ١٠٤).
(٣) تفسير الطبري (٤/ ٢٥٣)، تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٣٧٠).

المسار الرابع: الأصول الكلية للتعبد والعمل

وفيه خمسة أصول:

الأصل الأول:

«اعملوا؛ فإنَّ العملَ حصنُ الدنيا ومعراجُ الدَّرجاتِ في الآخرة، وخذوا من العمل ما تطيقون، وخيرُ العملِ أدومُهُ وإن قل».

هذا الأصل يبين **مركزية العمل** في التصور الإسلامي، وهناك عشرات الأحاديث يسأل فيها الصحابة رضي الله عنهم النبيَّ ﷺ عن أحب الأعمال إلى الله؛ وذلك لما استقرَّ عندهم من مركزية العمل نفسه.

والعملُ هو الحصنُ العتيدُ الآمنُ الذي يعتصم به الإنسان من مخاطر الفتن ونار الشهوات، وكما يحفظ به العبد آخرته فإنه يحفظ به دنياه ونفسيَّته، ومن قصَّر في العمل ابتلاه الله بالهموم.

والعمل هو الذي يتفاوت الناس به في درجات الجنة، أما دخول أصل الجنة فلا يكون إلا برحمةِ الله وفضله؛ روى **البخاري ومسلمٌ** عَنْ **أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ**».

قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ الله؟

قَالَ: «**وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي الله بِرَحْمَةٍ، سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاغْدُوا وَرُوحُوا وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ، وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا**»(١).

وفي روايةٍ عند **مسلم** عن **عَائِشَةَ** رضي الله عنها أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: «**سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا؛ فَإِنَّهُ لَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ أَحَدًا عَمَلُهُ**».

قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ الله؟

---

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٦٤٦٣)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٧٢٨٩) واللفظ للبخاري.

قَالَ: «وَلاَ أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ، وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَبَّ الْعَمَلِ إِلَى اللهِ أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ»[١].

وعند **البخاري** عَنْ **عَائِشَةَ** رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ: أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ قَالَ: «أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ»، وَقَالَ: «اكْلَفُوا مِنْ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ»[٢].

إنَّ هذه الأحاديث تستحثك أن ترقى إلى الله درجةً درجة ولا تكثر، لكن الدرجة التي تصعدها لا تنحطَّ عنها؛ فالمشي البطيء يُبلِّغ صاحبه متى انتظم ولو كان زحفًا؛ وذلك أنَّ الشيء القليل متى لزمه الإنسان صار أكثر من الكثير الذي ينقطع عنه، فلا تنظر إلى كمية كل يوم؛ ولكن إلى حصيلة كل سنة، وهل السيل إلا اجتماع النقط!

والسلحفاةُ الدؤوب تَسبِقُ الأرنبَ اللعوب.

ومن لطف الله الخفي أنه لا يجعلك تأخذ العلم جملة؛ ولكن مسألة بعد مسألة فيسهل حمله والعمل به، ولهذا يتكرر أن تسمع من يقول: هذه المسألة أسمع بها لأول مرة، وبذلك لا يجتمع الكثير لديك فيشق عليك.

الأصل الثاني:

«مدارُ العملِ على القلب، ولهذا فأعمال القلوب أصل، وهي من الإيمان، والناس متفاضلون فيها، وهي أَفْرَضُ من عملِ الجوارح لكن لا تتم إلا بها، وأعمال القلوب المجردة أفضل من أعمال الجوارح المجردة».

دليل هذا الأصل:

ما روى **مسلمٌ** في صحيحه عن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»[٣].

---

(١) صحيح مسلم، رقم الحديث: (٧٣٠٠).
(٢) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٦٤٦٥)، وبنحوه عند مسلم برقم: (١٨٦٣) مع اختلاف السياق.
(٣) صحيح مسلم، رقم الحديث: (٦٧٠٨).

وما روى الشيخان عن **النعمان بن بشير** ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «.. **أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»[١].

ومادة هذا الأصل تتناول أعمالَ القلوبِ من مثل محبةِ الله ورسوله ﷺ والتوكل على الله وإخلاص الدين له والشكر له والصبر على حكمه والخوف منه والرجاء له والإنابة إليه وتعظيمه والحياء منه وأضراب ذلك.

وهذه الأعمال القلبية واجبةٌ على جميع الخلق، وهي من فروض الأعيان باتفاق أهل الإيمان؛ إذ هي من الإيمان، بل دخولها في الإيمان أولى من دخول أعمال الجوارح باتفاق الطوائف كلها، ومن تركها بالكلية فهو إما كافرٌ وإما منافق، وليس المعرض عنها علمًا وعملًا بأقل لومًا من التارك لما أُمِرَ به من الأعمال الظاهرة[٢].

وحال الناس في أعمال القلوب كحالهم في أعمال الجوارح ينقسمون إلى ثلاث درجات: منهم الظالم لنفسه ومنهم المقتصد ومنهم السابق بالخيرات.

فمثلًا: أصلُ حبِّ الله ورسوله ﷺ فرضٌ واجب، فإذا زاد إيمان الشخص بحيث كان الله ورسوله ﷺ أحبَّ إليه مما سواهما.. فقد زاد في المرتبة والفضل، وكذلك إذا كان الجهاد في سبيل الله أحبَّ إليه من أهله وماله، وكانت خشيته من الله وحده لا من المخلوقين، وكان رجاؤه لله وحده لا من المخلوقين، وكان توكله على الله وحده لا على المخلوقين، إلى غير ذلك من الأعمال والمقامات، ولهذا فالناس متفاضلون في أعمال القلوب تفاضلًا عظيمًا[٣].

وبما تقرر يُعلَمُ أنَّ أعمالَ القلوبِ أصلٌ وأعمالَ الجوارحِ فرع؛ وذلك لأنَّ الأمور الباطنة مبتدأ الأمور الظاهرة وأصولها، والأمور الظاهرة كمالها وفروعها التي لا تتم إلا بها[٤].

---

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٥٢)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٤١٧٨).
(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٨/ ١٨٥)، الإيمان الأوسط لابن تيمية ص (١٢٣).
(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ١٩٠،٢٣٥) بتصرفٍ يسيرٍ جدًّا.
(٤) أمراض القلوب لابن تيمية ص (٣٦)، الفتاوى الكبرى لابن تيمية (١/ ١١١) بتصرف.

ولكن لا تتم أعمالُ القلوبِ إلا بأعمالِ الجوارحِ، كما أنَّ الروح لا قوام لها إلا بالبدن، وحيث تجردت كانت أعمالُ القلوبِ المجردة أفضلَ من أعمال الجوارح المجردة، كما قيل: قوة المؤمن في قلبه وضعفه في جسمه وقوة المنافق في جسمه وضعفه في قلبه(١).

فتحصَّل من ذلك قوة الارتباط بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح مع زيادة أعمال القلوب بالفَرض والمكانة والفضل.

وتناول **ابن القيم** ﷺ هذا الأصل فقال: لله على العبد عبوديتان: عبوديةٌ باطنةٌ وعبوديَّةٌ ظاهرة، وقيامه بالعبوديةِ الظاهرةِ مع تعرِّيه عن حقيقة العبودية الباطنة مما لا يُقرِّبُه إلى ربه، ولا يُوجِبُ له الثوابَ وقبول العمل؛ فإنَّ المقصودَ امتحانُ القلوب وابتلاءُ السرائر، فعمل القلب هو روح العبودية، ولهذا متى خلا عمل الجوارح منه كان كالجسد الموات بلا روح.

والمقصود بالأعمالِ كلِّها ظاهرها وباطنها إنما هو صلاح القلب وكماله وقيامه بالعبودية بين يدي ربه ﷻ.

ومن تأمل الشريعة علم ارتباط أعمال الجوارح بأعمال القلوب، وأنها لا تنفع بدونها، وأنَّ أعمال القلوب أفرضُ على العبد من أعمال الجوارح، وهل يتميز المؤمن عن المنافق إلا بما في قلب كلٍّ منهما من الأعمال، وهل يمكن لأحدٍ الدخول في الإسلام إلا بعمل قلبه قبل جوارحه!(٢).

بقي التنبيه على أمور عدَّتها أربعة:

أولًا: إنَّ منتهى الأفكار والقناعات إلى القلب؛ وذلك أنَّ منافذَ الإدراكِ هما السمعُ والبصر، وما يتلقاه الإنسان منهما يستقبله العقل ليتدبر، ومن ثم يُرسل للقلب ليعقل ويتأثر، وما يستقر في القلب يفيض على اللسان قولًا وعلى الجوارح عملًا.

ثانيًا: إن أعمال القلوب هي التي تثمر حلاوة العمل ولذة التعبد وحيوية الانتساب إلى هذا الدين، وأغلب الأدواء النفسية التي يعاني منها أهل العصر يبدأ حلُّها بأعمال القلوب.

(١) مجموع الفتاوى (٢٦-٢٥)، مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية (١/ ٣).
(٢) بدائع الفوائد (٣/ ٧١٠).

ثالثًا: لأعمال القلوب فقهٌ كأعمال الجوارح، وكثيرًا ما يُبتلى السالكون لعدم فقههم لأحوال قلوبهم، وقد تقدَّم أن «**التربية لا تقوم إلا على ساق العلم**».

رابعًا: إنَّ أعمال القلوب يقابلها أدواء القلوب من مثل الحسد والكبر والعجب والرياء وغير ذلك، وعملية التزكية تنميةٌ لأعمال الخير، وتطهيرٌ من أعمال الشر، فعناية السالك لا بد أن تراعي هذا وذاك، وقد سبق مقصدُ التزكيةِ مقصدَ تعليمِ الكتاب والحكمة في مقاصد بعث الله في الأميين رسولًا منهم كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

ويعين على ذلك: القراءة في كتب التربية وتزكية الأنفس التي اعتنت بذلك؛ من مثل ربع المهلكات من كتاب «**إحياء علوم الدين**» **للغزالي**، وكتاب «**المستخلص في تزكية الأنفس**» للشيخ **سعيد حوى**، وكتاب «**القلوب وآفاتها**» **لصلاح الدين عبد الموجود**.

ولا تحسب أنَّ الخَطْبَ في أدواءِ القلوب خَطبٌ سهل؛ فالحسد مثلًا هو الداء الذي صار إبليس بسببه عدوَّ الله الأكبر بعد أن حسد **آدم** عليه السلام على ما آتاه الله من فضله وأبى السجود له.

وهو الداء الذي رفضت قريش أن تؤمن بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم بسببه؛ إذ إنه من بني **هاشم** والقيادة القبلية متركزةٌ في بني **مخزوم**، وهم يرون أن بني **هاشم** يسبقونهم الآن في سباق الشرف بخروج نبي منهم وأنى لهم ذلك!

وهو الداء الذي رفض **ابن سلول** الإيمان بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم بسببه أيضًا؛ إذ إنَّ قيادة المدينة كانت متوجهةً له، فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم المدينة تحولت عنه، ولم يكن بإمكانه أن يجهر بالعداوة فلجأ للنفاق ليكون رأسَهُ وإمامَهُ.

وهو الداء الذي أبى اليهود في المدينة بسببه أيضًا أن يؤمنوا بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم؛ إذ الزعامة الدينية كانت فيهم، وإيمانهم به يسحب البساط من تحت أقدامهم في نظرهم، بل ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

فإذا كان هذا فعل الحسد في المجتمعات فكيف فعله على صعيد الفرد نفسه!

لكن الله تعالى لم يَبْتَلِ بوجود الداء إلا وأنزل معه الدواء، والتربية الإيمانية تتولى تهذيب المؤمن وتخليصه من جميع أدواء القلوب والجوارح وما هو أوسع من ذلك.

وجزى الله علماءَ الإسلامِ ودعاتَهُ خيرًا إذ تأملوا نصوص الوحي كتابًا وسنة ورتَّبوا الكتب التي تتولى علاج ذلك وحبَّرُوهَا مع التأصيل والتمثيل وحسن البيان، وما على المسلم إلا حسن العناية وتوافر الرعاية، والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم.

الأصل الثالث:

«لذةُ العبادةِ وجنيُ ثمارها إنما هو في حُسنِها لا في مجرد الإكثار منها».

في خضم الحديث عن استقبال المواسم الفاضلة كرمضان وعشر ذي الحجة يكثر من يسأل عن الخطط الإيمانية والبرامج التعبدية، وتلحظ ما بين كلمات السؤال بحث السائل عن أعمالٍ مغفولٍ عنها يظن أنَّ المسؤول تيقَّظ لها دونه.

وهذا وإن كان واردًا إلا أنَّ كلمةَ السِّرِّ ليست في ذلك؛ وإنما في تحسين العبادة وتجويدها غاية الوسع؛ فهنا يبنى الإيمان وتتشكل القِيَم التربوية؛ إذ إنها لا تُبنى ولا تنمو إلا في هدوءٍ بعيدًا عن الضجيج.

ولما كان القرآن هو نبعَ مفاهيم التربية والإيمان نبَّه الله عباده إلى طريقة التعامل معه فقال سبحانه: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦] أي على ترتيل. قاله مجاهد وابن جريج[١].

وتطرَّق **ابن القيم** لهديه ﷺ في التلاوة فقال: «كانت قراءة النبي ﷺ للقرآن ترتيلًا له لا هذًّا ولا عجلة، بل قراءةً مفسَّرةً حَرفًا حرفًا، وكان يقطع قراءته آيَةً آية، وكان يمدُّ عند حُروفِ المَدِّ، وكان له وردٌ في ذلك لا يُخِلُّ به»[٢].

(١) تفسير الطبري (١٧/ ٥٧٥-٥٧٦).
(٢) زاد المعاد (١/ ٤٨٢).

ومن هنا جاء كلام الفقهاء بأن الإسراع في التلاوة مكروه، وأن الترتيل مسنون، وهو أعظم أجرًا، وقالوا: إنَّ حرف الترتيل أفضل من حَرفَي غيره[١]، مما يعني أن تلاوة جزء مع الترتيل خيرٌ من قراءة جزءين من غير ترتيل.

وقال **ابن القيم**: ثواب قراءة الترتيل والتدبر أرفع قدرًا، وثواب كثرة القراءة أكثر عددًا، فالأول كمن تصدق بجوهرةٍ عظيمة، والثاني كمن تصدق بعددٍ كثيرٍ من الدراهم[٢].

فالأول أسمى في القدر حتى لو تساويا في الأجر.

هذا في التلاوة، أما في الصلاة؛ فقد روى **مسلمٌ** عَنِ **الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ** رضي الله عنه قَالَ: «**رَمَقْتُ الصَّلَاةَ مَعَ مُحَمَّدٍ ﷺ فَوَجَدْتُ قِيَامَهُ فَرَكْعَتَهُ فَاعْتِدَالَهُ بَعْدَ رُكُوعِهِ فَسَجْدَتَهُ فَجَلْسَتَهُ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ فَسَجْدَتَهُ فَجَلْسَتَهُ مَا بَيْنَ التَّسْلِيمِ وَالِانْصِرَافِ قَرِيبًا مِنَ السَّوَاءِ**»[٣].

وعند **البخاري** عَنْ **أَنَسٍ** رضي الله عنه قَالَ: إِنِّي لَا آلُو أَنْ أُصَلِّيَ بِكُمْ كَمَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُصَلِّي بِنَا قَالَ **ثَابِتٌ**: كَانَ أَنَسٌ يَصْنَعُ شَيْئًا لَمْ أَرَكُمْ تَصْنَعُونَهُ؛ كَانَ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنْ الرُّكُوعِ قَامَ حَتَّى يَقُولَ الْقَائِلُ: قَدْ نَسِيَ، وَبَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ حَتَّى يَقُولَ الْقَائِلُ: قَدْ نَسِيَ»[٤].

وليس المقصود من ذكر هذه الأحاديث تتبع هديه ﷺ في الصلاة وتلاوة القرآن؛ بل النظر لهديه ﷺ في تحسين العبادة وعنايته بها، فهذا السَّمت هو الذي يصب الإيمان في القلب صبًّا، وهو الذي يتفاوت الناس فيه.

ولأهمية حسن العبادة لقَّن النبيُّ ﷺ **معاذ بن جبل** رضي الله عنه دعاءً يلتزمه في كل صلاة؛ فقد روى **أبو داود والنسائي** عَنْ **مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ** رضي الله عنه قَالَ: أَخَذَ بِيَدِي رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: «**إِنِّي لَأُحِبُّكَ يَا مُعَاذُ**»، فَقُلْتُ: وَأَنَا أُحِبُّكَ يَا رَسُولَ الله، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**فَلَا تَدَعْ أَنْ تَقُولَ فِي كُلِّ صَلَاةٍ: رَبِّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»[٥] صححه الألباني.

---

(١) نهاية المحتاج للرملي (١/ ٥٤٧)، إعانة الطالبين للدمياطي (١/ ١٨٣).
(٢) زاد المعاد (١/ ٣٣٩).
(٣) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٠٨٥) وعند البخاري بلفظ يستثني القيام والقعود كما في الحديث رقم: (٧٩٢).
(٤) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٨٢١).
(٥) سنن أبي داود، رقم الحديث: (١٥٢٤)، سنن النسائي، رقم الحديث: (١٣٠٢).

ولا يمنع حسنُ العبادةِ من الإكثار منها، ولكن القصد ألا تكون همة المتعبد هي الكثرة على حساب الجودة.

ولهذا يعجبني إذا جئت تصلي من الليل أن تجعل الصلاة زمنًا تلتزم به لا قدرًا من الآيات أو الصفحات تنتهي إليه، كما لو عزمت أن تصلي ساعةً أو نصف ساعة، فتشرع في الصلاة والعنايةُ متوجهةٌ لتدبر الآيات والتفكر في معاني أدعية الركوع والسجود، فلا يكون همك بذلك آخر الجزء أو الصفحة أو عدد الركعات.

فإذا كبَّرت وأخذت في القراءة ووجدت قلبك في القيام فلا تركع، أو وجدته في الركوع أو السجود فلا ترفع، وإن لم تصلِّ إلا ركعتين، ولم تقرأ إلا آيتين، فمن بورك له في شيءٍ فليلزمه.

وعلى هذا مضت نصائح الصالحين؛ إذ القصد هنا تربية القلب وتزكية النفس لا الاستكثار من أعداد الحسنات؛ وذلك أنَّ الاستقامة العامة التي تثمرها تربيةُ النَّفسِ أهم.

ومع ذلك؛ فإياك أن تحسب أن المُكثر من الحروف أعظم أجرًا كما تقدم آنفًا، ثم إنَّه كلما قوي إيمان الرجل وحَسُنَ إسلامُهُ وعملُهُ كان أعظمَ أجرًا وأرفعَ قدرًا.

ودليل ذلك: ما أخرج **البخاري ومسلم** من حديث **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلَامَهُ فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِمِثْلِهَا**»(١).

ومما يعين على تجويد العمل: أن يستحضرَ المتعبدُ عظمةَ من يعبد، وأن يعلم أنَّ صلاح قلبه إنما هو بحسن العمل لا بمجرد الإكثار منه، وأن يتخفف من المشتتات قبله.

وأنبه أخيرًا إلى أهمية عدم رسم صورة ثابتة لحسن العبادة والتمترس حولها؛ كمن يجعل البكاء في الصلاة دليلًا وحيدًا على الخشوع وإلا فإنَّه محروم؛ بل تمضي في عبادتك وتجتهد في تحسينها وتجويدها، ثم ما يمن الله به عليك من رقة القلب فهو خير، ولا تكاد تتحد الليالي على هيئةٍ أو حالة واحدة، وطلب الكمال معيقٌ عن الإكمال.

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٤٢)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٣٥٣).

الأصل الرابع:

«يُبنى الإيمان درجةً درجة، ويُفطمُ الإنسانُ عن الشَّرِّ بخطوةٍ واحدة».

هذا أصلٌ عظيمٌ من الأصول التربوية التي تبسط فقه التعبد.

ومفاده: أنَّ رعايةَ الطبقيَّةِ في الأعمال من الفقه، ومن ثم يَتَدَرَّجُ المسلمُ في بناءِ الإيمان درجةً بعد أخرى، والدرجة التي يقطعها يُثْبِتُها وتصبح من أوراده الدائمة التي لا تُترك إلا لعارضٍ من عذرٍ ونحوه.

وذلك كما لو اعتمدت صلاة ركعتين قبل النوم، أو عند دخول البيت أو الخروج منه كما هو السنة[١]، أو التصدق بشيءٍ ولو قل، أو قراءة عشر صفحات من كتب العلم والتربية كل يوم، أو سماع محاضرة في نفس الاتجاه وما إلى ذلك.

وهذا من السنة؛ فقد روى **مسلمٌ** في صحيحه عَنْ **عَائِشَةَ** رضي الله عنها قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا عَمِلَ عَمَلاً أَثْبَتَهُ[٢].

وفي الصحيحين عن **مسروقٍ** قال: سَأَلْتُ **عَائِشَةَ** رضي الله عنها: أَيُّ الْعَمَلِ كَانَ أَحَبَّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ؟ قَالَتْ: الدَّائِمُ»[٣].

وعند **مسلم** عن **عائشة** رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«وَإِنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى الله مَا دُووِمَ عَلَيْهِ وَإِنْ قَلَّ»**، وَكَانَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ إِذَا عَمِلُوا عَمَلاً أَثْبَتُوهُ»[٤].

أما من طلب الكمال جملةً فإنه ينقطع عنه جملة؛ إذ الإيمان يزيد وينقص، ومن بدأ بكثرةٍ فالغالب أنَّه يفعل ذلك حين طروء مؤثر زاده إيمانًا كعمرةٍ أو فقد قريبٍ أو نشوب حربٍ وقيام سوق الجهاد، فإذا ذهبت الأجواء التي كانت تُحلِّق بروحه ورجع إلى الفتور..

---

(١) وذلك لما روى البيهقي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«إِذَا خَرَجْتَ مِنْ مَنْزِلِكَ إِلَى الصَّلاةِ فَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ تَمْنَعَانِكَ مَخْرَجَ السَّوْءِ، وَإِذَا دَخَلْتَ مَنْزِلَكَ فَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ تَمْنَعَانِكَ مَدْخَلَ السَّوْءِ»** صححه الألباني. انظر شعب الإيمان حديث رقم: (٢٨١٤).

(٢) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٧٧٨).

(٣) صحيح البخاري، رقم الحديث: (١١٣٢)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٧٦٤) واللفظ للبخاري.

(٤) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٨٦٣).

لم يحتمل دوامَ ما بدأ فينقطع جملة، لكن لو سلك ما يطيق وإن قل سهل عليه دوامَه مع شيءٍ من المجاهدة.

والنفس إذا قويت احتملت أكثر الكثير، وإذا فترت قعدت عن أقل القليل.

ولك أن تعتمد منهجية الإمام **أحمد** التي ترشح فقهًا وإدراكًا لطبائع النفس إذ قال: **«يعجبني أن يكون للرجل ركعاتٌ من الليل والنهار معلومة، فإذا نشط طوَّلها، وإذا لم ينشط خففها»**.

وهذا ما جاء به إفتاء الفقهاء؛ فهذا **ابن قدامة المقدسي** رحمه الله يقول: ويستحب أن يكون للإنسان تطوعاتٌ يداوم عليها فإذا فاتت فإنه يقضيها، وساق كلمة الإمام **أحمد**[1].

وأشار شيخ الإسلام ابن تيمية إلى ذلك فقال: واستحب الأئمة أن يكون للرجل عددٌ من الركعات يقوم بها من الليل لا يتركها، فإن نشط أطالها وإن كسل خففها، وإذا نام عنها صلى بدلها من النهار كما كان النبي ﷺ إذا نام عن صلاة الليل صلى في النهار اثنتي عشرة ركعة، وقال: «مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَقَرَأَهُ فِيمَا بَيْنَ صَلاَةِ الْفَجْرِ وَصَلاَةِ الظُّهْرِ كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ»[2][3].

ويستثنى من ذلك المواسم الفاضلة التي تفوت كالعشر الأواخر من رمضان والعشر من ذي الحجة؛ فإنها من نفحات الله التي يستحب التعرض لها، ومن ثم يبالغ الإنسان فيها إلى آخر حد يستطيعه؛ لأنَّها محصورةٌ في أيام وتنتهي عن قريب، ولورود السنة في احتشاد القوة والعزم فيها، أما ما سوى ذلك فيدرج الإنسان فيه درجةً درجة.

وهذا في الخير، أما في الشر؛ كشرب الدخان وسماع الأغاني.. فإنَّ التدرج في تركه من الوهم الذي يريح الإنسان، وأكثر تجارب الناس تنتهي إلى فشل؛ للجهل بطبيعة النفس التي تستبد بصاحبها، وربما صيَّرت العقل محاميًا عنها بأنَّها تسعى في الترك وها هي قيد التدرج!

---

(١) المغني لابن قدامة (١/ ٨١١).
(٢) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٧٧٩).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٢٨٢-٢٨٣).

والحق أنَّ الشر يُقلع عنه جملةً واحدة، ولهذا جاءت الشريعة بوجوب التوبة من كلِّ ذنبٍ ولو كان المذنب قد أدمن ذنوبًا بعينها.

فالسياسة في ترك الشر تقوم على فطم النفس، وهذا يؤلمها حتى إنها لتبقى بضعة أيام أو أسابيع وهي تتوجع من فقد ما أَلِفَتْ، ثم تتأقلم مع الوضع الصحيح الجديد، شأن الطفل الذي تفطمه أمه عن الرضاع، فإنه يبقى أيامًا في بكاء وألمٍ يشتد، ثم يأنف مما كان يألف، ويمكن لمن فطم نفسه عن شيء أن يحتال عليها بما يلهيها كما تلهي الأم رضيعها بأشياء مدة الفطام.

ويستعين فوق ذلك بقوة العزيمة وإشغال وقته وغير ذلك بما يناسب الحال مع بقاء طلب العون من الله تعالى.

وقل مثل ذلك في العوائد؛ كما لو أراد ترك السكر في طعامه وشرابه، فإنه لو سلك طريق التدرج فلن يصل في الغالب، فإذا قطع مرةً واحدة وتحمل ألم مدة الفطام.. بلغ مقصوده.

وما يكون من الشر من قبيل الشهوة بحيث يمكن أن يرجع لمقارفته عن ضعف.. فإنه يتمثل بالنسر فإنه ينزل للجيفة في لحظات ثم يحلق من جديد[1]، وعليه أن يستغفر ربه ويتوب إليه من فوره ويرجو فضله، فإنه القائل سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ١٧].

والحاصل: أنَّ الإيمان يُبنى لبنةً لبنةً، وأما الشر فيُفطَم عنه جملة، وتمثل كليهما بالبيت؛ فإنك حين البناء تبنيه حجرًا حجرًا، وحين الهدم تهدمه جملة ولو بلغت طوابقه مائة طابق.

(١) فالنسر يتغذى بشكلٍ أساسي على الجيف ويتمتع بنظرٍ حادٍّ من ارتفاعاتٍ كبيرة، ولكنه في نزوله مفيدٌ للبيئة؛ إذ إنه يُعدُّ بذلك من أسباب تطهير الأرض من الجيف فهو مصلحٌ لنا لا مفسد.

الأصل الخامس:

«الأبوابُ الموصلةُ إلى الله كثيرةٌ فلا تدخلوا من بابٍ واحد».

فتح الله تعالى لعباده أبوابًا كثيرةً تُوصِلُ إليه تفضلًا منه سبحانه، سواء في أعمال القلوب أو في أعمال الجوارح أو غير ذلك، لكنك تجد فئامًا من الناس يعتنون بأبوابٍ إلى جانب إهمال أبواب، فلو فتحنا ملف أعمال القلوب لوجدناهم يُهرعون إلى باب الخوف مثلًا ويكادون ينسون كلَّ ما سواه.

ومن علامة ذلك: أنك تجد عنايتهم أوفر ما تكون بآيات الوعيد ونصوص الترهيب، حتى إنَّ أحدهم لو أراد أن يصلي ويخشع فتجده يفتح المصحف مباشرةً على آيات النار وأهوال القيامة ومواضع الوعيد والترهيب من مثل آيات سورة ق وخواتيم سورة الزمر وغير ذلك.

وليس موضع الإنكار أنَّ هذا من أعون الأسباب الجالبة للخشوع والتأثر والتربية؛ وإنما هو حصر الأسباب في ذلك؛ فثمة أبوابٌ أخرى توصل إلى الله كذلك ويصلح بها القلب أيما صلاح من مثل الرجاء والحياء والمحبة والتعظيم والانكسار إلى غير ذلك مما سيأتي في مطلب الأعمال القلبية من المبحث القادم إن شاء الله.

ومع ذلك لو أننا فتحنا بابَ المفاضلةِ بينها فقد لا يتوجه الترجيحُ لبابِ الخوف؛ وإنما لباب الانكسار والخضوع والذل فيما يظهر.

وهذا ما أجده في نفسي، ووجدت ابن القيم ينصره بألفاظٍ بديعة؛ فإنه حين تناول أمر كَسْرةِ العبد بين يدي ربه وافتقاره إليه قال:

ويحكى عن بعض العارفين أنه قال: دخلتُ على الله من أبواب الطاعات كلها، فما دخلت من بابٍ إلا رأيت عليه الزحام، فلم أتمكن من الدخول حتى جئت باب الذل والافتقار فإذا هو أقرب باب إليه وأوسعه ولا مزاحم فيه ولا معوق، فما هو إلا أن وضعت قدمي في عتبته فإذا هو سبحانه أخذ بيدي وأدخلني عليه.

وكان شيخ الإسلام **ابن تيمية** يقول: «من أراد السعادة الأبدية فليلزم عتبة العبودية».

والقصد أنَّ هذه الذلة والكسرة الخاصة تدخله على الله وترميه على طريق المحبة فيفتح له منها بابٌ لا يفتح له من غير هذه الطريق، وإن كانت طرق سائر الأعمال والطاعات تفتح للعبد أبوابًا من المحبة، لكن الذي يُفتح منها من طريق الذل والانكسار والافتقار وازدراء النفس ورؤيتها بعين الضعف والعجز والعيب والنقص والذم نوعٌ آخر وفتحٌ آخر.

والسالك بهذه الطريق غريبٌ في الناس، هم في وادٍ وهو في واد، وهي تُسمَّى **طريق الطير**؛ إذ يسبق النائمُ فيها على فراشه السعاةَ فيصبح وقد قطع الطريق وسبق الركب والله المستعان وهو خير الغافرين[١].

وما يقال في أعمال القلوب يقال في أعمال الجوارح؛ فلا ينبغي للعبد أن يحصر وصوله إلى الله من بابٍ واحد؛ كالعلم مثلًا أو التعبد أو الجهاد أو الدعوة أو فعل المعروف وإغاثة الملهوف.

وإذا فُتِح له في بابٍ فليكثر منه ما استطاع من غير أن يُهمِلَ غيرَه فيما يتيسر له فعله، ومن غير أن يرى نفسه على أعظم الثغور بينما يرى غيره من السالكين دونه في المنزلة؛ فإنَّ الله قسَّم الأعمال كما قسَّم الأرزاق.

وهذا ما أجاب به الإمام **مالك** رحمه الله **عبدَ الله بن عبد العزيز العمري** العابد حين حضَّه على الانفراد والعمل فكتب إليه يقول: **«إنَّ الله ﷻ قسَّم الأعمال كما قسَّم الأرزاق؛ فربَّ رجل فُتح له في الصلاة ولم يُفتح له في الصوم، وآخر فُتِح له في الصدقة ولم يُفتح له في الصيام، وآخر فُتِح له في الجهاد ولم يُفتح له في الصلاة، ونشرُ العلم وتعليمه من أفضل أعمال البر، وقد رضيت بما فتح الله لي فيه من ذلك، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير»**[٢].

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٣١-٤٣٢) بتصرف يسير.
(٢) التمهيد لابن عبد البر (٧/ ١٨٥).

والمقصود من هذا الأصل: أنَّ العبد يجتهد أن يصل إلى الله تعالى من كل باب، سواء كان ذلك في أعمال القلوب أو أعمال الجوارح.

فإذا تيسر له بابٌ دون آخر، أو قدر على المفضول دون الفاضل.. فلا يترك ما فُتِح له، بل قد يكون حاله مع المفضول أكمل من حاله مع الفاضل؛ لاجتماع قلبه عليه، وانشراح صدره له ووجود قوته له، فينقلب المفضول فاضلًا في حقه، ومن ثم لا يطلب ما هو أفضل مطلقًا في نفسه؛ لأنه يفعله على الوجه الناقص، وإنما يطلب ما هو أحسن له؛ لأنه يفعله على الوجه الكامل(١).

وهذا من فقه الإنسان بنفسه.

وسيأتي بإذن الله تعالى تنظيرٌ للتعبد بجميع الأعمال الواردة في الشريعة وفاقًا لفقه القيام بواجب الوقت، وذلك في خاتمة الكتاب التي خصَّصْتُهَا لذلك، ومادتها مأخوذةٌ من كلامٍ بديعٍ **لابن القيم** في المدارج هو من أنفس القول وأحلاه وأكثره فصاحةً وفقهًا وعمقًا.

المسار الخامس: الأصول الكلية للسلوك

وفيه ثلاثة أصول:

الأصل الأول:

«القِيَمُ ميزانُ الرِّجَالِ والجماعاتِ والأمم».

تُعرَّف القيم بأنَّها قواعدُ حاكمةٌ للسلوك، وإذا استحضرنا أنَّ الدِّينَ عقيدةٌ وشريعةٌ وسلوك.. علمنا منزلةَ القيم في التصور الإسلامي.

ومن أمثلة القِيَم: الصدق والتجرد والأمانة والعفة والورع والوضوح.

---

(١) انظر هذه الفكرة في جوابٍ لشيخ الإسلام ابن تيمية عن إحدى المسائل في مجموع الفتاوى (٢٣/ ٦٢-٦٣).

وما من أمة إلا ولها منظومةٌ من القيم تشكِّل فكرَها وأيديولوجيتها، وثمة قيمٌ محل إجماعٍ من الأمم كافة.

وتكمن قيمة القيم في كونها حاكمةً لا محكومة؛ إذ مصدرها الدِّين في التصور الإسلامي وما أودع الله في الفِطَر، ومن ثم فإنها السياج الذي يحمي الأفراد والجماعات والأمم من الانحراف، ويقي من الخلاف؛ لأنَّها إطارٌ مرجعيٌّ حاكم.

وذلك أنَّ الإنسان مشحونٌ بالشهوات والغضب، وتعارض المبادئ والمصالح، فلا بد أن تلقي المؤثرات النفسية والعقلية والمادية بظلالها على المواقف والآراء والأفكار، ومن ثم كان لا بد من الخضوع لسلطان القيم؛ فإنه المادة الحافظة لأي أمة، وهو الميزان الدقيق الذي يُقيَّمُ بحسبه الرجال والجماعات والأمم.

ويعين على ذلك: أنَّ القيم ثابتةٌ ثبات فقه السنن الذي هو طريقة معاملة الله للبشر، ويقف الناس سواسية كأسنان المشط، والكبار في ذلك كالصغار.

ويُمثَّلُ لذلك بما مضى من قصة **طُعمة بن أبيرق**؛ فإنَّ كثيرًا من الناس ولو كانوا فضلاء لو استشيروا في الموقف الذي يمكن أن يُتَّخذ بشأنه.. لأشاروا بالستر والاحتكام للظاهر، ومن ثم تبرئة المسلم واتهام اليهودي؛ بزعم أنَّ هذا هو الذي يحفظ المسلمين من سَلْقِهِم بألسنةٍ حداد، وأنَّ مصلحة الدعوة تقضي بألا يُمَكَّنَ أعداؤها من النيل منها في صورة النيل من أفرادها إلى غير ذلك من وجوه المصلحة المتوهمة.

لكن الاحتكام للقيم هو الذي صنع المسلمين في أجواء ملتهبة، ومن ثم صاروا على حساسية مفرطة من أيِّ خطأ يمكن أن يُقترف؛ لشدة سطوة التربية حين تكون تحت الشمس.

بقي أن يُشار إلى أنَّ من منافع القيم منحَ الرتبةِ والقيمةِ في النفوس؛ فالناس تؤسر للمتعفف والصادق والمخلص والمتجرد وأضرابهم، إلا أنه لا يقدر على تكاليف القيم كلُّ أحد، ومن ثم يتمايز الناس فيها ويتفاضلون تفاضلًا عظيمًا.

الأصل الثاني:

«الاشتغالُ بالنَّفسِ وهضمُهَا مُعِينَانِ على تكميلها والإحسان لغيرها».

هذا أصلٌ عظيمٌ في فقه السلوك، وإليه تُرَدُّ أصولٌ جزئية، وهو يتناول ثلاثة أمور:

الأول: فضيلة الاشتغال بالنفس:

فالذي يشتغل بنفسه ساعٍ في تحقيق مراد ربه، مشغولٌ به عن غيره، ولهذا من الأحاديث التي عليها مدار السلوك في الإسلام ما روى **الترمذيُّ وابن ماجه** عَنْ **أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**»[1] صححه الألباني.

وفي ثنايا وصيةٍ أرسلها أمير المؤمنين **عمر بن عبد العزيز** إلى أحد عمَّاله يوصيه فيها بالعدل والرحمة في أخذ الخراج من أهل الكوفة خرجت منه تحفةٌ تربويةٌ نصها: «**ولا يكونن شيءٌ أهمَّ إليك من نفسك**»[2].

فباب الإيثار والتضحية شيء وباب التربية شيءٌ آخر؛ فهنا في المقام التربوي العنايةُ بالنفس أصل، والاشتغالُ بالغيرِ تبع، وإدراك هذا المعنى مهمٌّ لكلِّ داعية؛ إذ الدعوة إلى الله تعالى إذا كانت فرضَ كفاية.. فإنَّ تربيةَ النَّفسِ بالتزكية فرضُ عين.

الثاني: فضيلة هضم النفس:

وذلك أنَّ الذي يهضم نفسه يعطيها سعرها الحقيقي أولًا، ثم يقيها من كثيرٍ من الأدواء القبيحة كالعُجب والكِبر، ويبقى محتشدًا لتكميلها؛ لأنه بكلِّ بساطةٍ غيرُ راضٍ عنها، ويتيسَّر له بذلك تحصيلُ كثيرٍ من المقامات الكريمة من مثل التواضع لعباد الله والاحتفاء بهم والعفو عمن أساء منهم وعدم الدخول في معارك شخصيةٍ وغير ذلك.

ومن فضل الله تعالى على من يَسُوسُ نفسَهُ بهذه التربيَةِ أنه يؤتيه القَدْرَ والرفعةَ والمكانةَ في الدنيا قبل الآخرة؛ فمن تواضع لله رفعه الله.

(١) سنن الترمذي، رقم الحديث: (٢٣١٧)، سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٣٩٧٦).
(٢) تاريخ الطبري (٤/ ٧٠).

ولما كان الإمام **الغزالي** رحمه الله يتكلم عن الكِبْرِ وآثاره والتحذير منه تطرَّق لهذا الملحظ المهم وأجرى الله على قلمه قاعدةً مؤيَّدةً بالنصوص العامة فقال: «والعالم هو الذي فهم أنَّ الله تعالى قال له: **إنَّ لك عندنا قدرًا ما لم تر لنفسك قدرًا**»[١].

ومن الكلمات الخادمة التي ترشح فقهًا وتربيةً ما جادت به قريحةُ **ابن القيم** بقوله: «حميتك لنفسك أثر الجهل بها، فلو عَرفْتَهَا حقَّ معرفتها أَعَنْتَ الخصمَ عليها»[٢].

ومن نتيجة هذه التربية: أنَّ المسلم يصبح لا يرى لنفسه حقًّا، ولا يُقدِّم نفسه ولا يمدحها ولا يفخر بفعالها، ويبقى معظِّمًا لغيره، ولو نِيل منه فلا ينتصر لنفسه، بل نفسه أهون عنده من أن ينتصر لها، ويخشى أن يُعانِدَ من أجلها ويخوض المعارك انتصارًا لها ثم هو ممن سخط الله عليهم بما هو عليه من الذنوب والتقصير في حق مولاه سبحانه وتعالى.

فكلَّما كان هيَّابًا من الله تعالى، هاضمًا لنفسه كان هذا أعون على تحصيله للكمالات، واستدراره بهذه الحال لرحمة الله وعفوه وفضله.

الثالث: الإحسان إلى الغير:

وهذه نتيجةُ الاشتغال بالنفس وهضمها؛ فإنَّه كما يعان بذلك على تكميل نفسه فإنه يعان على الإحسان لغيره، بل يرى ذلك معراجًا يصل به إلى ربه جلَّ وعلا.

وهذا يفتح له بابًا عظيمًا من الإيمان وحسن الهدي والسمت والسلوك وتعظيم الآخرين وحب الخير لهم ما كان ليتحصل لولا ما تقدَّمَهُ من تربية.

فلو أخذنا مثالًا بما روى الشيخان عَنْ **أَنَس** رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»[٣].. لكان هذا تكليفًا لا يخلو من مشقةٍ عند أكثر الناس، أما صاحبنا المشتغل بنفسه الهاضم لها.. فإنه يتيسر له هذا وما فوقه من المقامات؛ لأنَّ تربيته تجعله يعامل عباد الله أنهم عظماء لا أنه عظيم، بل تجعله لا يتحدث عن نفسه إلا من حاجة.

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٥١).
(٢) الفوائد ص (٥٠).
(٣) صحيح البخاري، رقم الحديث: (١٣)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٧٩).

الأصل الثالث:

«**السَّلامَةُ لا يَعدِلُها شَيء**»[1].

هذا أصلٌ تربويٌّ عظيم، ويمتدُّ إلى كثيرٍ من أبوابِ الفقهِ والسلوك.

ومن أدلته: ما روى **الترمذيُّ** عن **الحسنِ بن علي** رضي الله عنهما أنه قال: حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ: «**دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ**»[2] صححه الألباني.

وما روى الشيخان عَنِ **النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ** رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ..**»[3].

ومن منافع هذا الأصل: أنه أخصر طريق لتحصيل الورع؛ وهو ترك ما يُخشى ضررُه في الآخرة[4].

فهذا الأصل تربيةٌ على ترك المباح الذي تحوم حوله الشُّبَه، والذي يخشى أن يتضمن ما لا يجوز فعله؛ فترى العامل بهذا الأصل ذا حساسية من المعاملات المشتبهة، ولا ينتصر لنفسه؛ خشيةً من الوقوع في ظلم غيره، ولو رأى مجلسًا يُغتاب فيه أو توقع فيه ذلك.. فرَّ منه، وما إلى ذلك.

ومن تطبيقات هذا الأصل الأمثلة الستة الآتية:

١ - حفظ اللسان عن الكلام إلا بما فيه مصلحة؛ فإنَّ السكوت سلامةٌ والسلامة لا يعدلها شيء، وفي الصحيحين من حديث **أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ..**»[5].

---

(١) وردت هذه الكلمة على لسان الإمام الذهبي في كتابه: «الكبائر» ص (١٢٥)، ورأيت من ينسبها للإمام أحمد لكن لم أقف على مصدرٍ صحيح.

(٢) سنن الترمذي، رقم الحديث: (٢٥١٨).

(٣) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٢٠٥١)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٤١٧٨) واللفظ لمسلم.

(٤) الفوائد لابن القيم ص (١١٨).

(٥) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٦٠١٨)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٨٢) واللفظ لمسلم.

فهذا الحديثُ نصٌّ صريحٌ في أنه لا ينبغي للإنسان أن يتكلم إلا إذا كان الكلام خيرًا، وهو الذي ظهرت مصلحته للمتكلم[1].

٢- التورعُ عمَّا يُشتبه في حلِّه من مالٍ أو طعامٍ أو معاملةِ شخص ماله من حرام أو عقد معاملة بنكية مشتبهة وأضراب ذلك.

٣- مخالطة إخوان السوء مما يمكن أن يكون لهم تأثيرٌ على دين الشخص أو أخلاقه.

٤- مخالطة العلماء للأمراء؛ فإنَّ ذلك قد يفضي للمجاملة في الدين، والسلامة لا يعدلها شيء.

٥- الدراسة أو الإقامة في بلاد الكفر والفسوق والعصيان، فإنَّ العلم خير، لكن الإنسان معرض لفساد دينه أو خراب بيته وعدم سيطرته على أولاده، والسلامة من كل ذلك لا يعدلها شيء.

٦- هجر مجالس اللهو لئلا يُستدرجَ إلى الشَّهوات، وترك مجالس الجدل؛ لئلا يقع في الحدة والغضب وسوء الخلق، ولا يفتك بالإنسان مثل الشهوات والغضب، وهما أشد المؤثرات على الإنسان، ومتى حصلت السلامة بتوقي ذلك فلا يضير الإنسان ما يفوته من حظِّ نفسه من تلك المجالس؛ فإنَّ السَّلامة لا يعدلها شيء.

المسار السادس: الأصول الكلية للتعامل مع الأدواء

وفيه أصلان:

الأصل الأول:

«الأدواءُ تُعَالَجُ ولا تهمل، ومن كَتَمَ دَاءَهُ قَتَلَه».

أدواء القلوب كأدواء الجوارح لو أهملها صاحبها فتكت به، فمن نزل به مرضٌ قلبيٌّ أو نفسيٌّ فالأصل أن يعتني بصحته الإيمانية وعافيته التربوية، ومن ثم يبحث عن أطباء القلوب وحكماء النفوس، ويكثر من البحث في مختلف الوسائل حتى تنزل العافية بقلبه ونفسه.

(١) الكبائر للذهبي ص (١٢٥).

وذلك أنَّ القلب لو فسد لفسد كلُّ شيء، والإنسان تحمله نفسه، فمتى نزلت بها الأمراض فإنها تقعد به وتصير حياته على نكدٍ من العيش، يعاني الأدواء من مثل اليأس والإحباط والاكتئاب والصدمات النفسية وما إلى ذلك.

وكما أنَّ التنظيرَ التربويَّ يتناول الدعوة لاستثمار الوقت لئلا يضيع.. فكذلك ينبغي أن يمتد للاستمتاع بالوقت لئلا يضيع الإنسان نفسه في أودية الحياة وأدوائها.

إذن: الأدواء تُعالج ولا تهمل، ومن كتم داءه قتله.

وقد أفرد الشيخ الفاضل د. **أديب الصانع** وفقه الله في كتابه: «**الترياق**» مساحةً جيدةً للحديث عن هذا المعلم التربوي تحت عنوان: «**من كتم داءه قتله**».

ومثَّل له برجلٍ يسير في قاربه أملًا بالنجاة، ولكنه لم ينتبه لوجود عدة ثقوب أسفل القارب، فهو حتمًا إلى الغرق أقرب.

ولو أنَّه تنبه للثقوب إلا أنه لم يأخذ القضية على محمل الجد.. فمصيره كالأول، فتحصَّل أنَّ التهاونَ كالغفلة والجهل.

ولو أنه أراد المعالجة لا بدافع النجاة؛ ولكن لتجنب المساءلة فأصلح قليلًا وعذر نفسه أن اجتهد.. فمصيره الغرق؛ لأنَّ العلاج كان صوريًّا وشكليًّا ومجتزئًا.

ولو أنَّه تنبه واهتم ولكن جعل نظره منصبًّا على إصلاح آثار الثقوب من الماء المتدفق، فاندفع يخرج الماء من قاربه وبقي على ذلك ساعاتٍ طويلة، فما لبث أن تعب ووهن لبقاء تسرب الماء، فمصيره مثل الآخرين إلا أنَّه أخَّر الغرق حينًا من الزمن، والغرق هنا ليس للإهمال؛ ولكن لأنَّ العلاج خطأ.

وهذه الأربعة: الجهل والتهاون والصورية والعلاج الخاطئ تُمَثِّلُ أعمدةَ كتمِ الدَّاء.

والنجاة من كَتْمِ الدَّاء تتمثل أولًا بمعرفته والبحث عنه، ثم أخذه على محمل الجد من غير تسويغ ولا تجاهل ولا تساهل، ثم العمل على علاجه علاجًا صحيحًا كافيًا، مستبعدين في ذلك علاج الأعراض منتبهين لعلاج الأسباب والأمراض.

فكتمُ الدَّاء إذن هو أن تسير والداء مصاحبٌ لك جهلًا أو تجاهلًا من غير علاجٍ حقيقيٍّ ومؤثر.

ولا ينبغي أن يُؤَخَّرَ العلاجُ مهما كانت ظروف الإنسان؛ إذ الداء كالشجرة الضارة اقتلاعها أول الأمر سهل، فإن تجذَّرت صار القلع صعبًا واحتاج إلى وسائل استثنائية.

ولهذا حذارِ من التهاون في التعامل مع أدواء القلوب، وليكن الشأن كالعناية بالعافية من أدواء الجوارح، فالإنسان متى مرض وظهرت عليه الأعراض قصد الطبيب، وأخذ العلاج بانتظام، ولو كان مشغولًا، فإن كابر أو أقنع نفسه أنه بخير وأنه ليس بحاجةٍ للعلاج.. فهذا الكتم يقتله، ومن ثم يكون الندم[1].

الأصل الثاني:

«تمحيص الإيمان من خبث الجناية».

هذا أصلٌ عظيمٌ في التعامل مع الذنوب إذا وقعت، والكلام ليس في حصول الذنب من عدمه؛ وإنما عن فقه التعامل معه؛ إذ الذنبُ ملاصقٌ للآدمية؛ لما روى **مسلمٌ** عن **أبي ذرٍّ** رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وفيه: **«يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ»**[2].

وما روى **الترمذيُّ وابن ماجه** عَنْ **أَنَسٍ** رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: **«كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»**[3] حسنه الألباني.

ولكنَّ الذنبَ شيءٌ خبيثٌ نجس، والله تعالى طيبٌ لا يقبل في جنته إلا طيبًا، لا يجاوره فيها خبيثٌ نجس، ومن ثم تفضَّل الله على عباده بما يُطيِّبهم من الذنوب التي علقت بهم، وجعل طرق التطييب كثيرةً؛ رحمةً منه بهم وفضلًا.

---

(١) الترياق لأديب الصانع (١/ ٢١-٢٣) ثم فصل الشيخ طويلاً في علاج داء كتم الداء، فأحيل عليه، والكلام هنا في تقرير الأصل التربوي لا في بسط الكلام على العلاج.

(٢) صحيح مسلم، رقم الحديث: (٦٧٣٧).

(٣) سنن الترمذي، رقم الحديث: (٢٤٩٩)، سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٤٢٥١).

وقد فتَّش **ابن القيم** رحمه الله في نصوص الشريعة عن وسائل التطبيب التي تؤهل الإنسان لمجاورة الله وهو طيبٌ فبلغت إحدى عشرة وسيلة تصلح أن تُمثِّل نظريةً للتطبيب، وقد بسطت القول فيها في كتاب: «تحصيلُ المرام في علاج مشكلة الشهوات والنظر الحرام»، وأعرضها هنا بشيءٍ من الاختصار؛ لأنَّ الغرض تقريرُ الأصل التربوي لا الكلام في ذات الموضوع، وأحيل على الكتاب لمن رام مزيدَ توسع.

وأبدأ الكلام بصاحب الكلام الإمام ابن القيم صاحب القلم السيال والفكر الزُّلال والذي بدأ كلامه بضرورة معالجة الأدواء والتحذير من كتم الداء ثم أخذ يتكلم في العلاج، ودونك كلامَه مع تصرفٍ وزيادة:

لابد من مطالعة الجناية والوقوف على الخطر فيها والتشمير لتداركها والتخلص من رِقِّها وطلب النجاة بتمحيصها، فإذا طالع جنايته شمَّر لاستدراك الفارط بالعلم والعمل، وتخلَّص من رقِّ الجناية بالاستغفار والندم وطلب التمحيص، وهو تخليص إيمانه من خبث الجناية كما يُمحص الذهب والفضة بإزالة خبثهما بما يوقدون عليه في النار ابتغاء الحِلية.

وذلك أنه لا يمكن أن يدخل الجنة إلا بعد هذا التمحيص؛ إذ الجنة طيبةٌ لا يدخلها إلا طيب، ولهذا تقول لهم الملائكة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، فليس في الجنة ذرةُ خبث.

وهذا التمحيص يكون في دار الدنيا بأربعة أشياء:

أولًا: التوبة: بحيث يقلع عن المعصية فورًا، ويندم على الماضي، ويعزم ألا يعود في المستقبل، وهذه هي شروط التوبة الثلاثة، وقد توزعت على الأزمنة الثلاثة كما ترى لتمنح صاحبها شعورًا بميلادٍ نفسيٍّ جديد، فالتوبة مسارٌ تصحيحيٌّ قويم.

ثانيًا: الاستغفار: وهو ممكن مع عدم التوبة إلا أنَّ الاستغفار المثمر الكامل التام هو الذي يقترن بتوافر شروط التوبة.

ثالثًا: عمل الحسنات الماحية: امتثالًا لقول النبيِّ ﷺ: «**وأتبع السَّيئةَ الحَسنة تَمْحُها**»[1]، وفـي التنـــزيل الحكيم: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: ١١٤].

فإذا اقترف الإنسان ذنبًا أتبعه بحسنةٍ ماحية؛ كما لو صلى ركعتين، أو وصل رحمه، أو جالس أمه وأزال همومها، أو ذكر الله أو تلا من القرآن ما تيسَّر له، أو تصدق بما تيسر؛ إذ «**صَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ**»[2]، أو مكث في المسجد بعد الصلاة، أو زار مريضًا، وفي الحديث: «**مَن عَادَ مَرِيضًا خَاضَ فِي الرَّحْمةِ، فَإِذَا جَلَسَ عِندَهُ استَنقَع فيها**»![3] صححه الألباني، إلى غير ذلك.

رابعًا: تحمل المصائب المكفرة: فالابتلاء ركنٌ من أركان التربية، ولهذا ينبغي للعبد أن يبالغ في تحمل المصائب النازلة به، ويصبر على أقدار الله المؤلمة، ويرضى بما ينزل عليه منها.

بل الذي أوتي الفقه من العباد يشكر ربه على ما يقدره عليه من مصائب؛ لأن الابتلاء باعتبار الآخرة من جملة النعم، ويكفيك من الأدلة الكثيرة على ذلك ما أخرج **الحاكم** في المستدرك من حديث **أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:

«**إِنَّ الرَّجُلَ تَكُونُ لَهُ الْمَنْزِلَةُ عِنْدَ الله فَمَا يَبْلُغُهَا بِعَمَلٍ، فَلَا يَزَالُ يَبْتَلِيهِ بِمَا يَكْرَهُ حَتَّى يُبْلِغَهُ ذَلِكَ**»[4] حسنه الألباني.

فالابتلاء كما جعله الله سببًا لتكفير السيئات فقد جعله طريقًا لرفعة الدرجات، فيأتي صاحبه الصابر الشاكر آمنًا يوم القيامة بإذن الله وفضله.

يقول **ابن القيم**: فإن محصَّته هذه الأربعة وخلَّصته.. كان من الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يبشرونهم بالجنة، وإن لم تف هذه الأربعة بتمحيصه وتخليصه؛ فلم تكن التوبة نصوحًا؛ وهي العامة الشاملة الصادقة، ولم يكن الاستغفار كاملًا تامًّا؛ وهو المصحوب

---

(١) سنن الترمذي، رقم الحديث: (١٩٨٧). وقد حسنه الألباني.

(٢) شعب الإيمان للبيهقي، رقم الحديث: (٣١٦٨)، وهذا جزء من الحديث، وقد صححه الألباني.

(٣) الترغيب والترهيب للمنذري، رقم الحديث: (٥٢٧٦). من رواية كعب بن مالك رضي الله عنه.

(٤) المستدرك على الصحيحين للحاكم، رقم الحديث: (١٢٢١).

بمفارقة الذنب والندم عليه، ولم تكن الحسنات في كميتها وكيفيتها وافيةً بالتكفير ولا المصائب؛ وهذا إما لِعِظَمِ الجناية وإما لضعف المحص وإما لهما.. مُحِّص في البرزخ بثلاثة أشياء:

أحدها: صلاة أهل الإيمان الجنازةَ عليه واستغفارهم له وشفاعتهم فيه؛ لما أخرج **مسلم** في صحيحه عن **ابن عباس** رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلاً لاَ يُشْرِكُونَ بِاللهِ شَيْئًا إِلاَّ شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ»[١].

الثاني: تمحيصه بفتنة القبر وروعة الفتان والعصرة والانتهار وتوابع ذلك.

الثالث: ما يهدي إخوانه المسلمون إليه من هدايا الأعمال من مثل الصدقة عنه والحج والصيام عنه وقراءة القرآن عنه والصلاة وجعل ثواب ذلك له.

وقد أجمع أهل العلم على وصول الصدقة والدعاء، واختلفوا فيما سوى ذلك؛ فالأكثر على وصول الحج، ومذهب **أحمد** ومن وافقه أوسع المذاهب إذ يقولون بوصول ثواب جميع القُرَب.

فإن لم تف هذه الثلاثة بالتمحيص.. مُحِّص بين يدي ربه في الموقف بأربعة أشياء:

أحدها: أهوال القيامة وشدة الموقف.

الثاني: شفاعة الشفعاء.

الثالث: عفو الله عز وجل.

فإن لم تف هذه الثلاثة بتمحيصه أو لم تتم.. فلا بد له من دخول الكير؛ رحمةً في حقه ليتخلص ويتمحص ويتطهر في النار، فتكون النار طهرةً له وتمحيصًا لخبثه، ويكون مكثه فيها على حسب كثرة الخبث وقلته وشدته وضعفه وتراكمه، فإذا خرج خبثه وصفى ذهبُه وصار خالصًا طيبًا أُخرِجَ من النار وأدخل الجنة[٢].

---

(١) صحيح مسلم، رقم الحديث: (٢٢٤٢).
(٢) مدارج السالكين (١/ ١٤١-١٤٣).

وأختم الكلام على هذا الأصل بالتنبيه على أنَّ العبد ينبغي أن يفقه هذه النظرية جيدًا؛ ليُطَيِّبَ نفسَهُ في الدنيا قبل أن يرحل إلى الله تعالى، ولئلا يستغل الشيطان حالة شعوره باليأس من القدرة على ترك الذنب بالكلية فيزيده يأسًا وإحباطًا حتى تتهتك نفسيته.

وبيان ذلك: أنَّ العبد إذا تكرر منه الذنب وكلما حاول أن يقلع عنه تمامًا عاد إليه، وصار على نفسيةٍ صعبةٍ.. فهنا يستغل الشيطان هذه المشاعر ويغرز فيه بذرة القنوط من رحمة الله، وأنه ليس أهلًا لفضل الله ولا لتوفيقه، وأن الله لن يفتح له باب الرحمة، وأن غيره قد وفقه الله دونه.

وهكذا تبدأ موجةٌ مرعبةٌ من سوء الظن بالله تعالى، وربما أخذته دوامتها للانسلاخ من المواطن الصالحة التي استعمله الله فيها؛ كالعلم والدعوة والجهاد وأحوال التعبد؛ بحجة أنه فاسدُ القلب لا يصلح لها، ويبقى يتجنب الطاعات التي تعليه، وينحدر هابطًا في سفح الأعمال التي ترديه.

والحق أنَّ الشيطان ما نجح في إلجامه والقعود به عن العمل وخلع الحيوية والأمل عنه إلا من شبهة عدم صلاحه لمغفرة الله ورحمته، وقد عطَّل بهذا اليأسِ النكدِ رحمةَ الله التي هي أعظم صفاته سبحانه وأجلها، وكان عليه أن يوازن بين الخوف والرجاء، وبين محاسبة النفس على خطئها وديمومتها في الطاعات التي أمر الله بها، وأنَّه ما كان ينبغي أن يتوقف قطار الحسنات ولو استمر مسير قطار السيئات؛ إذ **ليس من شروط صحة الطاعات توقف الخطيئات.**

وهو مُبَشَّرٌ بأنَّ ما يُحدثه من الأعمال الصالحة المشروعة عقب الذنوب هو الذي يمحوها ويجعله كالذي لا ذنبَ له، فضلًا من الله تعالى وتوفيقًا.

ولهذا لا ينبغي أن يشك في وعد الله، بل الذي ينبغي أن يُهِمَّه:

هل صبر على ما نزل به من المصائب المُكفِّرة أم لا؟

وهل يمحو ما يقترفه من الذنوب بشكلٍ يوميٍّ أم تراكم حتى ما عاد يرى الطريق من كثرة أوساخ الذنوب فيه؟

وعلى كلٍّ؛ فمتى هجم عليك خاطرٌ شيطانيٌّ من خواطر اليأس والقنوط فاطرده بسياط مثل قوله تعالى:

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ٢٧ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ [النساء: ٢٧، ٢٨][١].

والحمد لله رب العالمين.



(١) أجبت بشيءٍ من البسط في كتاب: «تحصيل المرام في علاج مشكلة الشهوات والنظر الحرام» عن السؤال الذي قد يقوم بالأذهان هنا: ماذا لو عرفت طريق التوبة ولكني كلما تبت وقعت في الذنب من جديد ويتكرر ذلك دومًا فماذا أفعل؟ والسؤال وجوابه في آخر مطالب الكتاب، وهو منشورٌ على الشبكة.

المطلب الثاني

أعمـــــدة بنـــــاء الإيمـــــان

من أكثر الأسئلة التي تَرِدُ في المقامِ الإيمانيِّ أن يقول السَّائل ما مفاده:

إنني أعاني من حالةٍ إيمانيَّةٍ متشظية، وأشعر أني مُلطَّخ بأوساخ الذنوب والشهوات، وكلما حاولت النهوض تعثَّرت، وكلما تبت رجعت، كل شيء يضيع في حياتي، لا خشوع، ولا تكبيرة إحرام، ولا ورَدَ من تلاوة القرآن ولا نصيب من قيام الليل، فماذا أفعل بالضبط لأستعيد عافيتي الإيمانية؟

وهل أنا معاقبٌ أم لا؟

ولو كنت معاقبًا فلست أدري ما الذنب الذي صار حالي من أجله إلى هذا.

إنني أشعر أنَّ نفسي ممزقة وروحي مشتتة، ولا أدري كيف أجمع قلبي ونفسي على إنقاذ قلبي ونفسي.

إنَّ علاجَ هذا الدَّاء يكون بما يمكن تسميته: **«بناء الإيمان»**، فما يُذكر فهو يدل على أن بنيان الإيمان أصابه شيءٌ من الاختلال، ولربما انهارت فيه بعض الجوانب فهو بحاجةٍ إلى ترميمٍ وإصلاح، والأعمال التي تنفخ الروح في الإيمان ليحيى من جديدٍ كثيرة، لكن من الفقه في العلاج حصر الدواء في أمورٍ محددة ليسهل الأمر ونخرج من ضبابية الطرح.

وهذا ما يدعو للحديث عن الأمور المركزية التي تبني الإيمان، بما يمكن تسميته: **«أعمدة بناء الإيمان»**.

والكلام في هذه القضيَّةِ له أصلٌ وفرع.

أما الأصلُ.. فهو أنَّ بناءَ الإيمان يحصل أولًا بالأصول العامة للدِّين من مثل أركان الإيمان وأركان الإسلام، وما يرتبط بذلك مما تقدَّم في الأصول التربوية من مثل مركزية الآخرة وفاعلية اليقين ومحورية الانقياد والاستسلام.

ولو أخذنا مثلًا جانب الإيمان بالأسماء والصِّفات من مادة ركن الإيمان بالله من الأركان الستة للإيمان.. لكان ذلك من أعظم الينابيع التي تصب الإيمان في القلب صبًّا؛ فما من أصلٍ إيمانيٍّ ولا معلمٍ تربويٍّ إلا وله صلةُ رحم باسمٍ من أسماء الله تعالى أو صفةٍ من صفاته.

وأما الفرعُ.. فهو أنَّ ثمةَ أعمالًا تفصيليَّةً يمكن عدُّها أصلًا لغيرها بحيث يتيسر إعادة بناء الإيمان من خلالها، واستعادة حيوية الإنسان وفاعليته إذا قام بها.

وقبل سردها والكلام عليها أُنَبِّهُ على ثلاثة أمور:

الأول: إنَّ الكلام في هذا المقام عن بناء الإيمان وليس عن دواء الأدواء، فالكلام عن تحليةٍ لا عن تخلية، وهذا يعني أنَّ المتعبد عليه أن يُفعِّل قانون **«تمحيص الإيمان من خبث الجناية»** وهو مشتغلٌ ببناء إيمانه؛ لئلا يكون مشتغلًا بالبناء في جانب وثمة انهيارات تحصل في إيمانه من جانبٍ آخر.

ومن ثم عليه أن يبقى محافظًا على الدَّوام على وسائل التطييب الأربع: التوبة والاستغفار وعمل الحسنات الماحية وتَحمُّل المصائب المُكفِّرة، وقد تقدم الحديث عن ذلك.

الثاني: إنَّ القيام بكلِّ عمودٍ من أعمدة بناء الإيمان ينبغي أن يقع على وجهه، فحين نقول: إنَّ الطائرة أسرع من السيارة فلا نقصد الطائرة المعطوبة من غير شك، ومن ثم فلا بد من العناية بكلِّ عملٍ من أعمال بناء الإيمان ليقع أداؤه على الوجه التام أو ما هو قريب من التام؛ ليؤدي فاعليته إن شاء الله.

الثالث: إنَّ الكلام هنا إنما هو في الأعمدة، أما إذا قصدنا التفاصيل فلا تكاد تنحصر الأعمال عند حد؛ إذ كل عملٍ يمكن أن يُمثِّل فاعليَّةً في بناء إيمان الشخص واستعادة عافيته الإيمانية والتربوية، وقد يُفتح لإنسانٍ من الأبواب ما لا يُفتح لآخر، وفضلُ الله واسع.

وثمة نصيحتان مهمتان بهذا الخصوص من الأعمال التفصيلية أجعلهما في آخر الكلام إن شاء الله تعالى.

إذا وعيتَ هذا.. فلنأخذ الآن في تعداد الأعمدة والكلام عليها وهي ستةٌ كما يلي:

أولًا: الاستعانة بالله:

بدأت بهذا العمود وقد كنت جعلتُه آخرًا أول الأمر ليكون آخر ما يعلق بذهن القارئ، إلا أنني آثرت أن أجعله أولًا؛ لأنَّ الذي يستهوي الإنسان أن يُلْقَى على سمعه ما هو بعيدٌ عن ذهنه لا ما هو قريبٌ بين يديه، والاستعانة بالله أمرها معلوم، ودعاء الله بتحقيق الحوائج أمره مستقرٌّ في الفِطَر والنفوس.

إلا أنَّ توفر الدَّواء أو شهرته لا يعني استعماله، ولستُ هنا بصدد طرح ما يُشوِّق القارئ ليُقبل على العلاج بحيوية؛ وإنما لإخباره بالدَّواء كما هو، فإذا قصَّر في تناوله فإنه من سيبقى يعاني تشظي الذات وتفرق النفس، ومن ثم لا يلومن إلا نفسه.

وكثيرٌ ممن يحمل همَّ إصلاحِ نفسه، ويأخذ بالأسباب من صيامٍ وقيامٍ وغير ذلك، ويشتغل برسم الخطط والبرامج التي تُنجز له مراده، وكلما وجد ذا خبرةٍ بفقه التزكية سأله عن حاله.. يبقى غافلًا عن هذا الكنز مع قربه منه غاية القُرْب.

ولمركزية هذا العمود الباني للإيمان جاء ذكره في فاتحة الكتاب في قوله سبحانه: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٥، ٦].

فهذا دعاءٌ يتكرر كلَّ يوم نحوًا من ثلاثين مرة أو يزيد يعلن فيه العبد أنه مستعينٌ بربه، مفتقرٌ غاية الافتقار إليه، عاجزٌ غاية العجز بين يديه، لكن الله «**لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ**»[(١)].

وأعظم ما تشتدُّ حاجةُ العبدِ إليه أن يُهدى للحقِّ والصراط المستقيم الموصل إليه، ولعله لهذا ذكر طلب الهداية بعد الاستعانة.

وهذا العمود هو الذي علَّمه النبيُّ ﷺ لابن عمه **عبد الله بن عباس** رضي الله عنهما وأرشده إليه وهو غلامٌ صغير؛ إذ قال له في كلامٍ صريحٍ بيِّن: «**يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظْ اللهَ**

---

(١) سنن الترمذي، رقم الحديث: (٣٤٧٩) وقد حسنه الألباني.

يَحْفَظْكَ، احْفَظْ الله تَجِدْهُ تُجاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ الله، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله..»(١) صححه الألباني.

إذن؛ فالعمود الضخم الذي يستحق الصَّدارة هو كمال الاستعانة بالله تعالى وكمال الافتقار إليه في إصلاح نفوسنا وما فسد من قلوبنا.

وقد تقدَّم الكلام القيِّم **لابن القيِّم** حين كان يتكلم عن دور انكسار النفس بين يدي الله في تحقيق مقاصد العبد وقضاء حوائجه إلى أن قال:

«والقصد أنَّ هذه الذلة والكسرة الخاصة تدخله على الله وترميه على طريق المحبة فيفتح له منها بابٌ لا يفتح له من غير هذه الطريق، وإن كانت طرق سائر الأعمال والطاعات تفتح للعبد أبوابًا من المحبة، لكن الذي يُفتح منها من طريق الذل والانكسار والافتقار وازدراء النفس ورؤيتها بعين الضعف والعجز والعيب والنقص والذم نوعٌ آخر وفتحٌ آخر»(٢).

فإن قلت: وعيت ما قلت، ولكن:

كيف أعرض المسألةَ بين يدي ربي؟

ماذا أقول له؟

وكيف أدعوه؟

أقول: إنَّ الاستعانةَ بالله قد تكون من حركةِ اللسان بالقول أو من حركة القلب بما يعتمل فيه من مشاعر، أي أنَّ الاستعانة قد تكون بلسان المقال أو بلسان الحال.

وكمال الاستعانة أن يجتمع الحال مع المقال، وأن يكون ذلك في دعاءٍ، وأن يكون هذا الدعاء في سجودٍ أو في خلوةٍ والناس نيام.

وأحسن الأدعية أن تعرض حاجتك كما هي في صدرك.

فالإنسان إذا اشتكى تَفَرُّقَ نفسِه وعانى شتاتَ قلبِهِ وفكرِهِ، وأراد أن يلم شعث

(١) سنن الترمذي، رقم الحديث: (٢٥١٦).
(٢) مدارج السالكين (١/ ٤٣١-٤٣٢) بتصرف يسير.

نفسه.. يمكن أن يلجأ إلى الله ويدعوه فيقول من غير تكلفٍ من القول بعد أن يُثنِيَ على ربِّهِ بما هو أهله ويصلي على النبي ﷺ ويطيل ما استطاع في ذلك:

- **اللهم إني أشكو نفسي إليك.**
- **اللهم إني أعاني شتات نفسي وتمزق روحي وفساد قلبي وغياب الأنس بك ربي.**
- **اللهم إني لا أدري هل ما أنا فيه من شتاتٍ عقوبة على شيءٍ اقترفته؟ أم حق قصَّرت في فعله؟ أم لأسلك سبيل الحق تنبيهًا على أنَّ ما أنا عليه سبيلٌ خطأ؟**
- **اللهم لو كان ما أنا فيه عقوبةً على ذنبٍ فإني لا أدري من أيِّ ذنبٍ أُتِيت.**
- **اللهم إني أتوب إليك من كلِّ ذنبٍ، علمتُه أو جهلته، كان سببًا في عقوبتي أو لم يكن.**
- **اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرةً من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم.**
- **اللهم إني كالذي وقع في بئرٍ لا يعرف سبيلًا للخروج منه، وإني أقف ببابك، وأتعلق بجنابك، فأخرجني مما أنا فيه بمنِّك وكرمك يا أرحم الراحمين.**
- **اللهم إني ضعيفٌ وأنت القوي، اللهم إني فقيرٌ وأنت الغني، اللهم إني عاجزٌ وأنت القادر، اللهم إني عبدٌ وأنت الرب، أنت رب الأرباب ومسبب الأسباب، سبحانك لا إله إلا أنت.**
- **اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شرِّ ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء لك بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.**
- **لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.**
- **اللهم لا براءةَ لي من ذنبٍ فأعتذر، ولا قوة لي فأنتصر، ولكني مذنبٌ مستغفر.**
- **اللهم ما كان مني من غفلةٍ أو ذنبٍ لم يكن عن استهانةٍ بحقِّك، ولا إنكارٍ لاطِّلاعك، ولا استهانةٍ بوعيدك؛ وإنما كان عن غلبة الهوى، وغفلة النفس، وإني**

أقف بين يديك ذلًّا وانكسارًا وافتقارًا وعجزًا؛ طمعًا في رحمتك، وجمعًا لشتات قلبي، وما تفرَّق من نفسي، وما عطب من روحي، وما فسد من قلبي، وما تكدَّر من فِكري.

- **لا سبيل لي إلا بك، ولا معونة لي على طاعتك إلا بتوفيقك.**
- **اللهم فوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، لا ملجأ ولا مَنجَى منك إلا إليك.**
- **أنت حسبي ونعم الوكيل، وأنت على كل شيء قدير.**

إلى آخر مثل تلك الكلمات التي تعد إنابةً إلى الله تعالى.

والمقصود أنَّ أول أعمدة بناء الإيمان أن تستعين بالله العزيز على ذلك، وتُنزلَ حاجتك به، وتسأله أن يعمر قلبك بالإيمان والتقوى، ومن العمل ما يرضى، وإذا كان عندك ما تعاني منه من مشكلاتٍ فإنك تتأمل أجزاء المشكلة وتقوم بتجميعها وبسطها بين يديه سبحانه في دعاءٍ، حتى تصل إلى مبتغاك من الاستقرار الروحي بإذن الله وعونه وفضله.

فهذا مدخلٌ عظيمٌ لِلَمْلَمَةِ الشعث النفسي، وقلَّما دخل أحدٌ من هذا الباب إلا فُتِح له، كيف لا والمفتاح بيد الفتاح، وهو القائل سبحانه: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

وهذا ما أدركه **بديع الزمان النورسي** رحمه الله حين كان يدخل إلى الله تعالى من باب العجز فيحصل على ما يريد، وكشف لنا عن كلمة السرِّ بقوله: «**عجزي كنزي**».

ثانيًا: القرآن:

إنَّ القرآن هو عمود الأعمدة، يمكن تشبيهه بعمود الخيمة الذي تتوزع الأعمدة حوله، فهو المادة التي تولت تربية الصحابة رضي الله عنهم لبنةً لبنة، وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧، ٥٨].

ويُعتَنَى بالقرآن من جهاتٍ خمس: تلاوته، وحفظه أو حفظ ما تيسَّر منه، وفهمه بقراءة تفسيره، وتدبره، والعمل به.

ولن يبني القرآن إيمانك البناء الكامل إلا بتوافر ثلاثة أمور:

الأول: أن تستشعر أنه يخاطبك الآن خطابه للجيل الأول الذي نزل فيه، فإنَّ النبيَّ ﷺ أرسله الله للناس كافة، وأنزل عليه هذا القرآن ليخاطب به هذه الأمة على امتداد أجيالها؛ كما قال سبحانه: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

والمعنى: إنَّ الله تعالى قد أنزل هذا القرآن عن طريق وحيه الصادق لأنذركم به يا أهل مكة ولأنذر به جميع من بلغه هذا الكتاب، ووصلت إليه دعوته من العرب والعجم في كل زمانٍ ومكانٍ إلى يوم القيامة، فمن بلغه القرآن فكأنَّما رأى النبيَّ ﷺ(١).

الثاني: أن تفهم معانيه ولو على جهة الإجمال، ويكون ذلك بقراءة تفسيرٍ جامعٍ له أو أكثر بحسب ما يتحقق به الغرض.

وينبغي أن يُعلم أنَّ التفاسيرَ المختصرةَ التي تقع عادةً على هامش المصحف لا يتحقق بها الغرض، فهي مفتاحٌ ليس إلا، ويكاد أن يكون المفتاح بلا أسنان، ولهذا أنصح بالتفاسير المطولة ذات العبارة الميسرة.

وأكثر التفاسير التي أراها تحقق هذا الغرض تفسير الوسيط للشيخين **محمد سيد طنطاوي وأحمد الكومي**، ويقع في خمسة عشر مجلدًا، لكنه سهل العبارة، يمكن أن يُنجز في وقتٍ غير بعيد.

ويقاربه لطلبة العلم تهذيب تفسير الطبري للشيخ الدكتور **صلاح الخالدي**، ويقع في سبعة مجلدات من إصدار دار القلم والدار الشامية.

وأمهات التفاسير أربع: تفسير **الطبري**، وتفسير **الرازي**، وفي ظلال القرآن **لسيد قطب**، والتحرير والتنوير **لابن عاشور**.

(١) تفسير الطبري (١١/ ٢٩١)، الوسيط لمحمد سيد طنطاوي (٥/ ٥٢-٥٣).

فكلُّ واحدٍ منها ذو مسارٍ مستقلٌّ له معالمه وحدوده، وتربيته ومخرجاته، ولهذا لا يُغني واحدٌ منها عن الآخر، وفي كلِّ مسارٍ من الأربعة توجد كتبٌ كثيرةٌ ذاتُ قدرٍ، والمقام هنا أضيق من بيان هذا والكلام عليه.

أما إن قصرت الهمة عن ذلك فيمكن اعتماد بعض التفاسير المختصرة كما سيأتي بيانه في موضعه من مطلب الأعمال العقلية من المبحث القادم إن شاء الله تعالى.

الثالث: أن تربي نفسك من خلاله مع الأيام والليالي، فتقرؤه بقراءة وردك اليومي قراءة من يطلب الاستهداء به، وأعظم ميدانٍ للتربية به التهجد، وقريبٌ منه طول الصلاة ولو كانت في النهار.

وكلما نزل بك نازلةٌ أو شكوت داءً.. قصدته أولًا، وبقيت تطلب الدواء في التلاوة، فكلُّ ما تعاني منه كامنٌ فيه، والقرآن لا تتفتق معانيه إلا لمن يعانيه.

فهذا الكتاب هو أعظم كتب التربية وتزكية الأنفس على الإطلاق، وما عليك إلا أن تستحضر أدواءك وتُفعِّلَ حاسَّةَ اليقظةِ للمعاني، وهو يتولى أخذك من موقعك من السفح ويصل بك إلى القمة كما أخذ الصحابة رضي الله عنهم من قبل حتى صيَّرهم أئمةً للعالمين، ليكونوا خير جيلٍ بشريٍّ على الإطلاق، فهم عمالقة الإسلام ورجاله الكبار.

وأكثر التفاسير التي تركز على هذا المعنى وتتلمسه أثناء التفسير هو تفسير الظلال، ولو قصرت همتك عن قراءته لطوله.. فاقرأ المقدمة وتفسير سورتي الفاتحة والبقرة، وتفسير آيات غزوة أحد من سورة آل عمران، والتي تبدأ من الآية (١٢١) حتى الآية (١٧٩).

فالقرآن كتاب تخليةٍ وتحلية، وتزكية وتربية، يبني الإيمان ويعافي من الآلام، ويفتح باب الآمال، فهو مثلًا الذي قرر خطأ الصحابة رضي الله عنهم بعد الذي كان منهم يوم أُحُد، وهو الذي عاتبهم وتولى تربيتهم، وأجاب عن الشُّبَه التي عرضت لهم، ثم هو الذي سكَّن آلامهم وفتح لهم باب الأمل والعمل وقال لهم في خطابٍ مباشر: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، كلُّ ذلك في سياقٍ واحدٍ في سورةٍ واحدة!

ثالثًا: الذكر:

الذكر هنا يراد به معنيان: التسبيح ونحوه من التحميد والتكبير والتهليل وغير ذلك من الأذكار المأثورة، وما هو قسيم النسيان.

فإذا قصَّر الإنسان في طاعةٍ أو اقترف معصيةً ذكر الله وتذكره فعاد إليه وأناب، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٥، ١٣٦].

والمعنى: والذين إذا فعلوا فاحشةً متناهيةً في القبح أو ظلموا أنفسهم بأي نوعٍ من أنواع الذنوب تذكروا حقَّ الله عليهم، ونهيَهُ عما أقدموا عليه، ووعيدَهُ على ما أتوا من المعصية فاستغفروا لذنوبهم[1].

والتسبيح منه المقيد والمطلق، وليس له هيئةٌ ليكثر كما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٩١].

والشريعة قد خففت في أمر النوافل لتكثر؛ لأنَّها من جوالب الصلاح للإنسان، ولهذا جاز القعود في صلاة النافلة مع القدرة على القيام، وجازت صلاة النافلة في السفر على الراحلة ولو كان المسير لغير جهة القبلة وغير ذلك، وجاز صومُ النَّافلةِ مع عدم تبييتِ النيَّةِ من الليل اكتفاءً بانعقادها قبل الزوال ما دام ممسكًا من الفجر وغير ذلك.

ومن الملاحظ أنَّ اعتناءَ السَّلَفِ بالذكر ليس كاعتناء الخَلَفِ، لا من حيثُ المواظبةُ عليه فحسب؛ بل من جهة النظرة القلبية لِقَدْرِهِ وقيمته أيضًا، فاليوم كثيرًا ما يُنظَرُ للذِّكْر بنظرةٍ أقل، وربما حصره بعض الوعاظ في أنه بوابةُ أجر، ولو بمفهوم الكلامِ لا بمنطوقه، مع أنَّ دورَهُ في بناء الإيمان وصناعة القلوب حاضرٌ في الشريعة وظاهر.

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ٢١٩-٢٢٣)، تفسير الوسيط لسيد طنطاوي (٢/ ٢٦٤-٢٦٥).

ومن العجيبِ الذي يشدُّ أذهانَ العقلاء أنَّ هناك شبهَ إجماعٍ بين العلماء على أنَّ الذِّكْرَ أفضلُ عبادات الإسلام بعد الفرائض كما ذكر **ابن تيمية**[1].

بل فُضِّل على إنفاق الذهب والفضة والجهاد في سبيل الله؛ فقد أخرج الإمامانِ **الترمذيُّ وابنُ ماجه** عَنْ **أَبِي الدَّرْدَاءِ** رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَرْضَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَمِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ**»؟ قَالُوا: وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**ذِكْرُ اللهِ**»[2].

وخليلُ الله **إبراهيم** عليه السلام حين لقي نبينا ﷺ ليلة المعراج لم يقدم له خلاصاتٍ دعويَّةً في فقه التعامل مع الكفار بحكم الخبرة الطويلة في التعامل معهم، ولم يحدثه عمَّا ينبغي التعامل معه إزاء الهجرة بحكم أنه هاجر من العراق إلى فلسطين، والنبيُّ ﷺ يشق طريقه في هذه المرحلة من الدعوة للهجرة، وهو مشتغلٌ بالبحث عن بقعة تحتضن الدولة الإسلامية المرتقبة ومن ثم أخذ يعرض نفسه على القبائل؛ وإنما ذهب **إبراهيم** عليه السلام إلى غاية الغايات وهي العبادة والذكر.

روى **الترمذي** في سننه عَنْ **ابْنِ مَسْعُودٍ** رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ عَذْبَةُ الْمَاءِ وَأَنَّهَا قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا: سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ**»[3] حسنه الألباني.

ولعلَّ من سرِّ هذا التفضيل للذِّكر أنه يجعل المؤمن مستحضرًا لربه وعظمته وجلاله، وهذا من أجل صور العبادة ومقاصدها.

ومشاركةُ الذِّكرِ في مشروع صناعة الإيمان وبنائه في القلب تحتاج إلى استحضار الذَّاكر لمعاني الذكر وتفاعله معها؛ فإنَّها هي التي تشق طريقها إلى القلب فتعمل فيه عملَها.

---

(١) الزهد والورع والعبادة لابن تيمية ص (٩٢-٩٣)؛ مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٦٠-٦٦١).
(٢) سنن الترمذي، رقم الحديث: (٣٣٧٧)، سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٣٧٩٠).
(٣) سنن الترمذي، رقم الحديث: (٣٤٦٢).

ومع أنَّ الاستحضارَ الدَّائمَ للمعاني شيءٌ صعب لتقلب الحال إلا أنَّه مما ينبغي أن يحرص عليه المتعبد غاية الوسع، وتدبُّرُ الأذكار سُنَّة، قال الإمام الشِّربيني: ويُسنُّ تدبرُ الذكر قياسًا على القراءة[1].

وأتركك مع الإمام **ابن الجوزي** يصور لك حال التذوق لطعم التسبيح الذي يبني الإيمان، يقول ﷺ: تأمَّلْتُ على أكثر النَّاس عباداتهم فإذا هي عادات، فأما أرباب اليقظة فعاداتهم عبادةٌ حقيقية؛ فإنَّ الغافلَ يقول: «سبحان الله» عادة، والمتيقظ لا يزال فكره في عجائب المخلوقات، أو في عظمة الخالق، فيحركه الفكر في ذلك فيقول: سبحان الله.

ولو أنَّ إنسانًا تفكَّر في رُمَّانة، فنظر في تصفيفِ حَبِّهَا، وحفظِهِ بالأغشية لئلا يتضاءل، وإقامة الماء على عظم العجم، وجعل الغشاء عليه يحفظه، وتصوير الفرخ في بطن البيضة، والآدمي في حشا الأم، إلى غير ذلك من المخلوقات.. أزعجه هذا الفكر ودفعه إلى تعظيم الخالق، فقال: سبحان الله! فهذا تسبيح المتيقظين، وما تزال أفكارهم تجول فتقع عباداتهم بالتسبيحات محققة.

وكذلك يتفكرون في قبائحِ ذنوبٍ قد تقدَّمت، فيوجب ذلك قلق القلب، وندم النفس، فيثمر أن يقول قائلهم: أستغفر الله، فهذا هو التسبيح والاستغفار، فأما الغافلون فيقولون ذلك عادة، وشتَّانَ ما بين الفريقين[2].

رابعًا: الصلاة:

الصلاة هي مجمع العبادات؛ ففيها التلاوة والتدبر والتسبيح والدعاء والركوع والسجود، فضلًا عما يتقدمها من طهارةٍ ووضوءٍ واستعدادٍ نفسي، وما يقارنها من قصدٍ لبيت الله تعالى ولقاء جماعة المسلمين وضبطٍ للمواعيد، وما يعقبها من أذكار وتسابيح.

هذا فضلًا عمَّا يتخلل ذلك كله من تعظيم الله وإجلاله ومحبته ورجاء رحمته والخشية من عذابه والإنابة إليه وغير ذلك من أعمال القلوب التي هي الوقود لأعمال الجوارح.

---

(١) مغني المحتاج (١/ ١٨١).
(٢) صيد الخاطر ص (١٣٣-١٣٤).

والصلاة هي العبادة الوحيدة التي يقف فيها العبد في الدنيا بين يدي ربه، ولا يزال يصلي ويسجد حتى يدنيه الله منه ويقربه إليه كما قال سبحانه: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩].

وكان النبيُّ ﷺ إذا آذاه قومه قال: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون، بينما حين شغله الكفار عن الصلاة يوم الأحزاب تغيرت لهجته واشتدَّت؛ روى **مسلم** في صحيحه عَنْ **عَلِيٍّ** رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ الأَحْزَابِ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَلأَ اللهُ قُبُورَهُمْ وَبُيُوتَهُمْ نَارًا كَمَا حَبَسُونَا وَشَغَلُونَا عَنِ الصَّلاَةِ الْوُسْطَى حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ**»(١).

وكلُّ عبادةٍ فُرِضَتْ في الأرض بواسطة **جبريل** عليه السلام إلا الصلاة؛ إذ استقدم الله نبيَّه ﷺ إلى السماء وفرضت عليه وعلى أمته، وذلك ليلة الإسراء والمعراج كرامة الله لنبيه ﷺ.

وأول فَرِضِها أنها فُرِضَت خمسين صلاة ثم جاء التخفيف إلى خمس، وفي العدد الأول دليل على أنَّ الإكثارَ منها من محبوبات الله تعالى، فيبقى الاجتهاد فيه مطلوبًا شرعًا.

ولهذا لا غرابة ولا عجبَ حين نقول: إنَّ الصَّلاةَ لا يعدلها شيءٌ في الإسلام بعد التوحيد؛ روى الطبراني في معجمه الأوسط عن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**الصَّلاةُ خيرُ موضوعٍ، فمن استطاع أن يَسْتكثِر فليستكثر**»(٢) حسنه الألباني.

وقوله: «**خير موضوع**»؛ أي خير عمل وضعه الله تعالى لعباده ليتقربوا به إليه(٣).

ويُعتنى بالصَّلاةِ من ستِّ جهات: إقامة الفريضة، وشهود الجماعة في المسجد مع التبكير لها، وترطيب اللسان بالأذكار والأدعية الواردة فيها، والمحافظة على السنن الرواتب، وما تيسَّر من النوافل كالضحى وقيام الليل، والخشوع في الصلاة أيًّا كان نوعها.

خامسًا: التفكر:

التفكر هو عملية التفاعل العقلي والقلبي مع القرآن المسطور والكون المنظور، على

---

(١) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٤٥١).
(٢) المعجم الأوسط، رقم الحديث: (٢٤٣).
(٣) تحفة الأحوذي للمباركفوري (٨/ ١٨٤)، دليل الفالحين لابن علان (٢/ ٤٥٠).

صعيد الأنفس والآفاق، بما يشمل حركة الذات والمجتمعات والدول والأمم على اختلاف الزمان والمكان خلال رحلة البشرية على امتداد تاريخها الطويل.

فالتفكر هو المسؤول عن التقاط المعاني على وجهها، وتصور المشاعر على حالها، ومن ثم فهو الذي يثمر التذوق الإيماني والإنتاج المعرفي وراحة النفس وسكينتها.

فما يدور في العقل والقلب من تقلباتٍ هو بمثابة مصنع الأفكار والمفاهيم والمعارف، والأذواق واللذائذ الروحية، وهذا هو بيت القصيد فيما نحن فيه.

والذي يدخل هذا المصنع يستشعر شعورًا يشبه شعور الحس أنَّه يزداد إيمانًا مع كلِّ جولةٍ من التفكر، ورحلةٍ من التدبر، وما أسعد تلك اللحظات التي يفتح الله فيها على العبد بتقرير مفهومٍ جديدٍ أو حل إشكال أو معالجةٍ لأزمةٍ في النفس أو الواقع وما إلى ذلك!

ولو جئنا إلى النصوص فسنرى شعورًا قلبيًّا عجيبًا عند الحديث عن واحة التفكر ومخرجاته التي تسكب الإيمان في القلب واليقين في النفس.

متِّع نفسك وعِظْها مثلًا بما أخرج **ابنُ حبان** في صحيحه من حديث **عبيد بن عمير** رضي الله عنه أنه قال **لعائشة** رضي الله عنها: أخبرينا بأعجب شيءٍ رأيتِهِ من رسول الله ﷺ قال: فسكتتْ، ثم قالت: لما كان ليلة من الليالي قال: **«يا عائشة ذريني أتعبدِ الليلةَ لربي»!**

قلت: والله إني لأحبُّ قربك، وأحبُّ ما سرَّك، قالت: فقام فتطهر، ثم قام يصلي.

قالت: فلم يزل يبكي حتى بلَّ حِجْرَهُ، قالت: ثم بكى، فلم يزل يبكي حتى بلَّ لحيته، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بلَّ الأرض، فجاء بلالٌ يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله لم تبكي، وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر؟!

قال: **«أفلا أكون عبدًا شكورًا، لقد نزلت علي الليلة آية، ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها:** ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ..﴾ الآية كلُّها [آل عمران: ١٩٠]»[1] حسَّنه الألباني.

(١) صحيح ابن حبان، رقم الحديث: (٦٢٠).

وتتمة الآية وما بعدها: ﴿........ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

ولعلك الآن شققت طريقًا لتفسير ما ورد عن السلف من أقوالٍ في التفكر يتوهَّم بادي الرأي أنَّ فيها شيئًا من المبالغة؛ كقول **ابن عباس** رضي الله عنهما: «ركعتانِ مقتصدتانِ في تفكرٍ خيرٌ من قيامِ ليلةٍ والقلبُ ساهٍ»[1].

وجاء عن **أبي الدَّرداء** رضي الله عنه أنه قال: «تَفَكُّرُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ»، وجاء مثله عن الحسن، وحين قيل **لأم الدرداء**: مَا كَانَ أَفْضَلَ عَمَلِ أَبِي الدَّرْدَاءِ؟ قَالَتْ: التَّفَكُّرُ[2].

مجالات التفكر:

سعيًا لئلا يكون التنظير للتفكر كلامًا عامًّا فإني أسوق جملةً من المسارات التي تعين المتعبد على الاغتراف من هذه الواحة العظيمة عدَّتها تسعة كما يلي:

الأول: التفكر في آيات القرآن الكريم: ويكون ذلك من خلال تلاوة القرآن بتدبر، فإنَّ القلب يتبع حركة التفكر في معاني الآيات.

الثاني: التفكر في آيات الله الكونية: من مثل البر والبحر والفلك التي تجري فيه والسماوات والأرض والنفس والإنسان، ومشاهدة ما وصل إليه العلم الحديث من مكتشفات تبرز جانب العظمة الإلهية إلى غير ذلك.

وهذا النوع يثمر تعظيم الله تعالى واليقين بما نزل من الوحي واستشعار فضل الله على العباد وحلمه بهم ورحمته لهم.

الثالث: التفكر في نعم الله: فيبدأ الإنسان باستعراض أصناف النعم التي منَّ الله بها عليه، وكلما توغل في هذا المسار بدأت تحيطه سحائب الحياء من الله كيف سخط مرة أو

(١) ذكر هذا القول عدد من العلماء كالبغوي في شرح السنة (٣/ ٢٦١)، وابن كثير في تفسيره (٢/ ١٨٥).
(٢) مصنف ابن أبي شيبة، رقم الآثار الواردة: (٣٥٧٢٨) (٣٥٧٢٩) (٣٦٣٧١).

شك في حكمته مرة!

ولو أنه فتح باب المقارنة بين عدد النعم وعدد أنواع البلاء.. فما أحسبه ينهي المقارنة إلا وعينه تجهش بالبكاء لسطوة ما يجد من المشاعر الضاغطة عليه.

ويتولد عن هذا النوع من التفكر زيادةُ المحبَّةِ لله تعالى والرضا بأقداره والحياء منه.

الرابع: التفكر في آيات الوعد: ويتولد عن هذا النوع زيادة الرغبة في العمل، إذ الغالب أنَّ من عرف أجور الأعمال هانت عليه في كلِّ الأحوال.

الخامس: التفكر في آيات الوعيد: ويتولد عن هذا النوع الرهبةُ من المعصية، ولو عصى فإنه سيكون أقرب للتوبة عن قريب، مع الشعور بحالةٍ من الانكسار بين يدي الله تعالى، فإنَّ عواقب الذنوب تُخشِّع القلوب.

السادس: التفكر في تقصير النفس عن الطاعة: ويتولد عنه الحياء من الله تعالى.

السابع: التفكر في آيات الله السُّنَنية: وهي المعروفة بفقه السنن، فتتفكر مثلًا:

كيف ارتفع فلان وذل فلان!

كيف اغتنى من كان فقيرًا وافتقر من كان غنيًّا!

كيف قعد في الفراش وصار يحتاج غيره من كان يصول ويجول!

وكلما تفاعل مع هذا النوع زاد إيمانًا، حتى إنَّ ما يكون مظنةَ تشويشِ الصَّدرِ ونزول الهم والغم؛ كإساءة الجيران أو المشاكل مع الأقارب والأرحام والإخوان مع سلامته هو من الوقوع في أذية غيره.. فإنَّه قد يكون سببًا لتماسك إيمانه، وذلك حين يستحضر النصوص التي تقرر أنَّ الابتلاء قد لا يكون في صحةٍ أو في مال؛ بل في العلاقات الاجتماعية كما في قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

فعند ذلك يحسن التعامل، ويفقه عن الله تعالى سُنَنَه.

ومما يعين على هذا النوع: زيارة المقابر والمشافي، والتفكر في أحوال الناس والتقلبات

التي تجري عليهم، وحذار من التقصير في هذا المسار الفكري؛ فإنَّ نتائجه على النفس عظيمةٌ جدًّا.

وإذا جاء القرآن يأمر الكفار إبان الجيل الأول أن يرتحلوا من أجل العبرة كما في قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [غافر: ٢١] فمن باب أولى أن يتحرك الإنسان قليلًا في المجتمع ليعتبر ويتعظ، فهذا يدب الحياة في قلبه حتى ينتظم أمره بما لا يخطر له ببال.

الثامن: التفكر في أحوال الأمة وهمومها وقضاياها الكبرى: فإنَّ الإنسان كلما علت اهتماماته زاد فهمًا وبصيرةً وعادت همومه الشخصية إلى حجمها الذي تستحقه من غير تهويلٍ ولا تضخيم.

وهذا من شأنه أن يجعله أكثر فهمًا لآيات القرآن التي تتناول الأمم السابقة ومصائرها، وأكثر انتظامًا في أداء الواجبات العامة للأمة الإسلامية، فيعود أكثر تعبدًا ودعوةً وجهادًا فيما يفتحه الله له وييسره من ثغور، فينتهي أمره ليس إلى بناء الإيمان وزيادته فحسب؛ بل إلى توالي جرعات الإيمان العملي والانتظام في مخرجاته العالية، بحيث يصبح الإيمان جزءًا من شخصيته، يتأسى بالصحابة رضي الله عنهم الذين تخلل الإسلام في شخصياتهم حتى صار جزءًا منها.

فهذا **عمار بن ياسر** رضي الله عنه من المسلمين الأوائل حين سُئل عنه **علي بن أبي طالب** رضي الله عنه قال فيه: «**ذاك امرؤ خلط الله الإيمان بلحمه ودمه وعظمه وشعره وبشره، لا يفارق الحق ساعة، حيث زالَ زال معه، لا ينبغي للنار أن تأكل منه شيئًا**»[1].

التاسع: التفكر في معاني أسماء الله الحسنى: فهذا المسار يُعَرِّفُهُ على الله فيزداد تعظيمًا له وإجلالًا وخشيةً ومحبةً، ويفتح له بابًا عمليًّا من فقه السنن؛ فإنَّ الأسماءَ الحسنى والصفات العلا تُظهر طريقة معاملة الله للبشر، وحين تنزيلها على النفس والمجتمع يزداد العبد بصيرةً بما ينبغي له فعله، فيقوم بحق العبودية أحسن قيام.

(١) إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة للبوصيري، رقم الأثر: (٦٦٨١) ضعفه الألباني.

ويمكن القول: إنَّ ما يُعرِّفُ الإنسانَ على ربه كثير، لكن أبرز الطرق التي تُعرِّفه عليه أربع: آيات الله القرآنية، وآياته الكونية، وآياته السننية، وأسماؤه الحسنى وصفاته العلا.

بقيت الإشارة إلى أنَّ من منافع التفكر: الفوزَ بصفاء الذهن، والنجاةَ من التشتت، فضلًا عما يصل إليه المتفكر من هدايةٍ للحق وإنتاجٍ معرفيٍّ كريم وغير ذلك مما يشق تتبعه.

سادسًا: اقرأ باسم ربك:

تقدَّم أنَّ الأمرَ بالقراءة يمكن عدُّه أولَ فرضٍ فَرَضَهُ الله على الأمة؛ وذلك أخذًا من أول ما نزل من القرآن قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١ - ٥].

وجاءت الإشارة للعلم وآلته في هذه الآيات الخمس ست مرات.

فالقراءةُ مفتاحٌ لكلِّ فضيلة، وجاء الإسلام ليبني نفوس العرب بناءً إيمانيًّا محكمًا ليكونوا خير جيلٍ بشريٍّ، ليكونوا من بعد ذلك شاهدين على رسالة الله في الناس، ويتسلسل الأمر بالإسلام من بعدهم جيلًا بعد جيل، وها هو قد وصلنا الإسلامُ غضًّا طريًّا فكنا بعد هذه القرون المتطاولة من المسلمين الموحدين بفضل الله رب العالمين.

ولما كان بدء أمر بناء نفوس العرب بالإيمان مفتاحه: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ فقد دل ذلك على مركزية القراءة في بناء الإيمان.

وعلى هذا؛ فإنَّ من فقه المتعبد أن يحرص على القراءة ولو بجُرعةٍ قليلةٍ لكنها ثابتة؛ فالقراءة تخليةٌ تعالج ما أصاب إيمانه وسلوكه من آفات، وتحليةٌ تأخذ به إلى التربية والكمالات.

فإن قلت: ماذا أقرأ؟

فالجواب: القراءة هنا تقصد لبناء الإيمان وتحصين الإنسان من الآفات، ومن ثم تتركز في المساحة التربوية، وأقترح لذلك ما يلي:

أولًا: قراءة القرآن الكريم قراءة تدبرية، والقراءة في كتب السنة لا سيما الكتب المفردة التي اعتنت بالثغر التربوي مثل كتاب: «رياض الصالحين».

ثانيًا: القراءة في كتب شرح أسماء الله الحسنى؛ ككتاب «فقه الأسماء الحسنى» للشيخ **عبد الرزاق البدر** وفقه الله، وكتاب «ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها» للشيخ **عبد العزيز الجليل** وفقه الله، و«موسوعة أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى» للشيخ **محمد راتب النابلسي** وفقه الله، وهذا متوفرٌ مكتوبًا وصوتيًّا ومرئيًّا، وهناك شرحٌ صوتيٌّ جيد للأسماء الحسنى للشيخ **فوزي السعيد** رحمه الله.

ثالثًا: القراءة في كتب التزكية: ويتقدمها هذان الكتابان: مدارج السالكين **لابن القيم**، وإحياء علوم الدين **للغزالي**، ويمكن أن يكتفي المتعبدُ بقراءة تهذيب المدارج للشيخ **عبد المنعم صالح العزي** وفقه الله، ويقع في مجلدٍ واحد، وقراءة «المهذَّب من إحياء علوم الدين» للشيخ **صالح الشامي** فرَّج الله كربه، ويقع في مجلدين.

ومن الكتب التي تذكر بعد ذلك: رسالة العبودية ورسالة في أمراض القلوب وشفائها كلتاهما **لابن تيمية**، والمستخلص في تزكية الأنفس للشيخ **سعيد حوى** رحمه الله، والترياق للشيخ **أديب الصانع** وفقه الله[1].

رابعًا: القراءة في الكتابات التي تركز على رفع الهمة وبث الحيوية في النفوس، ومن ذلك كتاب «الخطة البراقة لذي النفس التواقة» للشيخ الدكتور **صلاح الخالدي** رحمه الله، وكتاب لي يخدم في هذه المساحة وما قاربها اسمه: «فقه الاستدراك.. كيف تصحح المسير وتستدرك ما فات من العمر الطويل في زمنٍ قصير».

خامسًا: الاستماع للدروس والمواعظ: وهي كثيرة، ومما أنصح به: الاستماع لشرح مدارج السالكين للشيخ **محمد سيد حاج** رحمه الله، فإنه عرضها بطرحٍ جيدٍ على وجهٍ مختصر، وشرح أسماء الله الحسنى للشيخ **محمد راتب النابلسي** وفقه الله، وشرح تائية الإلبيري للشيخ **سعيد الكملي** وفقه الله.

(١) بسطت القول في الكتب المقترحة في علم تزكية النفس في كتاب معارج العلوم، وبلغت نحوًا من ٣٣ كتابًا، وسأذكر طرفًا من ذلك في مطلب الأعمال العقلية من المبحث القادم إن شاء الله.

ومن المشايخ الذين يستفاد منهم في المسار الوعظي: الشيخ **عبد الرحيم الطحان**، والشيخ **محمد بن محمد المختار الشنقيطي** وفقه الله تعالى.

سادسًا: القراءة في كتب التراجم وسير الصالحين وأدب السجون، ومن ذلك: كتاب «سير أعلام النبلاء» للإمام **الذهبي**، وكتاب «هكذا فلتكن الهمم» لأخي الشيخ **إبراهيم حسن الأسطل** وفقه الله، وهو من إصدار دار القلم، وكتاب «البلاء الشديد والميلاد الجديد» للشيخ **فايز الكندري** وفقه الله، وهذا نافع في غير صعيد.

والقراءة في هذا الاتجاه تصنع حالةً من الاغتسال الثقافي والروحي، بحيث تصبح النفس مستعدةً للكمالات، وتخرج مما هي عليه من حالةٍ ملطَّخةٍ بآثار الغفلة والمعصية.

ولا يستغني طالبُ العلم عن القراءة في هذه الناحية مهما بلغ، بل من فقه المشتغل بالعلم ولو صار عالمًا راسخًا في العلم أن يعتني بعلم التزكية، ويبقى ينظر في كتبه، بما يرجع عليه ببناء الإيمان والتوقي من الآفات؛ لما علمت من مركزية تزكية النفس في التصور الإسلامي كما مرَّ في صدر الكتاب، ولأنَّ العوارض على القلب كثيرة، ولا ينجو منها أحد.

بل إنَّ حاجةَ العالِم إلى ذلك أشد؛ لأنَّ العوارضَ في حقِّه أكثر عددًا وأشد خطرًا، ولأن عواقب الضعف في هذا الجانب وخيمة عليه وعلى من يأخذ عنه.

وبعد سرد هذه الأعمدة الستة التي جاء اختيارها عقب تأملٍ طويل أقول:

متى نزل بك شيءٌ من التَّهَتُّكِ النفسي وشعرت بهبوط مفاجئ في الصحة الإيمانية القلبية وأنَّ إيمانك آخذٌ في الضعف أو التهتك أو الانهيار.. فأنقذ نفسك بالدخول فيما تيسَّر لك من هذه الأعمدة أو ما فتح الله لك.

ومما لا ينبغي أن يخفى عليك أنَّ التهجد هو المكان الذي تلتقي فيه هذه الأعمدة جميعًا!؛ ففيه تلاوة القرآن والذكر والصلاة والتفكر والاستعانة بالله، لا سيما تلك المواطأة بين حركة القلب وحركة اللسان كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦]. قال **مجاهد**: ﴿أَشَدُّ وَطۡـٔٗا﴾: أي أن تُواطئ قلبك وسمعك وبصرك[1].

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ٦٨٥) وانظر فيه بقية الأقوال وما قيل في تأويل الآية.

وقد مرَّ بنا أنَّ التهجد تجتمع فيه قوانين المجاهدة الثلاثة: مخالفة الهوى، والتحكم في الشهوات المباحة، والدوام على محبوبات الله على ما مرَّ بيانه.

فالتهجد إذن هو الباني للإيمان المتحكم بالنفس.

ولو عدت إلى الوراء حيث مطلع الكتاب عند الكلام عن «**مركزية تزكية النفس**» وما تقرر هناك من أنَّ التزكية يمكن ردها إلى معنيين: التطهير والإصلاح، والتنمية والزيادة[1].. علمت المركزية التربوية الهائلة للتهجد في التصور الإسلامي؛ لأنَّ اجتماع قوانين مجاهدة النفس فيه يقف بمعنى التطهير والإصلاح وهو المعنى الأول للتزكية، واجتماع أعمدة بناء الإيمان يقف بمعنى التنمية والزيادة وهو المعنى الثاني للتزكية.

فالتهجد إذن عبادةٌ متكاملةٌ تجمع جميع وسائل التزكية، ولهذا يمكن القول باطمئنان:

إنَّ التهجدَ هو أعظمُ عملٍ تربويٍّ في الشريعة، ويُرجى لمن لزمه ألا يتيه في أودية الفتن، فضلًا عما فيه من تربيةٍ على الكمالات، وتخفيفٍ من ثقل التكاليف، وتصفيةٍ للذهن، وإبعادٍ عن العلائق والمشتتات، وانسجامٍ مع قاعدة التربية التي تعظ بأن تكون التربيةُ في خفاءٍ وهدوءٍ بعيدًا عن الظهور والضجيج، إلى غير ذلك.

ولعلَّك الآن أدركت لم أُمِرَ الصَّحابة رضي الله عنهم بالتهجد من أول يومٍ في البَعثة بينما تأخرت فرضية الصلوات الخمس لليلة الإسراء.

ومعنى ذلك: أنَّ التهجد جاء الأمر به قبل أن تُفرض الصلوات الخمس وقبل أن تشرع الشرائع وتحد الحدود؛ وذلك أنَّ الجيلَ الأولَ كان يُراد له أن يكون جيل التأسيس، ومن ثم تربى بين يدي الله في جنح الظلام والناس نيام، ثم هو الذي تولى نشر الإسلام في أرجاء الأرض بين الأنام.

وما تقرر هو الذي يُفسِّر لنا العناية النبوية الهائلة بقيام الليل:

ففي أول خطابٍ سياسيٍّ للنبيِّ ﷺ في المدينة كان قيام الليل حاضرًا في كلامه.

---

(١) تهذيب اللغة للأزهري (١٠/ ٣١٩)، المحيط في اللغة لابن عباد (٢/ ٥٩)، المعجم الوسيط لإبراهيم مصطفى وآخرين (١/ ٣٩٦).

روى **الترمذي وابن ماجه** عَنْ **عَبْدِ الله بْنِ سَلَامٍ** رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ الْمَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ[1] وَقِيلَ: قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ، فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لِأَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا اسْتَثْبَتُّ وَجْهَ رَسُولِ الله ﷺ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ وَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: «**أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ**»[2] صححه الألباني.

وجعله محلًّا للوصية لمن استوصاه؛ روى الإمام **أحمد** في مسنده عَن **أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه أنه قال **للنبيِّ** ﷺ: يَا رَسُولَ الله أَنْبِئْنِي عَن أَمْرٍ إِذَا أَخَذْتُ بِهِ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ، قَالَ: «**أَفْشِ السَّلَامَ وَأَطْعِمِ الطَّعَامَ وَصِلِ الْأَرْحَامَ وَقُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ ثُمَّ ادْخُلِ الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ**»[3] صححه شعيب الأرنؤوط.

وأوصى الأزواج أن يتعاونوا فيما بينهم عليه؛ روى **النسائي** عَنْ **أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**رَحِمَ الله رَجُلًا قَامَ مِنْ اللَّيْلِ فَصَلَّى ثُمَّ أَيْقَظَ امْرَأَتَهُ فَصَلَّتْ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ، وَرَحِمَ الله امْرَأَةً قَامَتْ مِنْ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ ثُمَّ أَيْقَظَتْ زَوْجَهَا فَصَلَّى، فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ**»[4] صححه الألباني.

وكان يتفقد أهله فيه؛ روى **البخاري ومسلمٌ** عن **علي بن أبي طالب** رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ طَرَقَهُ **وَفَاطِمَةَ** بِنْتَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَام لَيْلَةً فَقَالَ: «**أَلَا تُصَلِّيَانِ**»!

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله أَنْفُسُنَا بِيَدِ الله فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا.

فَانْصَرَفَ حِينَ قُلْنَا ذَلِكَ وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُوَلٍّ يَضْرِبُ فَخِذَهُ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿**وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا**﴾»[5].

وكان يتعهد أصحابه به كل ليلة!

---

(١) أي: ذهبوا مسرعين إليه. انظر: تحفة الأحوذي للمباركفوري (٧/ ١٥٨).
(٢) سنن الترمذي، رقم الحديث: (٢٤٨٥)، سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (١٣٣٤).
(٣) مسند أحمد، رقم الحديث: (٧٩١٩).
(٤) سنن النسائي، رقم الحديث: (١٦٠٩).
(٥) صحيح البخاري، رقم الحديث: (١١٢٧)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٨٥٤) واللفظ للبخاري.

روى **الترمذي** عن **أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ** رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا ذَهَبَ ثُلُثَا اللَّيْلِ قَامَ فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا اللهَ، اذْكُرُوا اللهَ؛ جَاءَتْ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ**»[(١)] حسنه الألباني.

ونبَّه على أهميته في حفظ الإنسان من الفتن؛ روى **البخاري** في صحيحه عَنْ **أُمِّ سَلَمَةَ** رضي الله عنها قَالَتْ: اسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ اللَّيْلِ وَهُوَ يَقُولُ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنْ الْفِتْنَةِ مَاذَا أُنْزِلَ مِنْ الْخَزَائِنِ مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الْحُجُرَاتِ**»![(٢)].

قال **ابن بطَّال** في شرح الحديث: قال النبيُّ ﷺ ذلك لما أعلمه الله من الوحي أنه يفتح على أمته من الغنى والخزائن، وعرَّفه أنَّ الفتن مقرونةٌ بها مخوفة على من فُتِحت عليه.

وقوله: «**من يوقظ صواحب الحجرات**»؛ أي من يوقظهن للصلاة بالليل يريد أزواجه، وهذا يدل على أنَّ الصلاة تنجي من شرِّ الفتن ويُعتصم بها[(٣)].

ولعل هذه المركزية لقيام الليل كانت هي الباعث على اتساع وقته، فإذا شقَّ على الإنسان أن يتهجد من الليل عقب استيقاظه من النوم أمكن أن يقوم من الليل قبل أن ينام، فإذا فاته ورده من الليل صلاه من النهار؛ لما روى **مسلم** عَنْ **عَائِشَةَ** رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا فَاتَتْهُ الصَّلَاةُ مِنَ اللَّيْلِ مِنْ وَجَعٍ أَوْ غَيْرِهِ صَلَّى مِنَ النَّهَارِ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً»[(٤)].

وجاءت تسمية وقت استدراكه فيما رواه **مسلم** أيضًا من حديث **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَقَرَأَهُ فِيمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الظُّهْرِ كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ**»[(٥)].

---

(١) سنن الترمذي، رقم الحديث: (٢٤٥٧).
(٢) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٥٨٤٤).
(٣) شرح صحيح البخاري (٣/ ١١٦).
(٤) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٧٧٧).
(٥) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٧٧٩).

والحزب: هو ما يجعله الإنسان وظيفةً له من صلاةٍ أو قراءةٍ أو غيرهما، وقال **السيوطي**: هو الجزء من القرآن يُصلَّى به، وقال **العراقي**: هل المراد به صلاة الليل أو قراءة القرآن في صلاة أو غير صلاة؟ يحتمل كلا الأمرين.

وحيث إنَّ الصلاة بعد الفجر منهيٌّ عنها فهناك من قيد عموم هذا الحديث بخصوص الأحاديث المانعة فتكون الصلاة هنا بعد ارتفاع الشمس قيد رمح، وهناك من لم يقيد؛ لأنَّ القضاء متى ذكره الإنسان فعله.

ويعجبني العمل بالقول الأول؛ اتقاءً لشبهة الصلاة في وقت الكراهة.

وعلى كلٍّ؛ فإنَّ الحديث فيه تحريضٌ على المبادرة بجبر ما فات من صلاة الإنسان في الليل لمركزيتها في التكوين الإيماني، وهذا إيذان بتفضل الله تعالى على من غلبه النوم أو قام به عذر منعه من القيام أن يستدرك ما فاته لحسن نيته وصدق تلهفه وتأسفه، فيكون كأنما صلى قيام الليل في وقته[1].

وقبل أن أوقف القلم في هذا المطلب أوفي بما وعدتُّ به من الختام بنصيحتين من مستوى التفاصيل لمن رام بناء إيمانه وسط هذه الأجواء الكَدِرة التي صار عليها أهل العصر:

أما الأولى؛ فنصيحةٌ عامَّةٌ خلاصتها:

أن يكون لك مشروعٌ ضخمٌ يجتمع عليه سعيك وجهدك؛ كدراسة تخصصٍ ما، أو طلب العلم، أو تأليف كتابٍ كبير، أو سلسلةٍ من الكتب، أو غير ذلك بما يجعلك مرتبطًا به بضع سنين، كلما قطعت فيه مرحلةً واصلت للتي بعدها.

والذي أريده من هذه النصيحة: أنَّ الإنسانَ لا بد وأن يقع في التقصير أو الغفلة، فإذا ما اقترن بمشروعٍ فإنَّ أعباءه تحمله على تقليل الأوقات الضائعة، بحيث ما أن يضيع عليه يومٌ أو بعض يوم إلا وتجده متحرقًا لما فاته من سعيه في المشروع الذي يمضي فيه فيعود

(١) تحفة الأحوذي للمباركفوري (٣/ ١٥٠)، حاشية السندي على ابن ماجه (٣/ ١٣٦)، شرح رياض الصالحين لابن عثيمين (١/ ١٧٣-١٧٥).

إليه عن قريب، فتقل أوقات الغفلة والضياع.

ويمكن أن تقرأ «خطبة الكتاب» التي خطَّها الأستاذ الدكتور المحقق **عبد العظيم محمود الديب** رحمه الله مقدمةً افتتاحيةً لتحقيقه لكتاب «**نهاية المطلب في دراية المذهب**» لإمام الحرمين **عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني** رحمه الله؛ فقد ذكر فيها قصة تحقيقه للكتاب وصحبته الطويلة لإمام الحرمين من خلال كتبه، حتى آل به مشروع التحقيق لأن ينقطع له.

ولست أريد من خلال الإحالة على هذه الخطبة -التي تُعَدُّ في نفسها تحفةً- أن تنقطع لمشروعٍ تخطُّ المسار فيه تمام الانقطاع؛ ولكنَّ الحيويَّةَ التي صار عليها الدكتور **عبد العظيم الديب** رحمه الله تعد رزقًا عظيمًا من بركات المشاريع الكبرى، وأنَّه ما كان ليصير إلى ما صار إليه لولا ارتباطه الوثيق بمشروع التحقيق، في كتابٍ يُعَدُّ أحد عُمَد المذهب الشافعي ومراجعه الكبار، والذي خرج في عشرين مجلدًا.

وأما الأخرى؛ فنصيحةٌ خاصَّةٌ وخلاصتها:

إذا نزلت بك حالةٌ من التشظي النفسي ولم تستطع أن تخرج مما أنت فيه.. فغادر البيئة التي أنت فيها فورًا، وخذ قرارًا شجاعًا بذلك.

وذلك كما لو ذهبت لدورةٍ علميَّةٍ مكثفة، أو وضعت جدولًا لزيارة ثلة من ذوي الخير والصلاح والإنجاز، تتنوع أسماؤهم بين علماء ودعاة وشباب صالحين وأناس ناجحين، أو ذهبت لمسجدٍ واعتكفت فيه اعتكافًا كليًّا أو جزئيًّا، سواء كان هذا في رمضان أو في غيره.

وخيارُ الاعتكاف خيارٌ ميمونٌ كريم؛ فإنك إذا دخلت المسجد وتوطَّنت فيه.. فلا تزال تتوالى عليك الساعات ثم الأيام وأنت في ذكرٍ وتلاوةٍ وصلاةٍ وقراءةٍ وتفكر حتى ينزل عليك غيث السماء، فيهطل في قلبك توفيقًا وسدادًا وخشيةً وبركةً ومغفرة، والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم.

ولـك أن تمتع عينيك بـما أخرج **ابن ماجه** في سننه عَـنْ **أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه عَنْ النَّبِـيِّ ﷺ قَالَ: «مَا تَوَطَّنَ رَجُلٌ مُسْلِمٌ الْمَسَاجِدَ لِلصَّلَاةِ وَالذِّكْرِ إِلَّا تَبَشْبَشَ اللهُ لَهُ كَمَا يَتَبَشْبَشُ أَهْلُ الْغَائِبِ بِغَائِبِهِمْ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِمْ»[1] صحَّحه الألباني.

قال **المناوي**: قولـه: «لِلصَّلَاةِ وَالذِّكْرِ» ومِثْلُهما الاعتكاف أيضًا، وقوله: «إِلَّا تَبَشْبَشَ اللهُ لَهُ»؛ أيْ أقبل عليه وتلقاه بِبِرِّهِ وإكرامه وإنعامه لوقوع صنيعه الموقعَ الجميلَ عنده[2].

والـذي أريـده مـن هـذه النصيحة: أنَّ الإنسانَ إذا سيطرت عليه مشاعر الغفلة، ولم يعرف من أيِّ جانبٍ أُتِي، أو عرف ولم يعرف كيف يخرج.. صار على نفسيةٍ متهتكة، وقد يتوالى به الأمر بضعة أيام أو بضعة أسابيع أو بضعة أشهر، فلا بد هنا من قرارٍ جريءٍ بوقف هذا النزيف النفسي، وجعل الموضوع مطروحًا على الطاولة بقوةٍ إلى أن ينتهي.

ومن وقف بالباب فلابد أن يفتح له.

والله الموفق وحده



(١) سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٨٠٠).
(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير (٢/ ٦٧٣).





المبحث الثاني
أعمال المتعبد

ما تقرَّرَ في المبحثِ الأول بمثابة القسمِ التأصيليِّ لما تيسَّر استيعابه من علمِ التزكية، وما يتقرر في هذا المبحث بمثابة القسم التنزِيلي؛ إذ الحديثُ فيه عن ذاتِ الأعمالِ التعبدية.

وليس المقامُ مقامَ تقصٍّ للأعمال؛ وإنما إلمامٌ بمهماتها مما لا ينبغي الغفلة عنه في رحلة العبد إلى الله تعالى، وما يُذكَرُ يَدُلُّ على ما لم يُذكر.

ولئلا يضيعَ شيءٌ من الأعمال الأصول رأيت أن تُقسَّمَ الأعمالُ إلى أربعةِ أقسام باعتبار جهتها؛ وذلك إلى أعمالٍ بدنيَّةٍ وقوليَّةٍ وعقلية وقلبيَّةٍ، وأعرض كل قسم في مطلبٍ مستقل.

وقد تتوارد جميعًا على محلٍّ واحد؛ كالصلاة؛ فإنها عملٌ بدني، والخشوع فيها عملٌ قلبي، وتدبر الآيات عملٌ عقلي، وما فيها أو بعدها من أذكار عملٌ قولي، وكالتعامل مع القرآن؛ فتلاوتُهُ عملُ اللسان، وفهمُهُ وتدبُّرُهُ عملُ العقل، والتأثرُ به والتفاعلُ معه عملُ القلب، والعملُ به بامتثال الأوامر واجتناب النواهي عمل الجوارح وغيرها كذلك.

وبين هذه الأعمال قدرٌ كبيرٌ من التكامل والتداخل؛ فطلب العلم يكون بحاستي السمع والبصر وهو عملٌ بدني، ولكن الفهم والتأمل عملٌ عقلي، وحسن الخلق منشؤه الباطن من قلبٍ وعقل لكنه قد يكون قولًا لطيفًا باللسان أو سلوكًا حسنًا بالجوارح والأركان، والصدقة بالمال منشؤها الباطن كذلك لكنها تَخْرُجُ باليد، والحج عملٌ مشتركٌ بين الجوارح والمال وما إلى ذلك.

ورأيتُ أنَّ أتمهَّدَ لذكرها بتأصيلِ عمليٍّ من فعل النبيِّ ﷺ بالكلام عن هديه ﷺ في التعبد؛ إعانةً على فهمها وتنزيلها منزلها المطلوب في الشريعة، فتكون المطالب بذلك خمسة، ودونك البيان:

المطلب الأول

هدي النبي ﷺ في التعبد

أكتب هنا بقدرٍ من التهيب؛ لأنَّ الكلامَ ليس عن هديه ﷺ في عبادةٍ معينة؛ بل عن سياسته في ملف التعبد بمختلف أنواعه وأحواله، وهذا يحتاج إلى استقراءٍ جيِّدٍ لسنته ﷺ، وقد رأيت أن أفتتح القول في هذا الباب، وما يمن الله به فيما بعدُ أُلحِقُهُ بالباب؛ إثراءً وتصويبًا، وزيادةً وتهذيبًا، وبالله التوفيق.

وأنبه أنَّ محل الكلام هنا إنما هو السنة العملية؛ فالقصد أن نرى هديه ﷺ فيما كان يعمل في خاصَّة نفسه، ولا أتوسع في الأمثلة متى اتَّضح المقصود؛ إيثارًا للإيجاز ما أمكن.

وعِدَّة المعالم التي تُبْرِزُ هديَهُ ﷺ فيما وقفت عليه[1] وهُديتُ إليه ثلاثة عشر معلمًا كما يلي:

أولًا: القصد في العبادة:

روى **البخاري ومسلمٌ** عن **أنس بن مَالِكٍ** رضي الله عنه **يَقُولُ**: جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ!

قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا.

وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ.

وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا.

---

(١) من أكثر الكتب التي اعتنت ببيان هديه ﷺ في سائر حياته: كتاب «**زاد المعاد في هدي خير العباد**» لابن القيم، وهناك بحث في نطاق مادة المطلب أفدت منه عنوانه: «**هدي النبي ﷺ في التعبد.. دراسةٌ تأصيليةٌ لأحاديث السنة النبوية**» للدكتور عبده الكد، وهو منشورٌ على الشبكة.

فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: «**أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»(١).

وهذا في الحال المعتاد، ويُستثنى منه المواسم الفاضلة؛ فكان النبيُّ ﷺ يبالغ في الاجتهاد فيها ما لا يجتهد في غيرها، فإذا كان في العادة يصوم ويفطر فإنه كان في التسع الأوائل من ذي الحجة يصوم ولا يفطر.

روى **أبو داود والنسائي** عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ **أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَصُومُ تِسْعًا مِنْ ذِي الْحِجَّةِ..**»(٢) صححه الألباني.

وإذا كان في العادة يصلي ويرقد فإنه كان في العشر الأواخر من رمضان يقوم الليل كله، فلم يكن له فراشٌ بالليل.

أخرج **البخاري** عَنْ **عَائِشَةَ** رضي الله عنها قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ شَدَّ مِئْزَرَهُ، وَأَحْيَا لَيْلَهُ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ»(٣).

قال **النووي**: قولها: «**وأحيا ليله**»؛ أي استغرقه بالسهر في الصلاة وغيرها(٤).

وفي المسند عن **عائشة** رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يخلط العشرين بصلاةٍ ونوم، فإذا كان العشر شمَّر وشدَّ المئزر»(٥).

ويمكن للمتعبد التأسي به لا سيما في فصل الصيف حيث يقصر الليل، فإن طال وشق عليه السهر قام من الليل ما شاء الله له أن يقوم، فإذا غلبته عيناه نام قليلًا واحْتَسَبَ نومَتَهُ كقومته كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله.

---

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٥٠٦٣)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٣٤٦٩) واللفظ للبخاري.
(٢) سنن أبي داود، رقم الحديث: (٢٤٣٩)، سنن النسائي، رقم الحديث: (٢٤١٦) واللفظ للنسائي.
(٣) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٢٠٢٤)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٢٨٤٤) واللفظ للبخاري.
(٤) شرح النووي على مسلم (٨/ ٧١).
(٥) مسند أحمد، رقم الحديث: (٢٥١٣٦)، قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف، قلت: ومعناه حاصلٌ في الحديث الذي قبله.

ثانيًا: المسارعة إلى العبادة:

وهذا هو دأب النبيِّ ﷺ والأنبياء من قبله كما نطقت بذلك سورة الأنبياء؛ إذ بعد الحديث عن جملةٍ من الأنبياء **كموسى وهارون وإبراهيم ولوطٍ ونوح وداود وسليمان وأيوب وإسماعيل وإدريس وذي الكفل ويونس وزكريا** عليهم السلام وما تناولته الآيات من استجابة الله لأدعيتهم عقَّب الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ونبينا ﷺ كان مسارعًا في الخيرات مكثرًا منها حريصًا عليها، ومن ذلك أنه كان يكون في خدمة أهله فإذا حضرت الصلاة ترك كل شيء وخرج للصلاةِ من فوره.

روى **البخاري** في صحيحه عَنْ **الْأَسْوَدِ** قَالَ: سَأَلْتُ **عَائِشَةَ** رضي الله عنها مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ -تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ- فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ»(١).

وقد بوَّب **البخاريُّ** لهذا الحديث بقوله: «بَاب مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَهْلِهِ فَأُقِيمَتْ الصَّلَاةُ فَخَرَجَ».

ثالثًا: الاستعداد للعبادة:

كان النبيُّ ﷺ يعتني بأداء العبادة على أكملِ الوجوهِ وأتمِّها، ولهذا كان يستعد لها بما يشي باستعداده لها استعداد كمالٍ لا مجرد استعداد أداء.

ومن ذلك: أنه كان يتوضأ لكلِّ صلاةٍ مع أنَّ الوضوء يمكن أن يصلي به أكثر من صلاة؛ وذلك لما في تجديد الوضوء من تهيئةٍ نفسيَّةٍ وتعظيمٍ زائد.

روى **البخاري** في صحيحه عن **عمرو بن عامر** عَنْ **أَنَسٍ** رضي الله عنه قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَوَضَّأُ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ، قُلْتُ: كَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ؟ قَالَ: يُجْزِئُ أَحَدَنَا الْوُضُوءُ مَا لَمْ يُحْدِثْ»(٢).

---

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٦٧٦).
(٢) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٢١٤).

وكان يُقدِّمُ الصَّلاةَ بسُنَّةٍ قبليَّةٍ، ولا يخفى ما لها من دورٍ كريم في جمع القلب على حسن الوقوف بين يدي الله تعالى؛ إذ الإنسان عادةً يفكر في صلاته في آخر ما كان مشغولًا به، فإذا بكَّر إلى المسجد وصلَّى السنة القبلية وتلا من القرآن ما تيسَّر له ودخل في الصلاة.. كان هذا أعون على الخشوع فيها وتدبر الآيات فيها.

وكان يبدأ تهجده من الليل بركعتين خفيفتين ثم يطيل؛ روى **مسلمٌ** عَنْ **عَائِشَةَ** رضي الله عنها قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ لِيُصَلِّيَ افْتَتَحَ صَلاتَهُ بِرَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ».

وأمر بذلك؛ فقد روى **مسلم** أيضًا عَنْ **أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ مِنَ اللَّيْلِ فَلْيَفْتَتِحْ صَلاتَهُ بِرَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ**»[1].

والمعنى فيهما: أَنَّهما يُذهِبَانِ ما بالقائم من أثر النوم، فينشط بهما لما بعدهما[2]، فكانتا بذلك من جملة الاستعداد لحسن الصلاة وجودتها وطولها.

ومن نفس المشكاة ما كان يفتتح به النبيُّ ﷺ صلاته من أدعية الافتتاح؛ فإنَّ المتدبر لكلماتها يجدها من أحسن ما يجمع القلب على حسن الوقوف بين يدي الله تعالى.

ومن أمثلة ذلك: ما روى **مسلمٌ** في صحيحه عَنْ **عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ** رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلاةِ قَالَ: «**وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ، اللهمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**[3]**، أَنْتَ رَبِّي، وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا؛ إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ، لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا، لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ**»[4].

---

(١) صحيح مسلم، رقم الحديثين: (١٨٤٢-١٨٤٣).
(٢) شرح النووي على مسلم (٦/ ٥٤)، عون المعبود للعظيم آبادي (٤/ ١٤٤).
(٣) في رواية أبي داود: «لَا إِلَهَ لِي إِلاَّ أَنْتَ» بإضافة «لي». انظر سننه، رقم الحديث: (٧٦٠) وصححه الألباني.
(٤) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٨٤٨).

والاستعداد النفسي للعبادة كان من جملة مواعظ النبيِّ ﷺ للصحابة رضي الله عنهم وترغيبه لهم بذلك؛ روى الشيخان عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

«صَلاَةُ الرَّجُلِ فِي جَمَاعَةٍ تَزِيدُ عَلَى صَلاَتِهِ فِي بَيْتِهِ وَصَلاَتِهِ فِي سُوقِهِ بِضْعًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً. وَذَلِكَ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ لاَ يَنْهَزُهُ إِلاَّ الصَّلاَةُ لاَ يُرِيدُ إِلاَّ الصَّلاَةَ فَلَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إِلاَّ رُفِعَ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ حَتَّى يَدْخُلَ الْمَسْجِدَ. فَإِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ كَانَ فِي الصَّلاَةِ مَا كَانَتِ الصَّلاَةُ هِيَ تَحْبِسُهُ، وَالْمَلاَئِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي صَلَّى فِيهِ يَقُولُونَ: «اللهمَّ ارْحَمْهُ، اللهمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللهمَّ تُبْ عَلَيْهِ، مَا لَمْ يُؤْذِ فِيهِ، مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ»[1][2].

فإنَّ إحسان الوضوء والتبكير للمسجد واستشعار المثوبة على كل خطوةٍ والجلوس لانتظار الصلاة واستشعار دعاء الملائكة له بالرحمة والمغفرة والتوبة.. كلُّ ذلك يجعله أكثر إقبالًا وأحسن أداءً وأشد تعظيمًا وتفاعلًا، فتقع الصلاة أحسن موقع بعون الله وفضله.

وأخذ الصحابة رضي الله عنهم عن النبي ﷺ هذا الأدب؛ فهذا **عديُّ بن حاتم** رضي الله عنه يقول: «مَا جَاءَتِ الصَّلاَةُ قَطُّ إِلاَّ وَأَنَا إِلَيْهَا بِالأَشْوَاقِ، وَلاَ جَاءَتْ قَطُّ إِلاَّ وَأَنَا مُسْتَعِدٌّ»[3].

رابعًا: الاستغفار عقب العبادة:

وكان ﷺ يستغفر عقب العبادة، ومن ذلك: ما روى **مسلمٌ** في صحيحه عَنْ **ثَوْبَانَ** رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلاَتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلاَثًا وَقَالَ: «اللهمَّ أَنْتَ السَّلاَمُ وَمِنْكَ السَّلاَمُ تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ»[4].

---

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٢١١٩، ٤٧٧)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٥٣٨) واللفظ لمسلم.

(٢) فُسِّرَ الحدثُ هنا بتفسيرين: الأول: أنه الريح وهو من مبطلات الوضوء. والثاني: أنه كل سوء يؤذي فيه غيره بقولٍ أو فعل، ويؤيد ما في هذه الرواية من قوله: «ما لم يؤذ فيه». انظر فتح الباري لابن حجر (١/ ٣٣٨). ولعل الأرجح هو الأول؛ لأن حمل اللفظ على التأسيس أولى من حمله على التأكيد.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة، رقم الأثر: (٣٦٤٠٦).

(٤) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٣٦٢).

وتطرَّق **ابن القيم** لحكمة ذلك ثم بيَّن أنَّ هذه السياسة التربوية تفاعلٌ مع تربيةِ القرآن بذلك فقال رحمه الله: وأرباب العزائم والبصائر أشد ما يكونون استغفارًا عقيب الطاعات؛ لشهودهم تقصيرهم فيها وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه، وأنه لولا الأمر لما أقدم أحدهم على مثل هذه العبودية ولا رضيها لسيده.

وقد أمر الله تعالى وفده وحجاج بيته بأن يستغفروه عقيب إفاضتهم من عرفات وهو أَجَلُّ المواقف وأفضلُها فقال سبحانه: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ١٩٨، ١٩٩].

وقال تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨]، قال **الحسن**: مدوا الصلاة إلى السحر ثم جلسوا يستغفرون ربهم.

وأمر الله نبيَّه ﷺ بالاستغفار بعد أداء الرسالة والقيام بما عليه من أعبائها وقضاء فرض الحج واقتراب أجله، فقال في آخر سورة أنزلت عليه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ١ - ٣][1].

فهذا استغفار ليس بعد عبادةٍ بعينها؛ وإنما بعد رحلة التعبد بأسرها، ليختم حياته بالتسبيح والتحميد والاستغفار، ويقضي نحبه على ذلك.

روى **مسلم** في صحيحه عَنْ **عَائِشَةَ** رضي الله عنها قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ: «**سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ**».

قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله مَا هَذِهِ الْكَلِمَاتُ الَّتِي أَرَاكَ أَحْدَثْتَهَا تَقُولُهَا؟

(١) مدارج السالكين (١/ ١٧٥).

قَالَ: «جُعِلَتْ لِي عَلَامَةٌ فِي أُمَّتِي إِذَا رَأَيْتُهَا قُلْتُهَا ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ..» إِلَى آخِرِ السُّورَةِ[١].

خامسًا: رعاية بعض الأوقات والأماكن والأحوال:

وهذا في حياته ﷺ كثيرٌ جدًّا.

ومن رعايته للأوقات: أنه كان ﷺ يتهجد من الليل؛ إذ «أَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ الصَّلَاةُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ»[٢] كما أخبر ﷺ.

وأعظم بواعث الفضل فيه: أنه وقت نزول الرب سبحانه؛ لما روى الشيخان عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»[٣].

ومن ثم كان يعظ الصحابة رضي الله عنهم بذلك؛ روى **الترمذيُّ والنسائيُّ** عن **عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ** رضي الله عنه يَقُولُ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ مِنْ سَاعَةٍ أَقْرَبُ مِنَ الْأُخْرَى أَوْ هَلْ مِنْ سَاعَةٍ يُبْتَغَى ذِكْرُهَا؟

قَالَ: «نَعَمْ؛ إِنَّ أَقْرَبَ مَا يَكُونُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْعَبْدِ جَوْفَ اللَّيْلِ الْآخِرَ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ؛ فَإِنَّ الصَّلَاةَ مَحْضُورَةٌ مَشْهُودَةٌ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ..»[٤] صححه الألباني.

ومن رعايته للأوقات كذلك باعتبار الأسبوع: ما روى **الترمذي** عَنْ **أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «تُعْرَضُ الْأَعْمَالُ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ فَأُحِبُّ أَنْ يُعْرَضَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ»[٥] صححه الألباني.

---

(١) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١١١٤).
(٢) صحيح مسلم، رقم الحديث: (٢٨١٣).
(٣) صحيح البخاري، رقم الحديث: (١١٤٥)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٨٠٨).
(٤) سنن الترمذي، رقم الحديث: (٣٥٧٩)، سنن النسائي، رقم الحديث: (٥٧١) واللفظ للنسائي.
(٥) سنن الترمذي، رقم الحديث: (٧٤٧).

ومن رعايته لها باعتبار العام: أنه كان كثير الصدقة في رمضان، وكثير التلاوة والمدارسة للقرآن فيه مع **جبريل** عليه السلام.

روى **البخاري ومسلم** عَنْ **ابْنِ عَبَّاسٍ** رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ»[(١)].

ومن ذلك أنه كان «إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ شَدَّ مِئْزَرَهُ وَأَحْيَا لَيْلَهُ وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ»[(٢)]؛ أي استغرق ليله بالسهر في الصلاة وغيرها[(٣)] كما تقدَّم.

ومن رعايته للأماكن: أنه كان يجعل من صلاته في البيت؛ إذ إنَّ صلاة النافلة أفضل في البيت كما أنَّ صلاة الجماعة أفضل في المسجد، وكان يحث على ذلك؛ روى **مسلم** عَنِ **ابْنِ عُمَرَ** رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «**اجْعَلُوا مِنْ صَلاتِكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ وَلاَ تَتَّخِذُوهَا قُبُورًا**»[(٤)].

ومن رعايته للحال: ما روى **النسائي** عن **أسامة بن زيد** رضي الله عنهما قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله لَمْ أَرَكَ تَصُومُ شَهْرًا مِنَ الشُّهُورِ مَا تَصُومُ مِنْ شَعْبَانَ قَالَ: «**ذَلِكَ شَهْرٌ يَغْفُلُ النَّاسُ عَنْهُ بَيْنَ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ، وَهُوَ شَهْرٌ تُرْفَعُ فِيهِ الْأَعْمَالُ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ فَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ**»[(٥)] صححه الألباني.

فهذا تصريحٌ بأنَّ الباعث على التعبد أنَّه وقتٌ ترفع فيه الأعمال فيحب أن يرفع عمله وهو على حالة عبادة وأدب، وأنه وقت غفلة؛ وذلك أنه لما اكتنفه شهران عظيمان: الشهر الحرام وشهر الصيام اشتغل الناس بهما فصار مشغولًا عنه، وكثيرٌ من

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٦)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٦١٤٩).
(٢) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٢٠٢٤)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٢٨٤٤) واللفظ للبخاري.
(٣) شرح النووي على مسلم (٨/ ٧١).
(٤) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٨٥٦).
(٥) سنن النسائي، رقم الحديث: (٢٣٥٦).

الناس يظن أن صيام رجب أفضل منه لأنه شهرٌ حرامٌ وليس كذلك ومن ثم عظمت عناية النبيِّ ﷺ به[١].

وتطرق الحافظ ابن رجب إلى هذا فقال: في قوله: «يَغْفُلُ النَّاسُ عَنْهُ بَيْنَ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ» دليلٌ على استحباب عمارة أوقات غفلة الناس بالطاعة، وأنَّ ذلك محبوبٌ لله ﷻ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ بعض ما يشتهر فضله من الأزمان أو الأماكن أو الأشخاص قد يكون غيره أفضل منه إما مطلقًا أو لخصوصيةٍ فيه لا يتفطن لها أكثر الناس، فيشتغلون بالمشهور عنه ويفوتون تحصيل فضيلة ما ليس بمشهورٍ عندهم[٢].

وفي إحياء الوقت المغفول عنه بالطاعة فوائد منها: أنَّ الطَّاعةَ تكون أخفى، وإخفاء النوافل وإسرارها أفضل، وأنَّ العبادة تكون أشقَّ على النفوس؛ لأنَّ النفوسَ تذهل عن الأعمال الصالحة أو لا تقدرها قدرها بما تشاهده من أحوال الغفلة ولقلة من يُقتدى بهم، بينما تنشط النفوس وتسهل الطاعات إذا كثرت اليقظة في الناس[٣].

سادسًا: الاستمرار على العبادة:

روى **مسلمٌ** في صحيحه عَنْ **عَائِشَةَ** ﵂ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا عَمِلَ عَمَلاً أَثْبَتَهُ[٤].

وفي الصحيحين عن **مسروقٍ** قال: سَأَلْتُ **عَائِشَةَ** ﵂: أَيُّ الْعَمَلِ كَانَ أَحَبَّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ؟ قَالَتْ: الدَّائِمُ»[٥].

وعند **مسلم** عن **عائشة** ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «وَإِنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى الله مَا دُووِمَ عَلَيْهِ وَإِنْ قَلَّ»، وَكَانَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ إِذَا عَمِلُوا عَمَلاً أَثْبَتُوهُ»[٦].

---

(١) شرح الزرقاني على موطأ مالك (٢/ ٢٦٠)، مشكاة المصابيح مع شرحه مرعاة المفاتيح (٧/ ٧٦).
(٢) لطائف المعارف ص (١٣٨).
(٣) مشكاة المصابيح مع شرحه مرعاة المفاتيح (٧/ ٧٧).
(٤) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٧٧٨).
(٥) صحيح البخاري، رقم الحديث: (١١٣٢)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٧٦٤) واللفظ للبخاري.
(٦) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٨٦٣).

وقد تقدم أنَّ العملَ القليلَ الذي لا ينقطع أكثر من العمل الكثير الذي ينقطع، وهذا ظاهر، والمُوَفَّقُ من قطعَ الرحلة إلى الله مرحلةً مرحلة، وكلما قطع مرحلةً ثبَّتها لئلا يعود إلى نقطة الصفر.

سابعًا: استدراك الفوائت:

وهذا فرعٌ عما قبله من أنه ﷺ إذا عمل عملًا أثبته، فكان إذا حال دونه شيء فإنه يستدركه بالقضاء.

ومن ذلك: ما روى **مسلمٌ** في صحيحه عَنْ **عَائِشَةَ** رضي الله عنها قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا عَمِلَ عَمَلاً أَثْبَتَهُ، وَكَانَ إِذَا نَامَ مِنَ اللَّيْلِ أَوْ مَرِضَ صَلَّى مِنَ النَّهَارِ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً..»[١].

ولعلك لحظت أن الحديث تناول الأمرين: تثبيت العمل واستدراكه إذا فات.

وصلى ﷺ يومًا ركعتين بعد العصر فأرسلت **أم سلمة** رضي الله عنها تسأله عن صلاته لهما وقد نهى عن ذلك فقال: «**إنه أَتَانِي نَاسٌ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ فَشَغَلُونِي عَنْ الرَّكْعَتَيْنِ اللَّتَيْنِ بَعْدَ الظُّهْرِ فَهُمَا هَاتَانِ**»[٢].

وكان يقضي اعتكاف العشر الأواخر من رمضان إذا فاته كذلك؛ روى الإمام **أحمد** في مسنده من حديث **أَنَسٍ** رضي الله عنه قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا كَانَ مُقِيمًا اعْتَكَفَ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضَانَ، وَإِذَا سَافَرَ اعْتَكَفَ مِنْ الْعَامِ الْمُقْبِلِ عِشْرِينَ»[٣] صححه شعيب الأرنؤوط.

ولم يعتكف مرةً في رمضان فقضاه في آخر العشر من شوال[٤].

ولهذا يمكن القول: كما أنَّ قضاء الفرض فرضٌ فإنَّ قضاءَ السُّنَّةِ سُنَّة.

---

(١) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٧٧٨).
(٢) صحيح البخاري، رقم الحديث: (١٢٣٣)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٩٧٠).
(٣) مسند أحمد، رقم الحديث: (١٢٠٣٦).
(٤) انظر ذلك في صحيح البخاري، حديث رقم: (٢٠٤١).

ثامنًا: تَقصُّدُ مخالفة الكفار وترك التشبه بهم:

وشواهد ذلك تكاد تتمرد على الحصر، ومن ذلك: ما روى الشيخان عنْ **ابْنِ عُمَرَ** رضي الله عنهما عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**خَالِفُوا الْمُشْرِكِينَ؛ أَحْفُوا الشَّوَارِبَ وَأَوْفُوا اللِّحَى**»[1].

ولما وجد اليهود في المدينة يصومون يوم عاشوراء -وهو العاشر من محرم- صامه وقرر إضافة يوم إبرازًا للمخالفة وقال: «**لَئِنْ بَقِيتُ إِلَى قَابِلٍ لأَصُومَنَّ التَّاسِعَ**»[2].

على أنه لم يخالف اليهود في ذلك أول مَقدَمِه المدينة؛ تألفًا لقلوبهم، ولأنَّه كان يحب موافقتهم فيما لم يؤمر به، فلما استقرت الشريعة آخرًا على مخالفة أهل الكتاب، وصار هذا أصلًا من أصولها عزم على مخالفتهم.

وفي قصة الأذان كان هناك حرصٌ نبويٌّ ظاهرٌ على استقلال هذه الأمة بنداءٍ خاصٍّ بها، ولهذا لم يقبل ﷺ الحلول المقترحة المستوردة من الأمم الأخرى.

روى **أبو داود** في سننه عَنْ **أَبِي عُمَيْرِ بْنِ أَنَسٍ** عَنْ عُمُومَةٍ لَهُ مِنَ الأَنْصَارِ قَالَ: اهْتَمَّ النَّبِيُّ ﷺ لِلصَّلاَةِ كَيْفَ يَجْمَعُ النَّاسَ لَهَا؛ فَقِيلَ لَهُ: انْصِبْ رَايَةً عِنْدَ حُضُورِ الصَّلاَةِ فَإِذَا رَأَوْهَا آذَنَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَلَمْ يُعْجِبْهُ ذَلِكَ.

قَالَ: فَذُكِرَ لَهُ الْقُنْعُ -يَعْنِى شَبُّورَ الْيَهُودِ[3]- فَلَمْ يُعْجِبْهُ ذَلِكَ وَقَالَ: «**هُوَ مِنْ أَمْرِ الْيَهُودِ**».

قَالَ: فَذُكِرَ لَهُ النَّاقُوسُ فَقَالَ: «**هُوَ مِنْ أَمْرِ النَّصَارَى**».

فَانْصَرَفَ **عَبْدُ اللهِ بْنُ زَيْدِ بْنِ عَبْدِ رَبِّهِ** وَهُوَ مُهْتَمٌّ لِهَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأُرِيَ الأَذَانَ فِي مَنَامِهِ.. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا بِلاَلُ قُمْ فَانْظُرْ مَا يَأْمُرُكَ بِهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ زَيْدٍ فَافْعَلْهُ**»[4] حسنه الألباني.

وأمر ﷺ بالسحور وقال: «**فَصْلُ مَا بَيْنَ صِيَامِنَا وَصِيَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَكْلَةُ السَّحَرِ**»[5].

---

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٥٨٩٢)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٦٢٥) واللفظ لمسلم.
(٢) صحيح مسلم، رقم الحديث: (٢٧٢٣).
(٣) أي: البوق الذي كانوا يتنادون به عبر النفخ فيه.
(٤) سنن أبي داود، رقم الحديث: (٤٩٨).
(٥) صحيح مسلم، رقم الحديث: (٢٦٠٤) عن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

وفي الحج خالف ﷺ المشركين في وقت الإفاضة من مزدلفة؛ روى **البخاري** في صحيحه عن **عمرو بن ميمون** قال: شَهِدْتُ عُمَرَ رضي الله عنه صَلَّى بِجَمْعٍ الصُّبْحَ ثُمَّ وَقَفَ فَقَالَ: إِنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا لَا يُفِيضُونَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ وَيَقُولُونَ: أَشْرِقْ ثَبِيرُ وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَالَفَهُمْ ثُمَّ أَفَاضَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ»[(١)].

وثبير هو جبل مزدلفة وهي المعبر عنها في الحديث بلفظ «جَمْع»، وقولهم: «**أَشْرِقْ ثَبِيرُ**»؛ أي ادخل أيها الجبل في الشروق؛ أي في نور الشمس؛ لأنَّهم كانوا لا يفيضون إلا بعد ظهور الشمس على الجبال[(٢)].

ومن مقاصد مخالفته ﷺ للكفار: تربيةُ الأمة على تمايزها الثقافي عن غيرها من الأمم؛ لأنَّ الأمة التي لا تتميز بمنهجها ومشروعها لا بد وأن تأكلها الذئاب بالضرورة، ونحن أمة جئنا لنأمر جميع الأمم بالدخول في الإسلام، وكلُّ أمة لها دينُها وثقافتُها ولغتُها وتاريخُها، ومن ثم سيكون الصراع على هذه الأرضية صراعًا عقديًّا فكريًّا حضاريًّا بالمقام الأول، والتقارب من أيِّ أمةٍ يعني بوابةَ الدخولِ في عملياتِ تذويبٍ وتآكلٍ وانصهارٍ في ثقافةٍ وافدة.

وليس هناك أمةٌ تريد الحكم إلا ولها منهجها الثقافي الذي تنطلق من خلاله وتدعو الناس إليه بل وربما فرضته بالقوة والقهر والبغي، فالولايات المتحدة الأمريكية مثلًا حين أرادت أن تتسيد على العالم عقب الحرب العالمية الثانية انطلقت من المنهج الليبرالي، وزيَّنته على ما فيه من كوارث ومصائب عظام ليكون رواجه مقبولًا، وتسللت بهذا إلى العالم من مدخلٍ ثقافي، وأخذت بفرضه يومًا بعد آخر[(٣)].

ومن رحمة الله بأمة **محمد** ﷺ أنه كمَّل لها دينها حتى لا تحتاج حرفًا واحدًا من غيرها كما قال سبحانه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣]، أما في أمر الدنيا فالأمم تستفيد من بعضها من غير تثريبٍ ولا بأس، فكما كانت الأمم تأخذ من أمتنا فيمكن لأمتنا أن تأخذ من الغرب أو الشرق ما طاب

---

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (١٦٨٤).

(٢) فتح الباري لابن حجر (٣/ ٥٣١)، تفسير غريب ما في الصحيحين للحميدي ص (٩).

(٣) وقد بسطت القول في هذا نوع بسط في كتاب: «**سبائك الشيطان**» يسر الله إخراجه عن قريب.

لها من أمر الدنيا ما لم يخالف دينها أو صالح أعرافها.

تاسعًا: العناية الوافرة بالنوافل:

وكان ﷺ ذا عنايةٍ تامَّةٍ بالنوافل، في الصلاة وغيرها.

ولم يكن يفعل النوافل على نحوٍ واحد؛ فنوافل الصلاة منها الراتب وغير الراتب، والمؤكد وغير المؤكد، ومنها ما كان يلتزمه في السفر والحضر؛ كالوتر وركعتي الفجر، ومنها ما كان يلتزمه في الحضر ويتركه في السفر، ومنها ما يكون بسببٍ؛ كصلاة الخسوف والاستسقاء وغير ذلك، ومنها ما لا يكون بسبب.

وفي الصيام منه ما يكون بسببٍ ومنه ما يكون بغير سبب، ومنه الراتب؛ كصوم يوم عرفة وعاشوراء والست من شوال ومنه غير الراتب، وكان يصوم غالب شعبان، وكان يتحرى صوم الاثنين والخميس، ويقول: «**أحب أن يُعرض عملي وأنا صائم**»، وكان يصوم أحيانًا السبت والأحد، وكان يصوم الأيام الثلاثة البيض وتسعَ ذي الحجة وغير ذلك.

والقصد أنَّ تقصُّدَ تكثيرِ النوافل أمرٌ ظاهرٌ من فعله ﷺ، والشريعة خففت من أمر النوافل لتكثر؛ فجازت الصلاة على الراحلة في السفر ولو لغير جهة القبلة، وجاز صوم النافلة مع عدم تبييت النية من الليل اكتفاءً بانعقادها قبل الزوال ما دام ممسكًا من الفجر وغير ذلك.

وكثرة النوافل ذات منافعٍ وبركاتٍ منها الأمور الخمسة الآتية:

١- إنها شكرٌ عمليٌّ يتقرب به العبد لربه الكريم المنان؛ روى الشيخان عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى حَتَّى انْتَفَخَتْ قَدَمَاهُ فَقِيلَ لَهُ: أَتَكَلَّفُ هَذَا وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ! فَقَالَ: «**أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**»[١].

٢- إنّها من محبوبات الله: فالصلاة مثلًا فُرِضت ليلة المعراج خمسين صلاة، ثم خُفِّفت إلى خمس، ودل العدد الذي فُرِض أولًا أنَّ كثرةَ الوقوف بين يدي الله تعالى أمرٌ محبوبٌ

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (١١٣٠)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٧٣٠٢) واللفظ لمسلم.

إليه سبحانه، فجاء التخفيف رعايةً للضعف البشري، وبقي التكثيرُ محبوبًا مطلوبًا بحسب نشاط أولي الألباب وذوي العزائم.

٣- إنها جوابرُ للنقص: فلا تكاد تكمل فريضةٌ لكثرة الدواخل فيها، فتأتي السنن تجبر النقص وتسد الخلل.

٤- إنها أمارة زيادة إيمان العبد وعظيم حبه لربه ﷻ: فالعبد قد يفعل الفرائض خوفًا من العقاب، أما النوافل فإنه يفعلها حبًّا لها ورغبةً فيها، تقربًا لا تهربًا، وإخلاصًا لا تخلصًا.

ولما فعلها حبًّا لله تعالى جوزي بحبِّ الله له؛ روى **البخاري** في صحيحه عَنْ **أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ..»**[1].

وقد جادت **قريحة ابن القيم** رحمه الله بسطرٍ واحد جمع فيه بين سياسة الدين في تقصد تكثير النوافل وبين ما يُجازى به العبد من حبِّ الله له فقال: **«والدينُ كلُّهُ استكثارٌ من الطاعات، وأحبُّ خلقِ الله إليه أعظمُهُم استكثارًا منها»**[2].

٥- أنَّ النوافلَ طريقٌ إلى الامتيازات الأخروية: روى **مسلم** في صحيحه عن **ربيعة بن كَعْبٍ الأَسْلَمِيِّ** قَالَ: كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ فَقَالَ لِي: **«سَلْ»** فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ.

قَالَ: **«أَوَغَيْرَ ذَلِكَ»**؟

قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ.

قَالَ: **«فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»**[3].

---

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٦٥٠٢).
(٢) مدارج السالكين (١/ ٢٦٢).
(٣) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١١٢٢).

وما تقرر في هذا البند يريك مركزية العمل في التكوين الإيماني التي تقدَّم الحديث عنها في «الأصول التربوية»، فهذا الدِّين ليس مجرد مشاعرَ روحيةٍ أو أذواقٍ قلبية؛ بل إنَّ العملَ هو الوعاءُ الذي تتنزل فيه المعاني، وتتحرك في ساحته المشاعر، وتتحصل في رِحَابِهِ الأذواقُ والأشواق.

عاشرًا: العناية بتجويد العمل:

ومن ذلك:

أنه ﷺ كان يرتل في تلاوته ويمد القراءة مدًّا؛ روى **البخاري** في صحيحه عن **قتادة** رضي الله عنه قال: سَأَلْتُ **أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ** عَنْ قِرَاءَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: كَانَ يَمُدُّ مَدًّا[1].

وروى **مسلم** في صحيحه عَنْ **حَفْصَةَ** رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ: «.. وَكَانَ يَقْرَأُ بِالسُّورَةِ فَيُرَتِّلُهَا حَتَّى تَكُونَ أَطْوَلَ مِنْ أَطْوَلَ مِنْهَا»[2].

والمعنى: أنَّه كان ﷺ يمدُّ ويرتِّل في قراءة السورة القصيرة، حتى يكون زمانُ قراءتها أطول من زمان قراءة سورة أخرى أطول منها إذا قُرِئَت بدون ترتيل[3].

وكان يقطع قراءته آيةً آية؛ روى **أبو داود والترمذي** عنْ **أُمِّ سَلَمَةَ** رضي الله عنها قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُقَطِّعُ قِرَاءَتَهُ يَقُولُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ثُمَّ يَقِفُ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ثُمَّ يَقِفُ..»[4] صححه الألباني.

وكان يصلي نصف الليل أو زيادةً عنه أو قريبًا منه ولا يصلي في هذه الساعات المجتمعة إلا إحدى عشرة ركعة، لكن كانت السجدة الواحدة تصل إلى نحو عشر دقائق أو يزيد.

خذ هذا مما تحدثت به **عائشةُ** رضي الله عنها؛ فقد حدَّث عروةُ أنَّها أخبرته أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ **كَانَ**

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٥٠٤٥).
(٢) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٧٤٦).
(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للقرطبي (٧/ ٥).
(٤) سنن أبي داود، رقم الحديث: (٤٠٠٣)، سنن الترمذي، رقم الحديث: (٢٩٢٧) واللفظ للترمذي.

يُصَلِّي إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، كَانَتْ تِلْكَ صَلاَتَهُ تَعْنِي بِاللَّيْلِ، فَيَسْجُدُ السَّجْدَةَ مِنْ ذَلِكَ قَدْرَ مَا يَقْرَأُ أَحَدُكُمْ خَمْسِينَ آيَةً قَبْلَ أَنْ يَرْفَعَ رَأْسَهُ»[١].

وفي الصحيحين عَنْ **أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ** أَنَّهُ سَأَلَ **عَائِشَةَ** رضي الله عنها: كَيْفَ كَانَتْ صَلاَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي رَمَضَانَ؟ فَقَالَتْ: «**مَا كَانَ يَزِيدُ فِي رَمَضَانَ وَلاَ فِي غَيْرِهِ عَلَى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً؛ يُصَلِّي أَرْبَعًا فَلاَ تَسَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي أَرْبَعًا فَلاَ تَسَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي ثَلاَثًا..**»[٢].

وربما قطع الليلة بآيةٍ واحدةٍ لا يجاوزها؛ أخرج **النسائي** عن **أبي ذرٍّ** رضي الله عنه أنه قال: قَامَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى أَصْبَحَ بِآيَةٍ، وَالآيَةُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٣].

وكان يتفاعل مع الآيات والأركان تفاعلًا تامًّا؛ روى **أبو داود والنسائي** عَنْ **عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الأَشْجَعِيِّ** قَالَ: قُمْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةً فَقَامَ فَقَرَأَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ لاَ يَمُرُّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ إِلاَّ وَقَفَ فَسَأَلَ، وَلاَ يَمُرُّ بِآيَةِ عَذَابٍ إِلاَّ وَقَفَ فَتَعَوَّذَ.

قَالَ: ثُمَّ رَكَعَ بِقَدْرِ قِيَامِهِ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: «**سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ**»، ثُمَّ سَجَدَ بِقَدْرِ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ فِي سُجُودِهِ مِثْلَ ذَلِكَ.

ثُمَّ قَامَ فَقَرَأَ بِآلِ عِمْرَانَ ثُمَّ قَرَأَ سُورَةً سُورَةً»، واللفظ لأبي داود.

وفي رواية **النسائي**: «**فَلَمَّا رَكَعَ مَكَثَ قَدْرَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: «سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ»!**[٤] صححه الألباني.

وظاهرٌ من مجموع هذه الأحاديث أنَّ النبيَّ ﷺ لم يكن ينتظم على حالةٍ واحدةٍ؛ فمتى فُتِح له بابٌ من طول القيام أو السجود أو الركوع.. استرسل فيه، لكن الجامع لمجموع أحواله أنه كان يتفاعل مع العبادة، ويبالغ في تحسينها وتجويدها.

---

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٩٩٤).
(٢) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٢٠١٣)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٧٥٧).
(٣) سنن النسائي، رقم الحديث: (١٠٠٩).
(٤) سنن أبي داود، رقم الحديث: (٨٧٣)، سنن النسائي، رقم الحديث: (١٠٤٨).

وهـذه هـي التربيـة التي تبني الإيـمان في العبد وتغـرس الانتـماء لديه وتُعرِّفه بربـه، وهي التي تشـحنه باليقـين الـذي يُهـون عليـه مصائـب الدنيـا ويدفعـه لأعـمال الآخـرة، وهـي التي تعصمـه بعـون الله مـن السـقوط في مهـاوي الفتـن والشـهوات، كـما تحفظـه مـن الانـزلاق في أوديـة الشـبهات متـى جمـع معهـا الفهـم والعلـم.

حادي عشر: الحرص على جوامع العمل وأفضله:

ومـن ذلـك: مـا روى **مسـلم** في صحيحـه عـن أم المؤمنين **جُويْرِيَةَ بنت الحـارِث** ﵂ أنَّ النَّبيَّ ﷺ خـرجَ مِـنْ عِنْدِهَـا بُكْـرَةً حِيْـنَ صَـلَّى الصُّبْـحَ وَهِـيَ في مَسْـجِدِها، ثُـمَّ رَجَـعَ بَعـدَ أنْ أضْحَـى وَهِـيَ جَالِسَـةٌ، فقـالَ: «**مَـا زِلْـتِ عَـلَى الحـالِ الَّتي فارقْتُكِ عَلَيْهَـا**»؟

قالت: نَعَمْ.

فَقَـالَ النَّبـيُّ ﷺ: «**لَقَـدْ قُلْـتُ بَعْـدَكِ أرْبَـعَ كَلِـمَاتٍ ثَـلاثَ مَـرَّاتٍ، لَـوْ وُزِنَـتْ بِـمَا قُلْـتِ مُنْـذُ اليَـوْمِ لَوَزَنَتْهُـنَّ: سُـبْحَانَ الله وَبِحَمْـدِهِ، عَـدَدَ خَلْقِـهِ، وَرِضَـا نَفْسِـهِ، وَزِنَـةَ عَرْشِـهِ، وَمِـدَادَ كَلِمَاتِـهِ**»[1].

وقولـه: «**لَوَزَنَتْهُـنَّ**»؛ أيْ لرجحـتْ تلـك الكلـمات عـلى جميـع أذكارك وزادتْ عليهـنَّ في الأجر!

ولـك أن تحلـق بفكـرك وأن تقـول: «**سُـبْحَانَ الله وَبِحَمْـدِهِ عَـدَدَ خَلْقِهِ**» وتضـع في خيالـك هـذه المسـارات: عـدد الإنـس عـلى مـدار تاريخ البشريـة الطويـل، عـدد الجـان، عـدد الأفـلاك، عـدد حبـات الرمـال، عـدد قطـرات الأمطـار... والقائمـة تطـول وتَطـول وتطـول.

إلى أيِّ مدى يمكن للعقل أن يتخيل نطاق هذه الكلمة النبوية!

وقولـه: «**ورضـا نفسـه**» إيـذانٌ ببقـاء العـدد في ازديـاد حتـى يصـل إلى المقـدار الـذي يرضى الله بـه عنـك، والله تعـالى أعلـم بـما يرضيـه.

وقولـه: «**وزِنَة عرشـه**» يتوقف معـه الخيال؛ فلا يعلم مقدار ثقل العرش إلا الله.

---

(١) صحيح مسلم، رقم الحديث: (٧٠٨٨).

وقوله: «ومداد كلماته»؛ أي في العدد، أو في عدم النفاد، والمراد المبالغة؛ إذ كلمات الله لا تُحصر[١]؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [لقمان: ٢٧].

والمعنى: ولو أنَّ ما في الأرض من أشجارٍ تحوَّلت بغُصُونِها وفروعها إلى أقلام، ولو أنَّ البحرَ أيضًا تحَوَّلَ إلى مدادٍ لتلك الأقلام وهذا البحرُ يُمَدُّ بسبعةِ أبحرٍ أخرى وكُتِبَت بتلك الأقلام وبذلك المداد كلماتُ الله التي يحيط بها علمُهُ تعالى.. لنفدت الأقلام ولنفد ماء البحر لتناهي كل ذلك وما نفدت كلمات الله تعالى ولا معلوماته لعدم تناهيها![٢].

فإن قلت: لماذا لم يكتف النبيُّ ﷺ بتعليمنا هذه الكلمات دون غيرها؛ لتفوقها في المنزلة والفضل؟ فالجواب فيما يظهر لي من خمسة أوجه:

الأول: إنَّ مبنى الأذكار والأعمال على التعظيم والإجلال، وكلما زادت تنوعت ودلَّت على تعظيم العبد للرب ﷻ.

الثاني: إنَّ النفس لو أَلِفَتْ كلماتٍ بعينها لضعفت الحيوية في استشعار معانيها ورسائلها، ومن ثم كانت الحاجة للتنقل من مقامٍ إلى آخر استجلابًا لإقبال النفس وتفاعل القلب والعقل.

الثالث: إنَّ الأذكار والأعمال مستودع المعاني والأفكار، فالقضية لا تعود لعدَّادٍ من الحسنات فحسب؛ بل كل ذكر يتولى جزءًا من التربيةِ وبناءِ المنظومة العقدية والتربوية والإيمانية والعلمية وما إلى ذلك في صدر العبد، فلا يغني ذِكْرٌ عن آخر.

الرابع: إنَّ هذا فيه مناسبةٌ لحال الإنسان الذي لا يثبت على وتيرةٍ واحدة؛ فالإنسان إذا اتسع وقته شمل ما أمكنه فعله مما ورد، فإن ضاق وقته أسعفته المعاني الكلية ذات الأجور الضخمة.

الخامس: إنَّ النفوس ليست على حالٍ واحدة، فالنفس قد تستهوي أذكارًا بعينها

---

(١) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للمباركفوري (٧/ ٤٥٩).
(٢) تفسير الوسيط للطنطاوي والكومي (١١/ ١٢٩).

لموافقة المعاني الواردة فيها حاجة الإنسان وبغيته، وقد يهتدي العبد بالمفضول أكمل من اهتدائه بالفاضل.

والله تعالى أعلم.

ثاني عشر: العناية بالأعمال القلبية:

وهذا كثيرٌ جدًّا؛ إذ إنَّ كلَّ عملٍ من أعمال الجوارح يمكن أن ينزع إلى عملٍ من أعمال القلوب أو أكثر.

ومن ذلك: أنه كان يراعي مقام تعظيم الرب جلَّ وعلا، وطول ركوعه في صلاته يؤذن بعظيم تعظيمه لربه سبحانه؛ إذ مبنى الركوع على التعظيم، وقد قرأت الحديث المتقدم وفيه: **فَلَمَّا رَكَعَ مَكَثَ قَدْرَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: «سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ»!**

وهذا يعني أنه أمضى ما يقارب الساعة والنصف وهو راكعٌ يناجي الله بهذه الكلمات التي ترشح بالتعظيم.

وفي حادث تحويل القبلة كان يحب أن يصرفه الله إلى الكعبة بدلًا من بيت المقدس، لكنه لم ينطق بذلك تأدبًا مع الله تعالى، وكان يقلب نظره في السماء يرجو ذلك وينتظره، وكشف القرآن هذه الرغبة وذلك في قوله سبحانه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٤٤].

قال **قتادة**: فكان ﷺ يهوى ويشتهي القبلة نحو البيت الحرام فوجهه لقبلةٍ كان يهواها ويشتهيها[1].

وسبب رغبته في ذلك: أنَّ بيت المقدس كان قبلة اليهود، فاتخذ اليهود من ذلك مدخلًا للتشكيك في عقيدة المسلمين يقولون: يخالف ديننا ويتبع قبلتنا، وإنَّ اتباعَهُ لقبلتنا دليلٌ

(١) تفسير الطبري (٣/ ١٧٢).

على أنَّ ديننا هو الدين وأن قبلتنا هي القبلة، وأننا نحن الأصل، فأولى به وبمن معه أن يفيئوا إلى ديننا لا أن يدعونا للدخول في الإسلام.

واتخذ كفار قريش نفس القضية مدخلًا لتنفير العرب من الدخول في الإسلام يقولون: يدَّعي أنه على ملة **إبراهيم** ﵇ ثم هو يخالف قبلته.

فكان النبي ﷺ يشتهي أن لو عادت القبلة إلى الكعبة لينقطع قول الفريقين، وطمعًا في دخولهما الإسلام بذلك[1].

ومن شواهد خشيته من الله تعالى وما يكون في الآخرة:

ما روى **الطبراني** عَنْ **أُمِّ سَلَمَةَ** ﵂ قَالَتْ: دَعَا رَسُولُ الله ﷺ وَصِيفَةً لَهُ فَأَبْطَأَتْ عليه فَقَالَ: «**لولا مَخَافَةُ الْقَوَدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَأَوْجَعْتُكِ بِهَذَا السِّوَاكِ**»[2] ضعفه الألباني.

وروى **النسائي** عَنْ **مُطَرِّفٍ** عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي وَلِجَوْفِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الْمِرْجَلِ يَعْنِي يَبْكِي»[3] صححه الألباني، وشواهدُ بكائِهِ في الصَّلاةِ أشقُّ من أن تُحصَر.

وروى **الترمذي** عن **ابْنِ عَبَّاسٍ** ﵄ قَالَ: قَالَ **أَبُو بَكْرٍ** ﵁: يَا رَسُولَ الله قَدْ شِبْتَ قَالَ: «**شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَالْوَاقِعَةُ وَالْمُرْسَلَاتُ وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ**»[4] صححه الألباني.

وذلك لما تضمنته هذه السور من الحديث عن القيامة وأهوالها، وأحوال المعذبين في النار يوم القيامة، وما نزل بالأمم السابقة من بأس الله مما يجعل الناظر فيها يعتريه من الخوف والحزن ما يعتريه حتى شاب قبل أوانه بسبب ذلك.

ثالث عشر: العناية بالأعمال العقلية:

ومن ذلك: عنايته بعبادة التفكر، وأكتفي بمثالٍ واحدٍ لطول الكلام عليه؛ وهو النظر إلى السماء بغرض التفكر؛ فإنَّه ﷺ كان يكثر من ذلك.

---

(١) فصلت القول في هذه القضية في مقالٍ بعنوان: «**حادث تحويل القبلة.. رسائل سياسية وتقريرات عقدية وإيمانية**» وهو منشور على الشبكة.
(٢) المعجم الكبير للطبراني، رقم الحديث: (٨٨٩).
(٣) سنن النسائي، رقم الحديث: (١٢١٣).
(٤) سنن الترمذي، رقم الحديث: (٣٢٩٧).

قال الشيخ **عبد العزيز الطريفي** فرَّج الله كربه: كان النبيُّ ﷺ كثيرَ النظر إلى السَّماء تأملًا وتدبرًا وتفكرًا، وهذا من العبادات التي قلَّ من يفعلها، وإنْ نَظَرَ الناسُ إلى السماء نظروا إعجابًا وتسليةً لا تعظيمًا للخالق بتأمل عظيم مخلوقه.

فكثيرًا ما يذكر الله خلق السماوات والأرض أنَّه آياتٌ لأولي الألباب؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، ويدلل سبحانه على ربوبيته وألوهيته بخلقهما؛ قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١].

والنَّظرُ والتفكر في العظيم يعطي الإنسان احتقارًا لما دونه خلقًا، فيستدل بشيءٍ على شيءٍ آخر بقياس الأولى؛ قال الله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]، وقال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

ومن أدلة نظره ﷺ للسماء وإكثاره من ذلك:

ما روى **مسلم** في صحيحه عَنْ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: صَلَّيْنَا الْمَغْرِبَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ ثُمَّ قُلْنَا: لَوْ جَلَسْنَا حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَهُ الْعِشَاءَ.

قَالَ: فَجَلَسْنَا فَخَرَجَ عَلَيْنَا فَقَالَ: «**مَا زِلْتُمْ هَا هُنَا**»؟

قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله صَلَّيْنَا مَعَكَ الْمَغْرِبَ ثُمَّ قُلْنَا نَجْلِسُ حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَكَ الْعِشَاءَ.

قَالَ: «**أَحْسَنْتُمْ**» أَوْ «**أَصَبْتُمْ**».

قَالَ: فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ -**وَكَانَ كَثِيرًا مِمَّا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ**- فَقَالَ: «**النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ**»(١).

والأَمَنَةُ: الأمان، ومعنى الحديث: أنَّ النجوم ما دامت باقيةً فالسماء باقية، فإذا

---

(١) صحيح مسلم، رقم الحديث: (٦٦٢٩).

انكدرت النجوم وتناثرت في القيامة وهنت السماء فانفطرت وانشقت وذهبت، وهو ﷺ أمان لأصحابه فإذا ذهب ظهرت الفتن والحروب وارتداد من ارتدَّ من الأعراب واختلاف القلوب ونحو ذلك، والصحابة أمانٌ للأمة، فإذا ذهبوا ظهرت البدع والحوادث في الدين والفتن فيه وغير ذلك، وهذا كله قد وقع، وهو من معجزاته ﷺ[1].

وروى **أبو داود** في سننه عَنْ **أُمِّ سَلَمَةَ** رضي الله عنها قَالَتْ: مَا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ بَيْتِي قَطُّ إِلاَّ رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ: «**اللهمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ**»[2] صححه الألباني.

وفي الصحيحين عَنْ **ابْنِ عَبَّاسٍ** رضي الله عنهما قَالَ: بِتُّ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ فَتَحَدَّثَ رَسُولُ الله ﷺ مَعَ أَهْلِهِ سَاعَةً ثُمَّ رَقَدَ فَلَمَّا كَانَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ قَعَدَ فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[3].

أما عن حِكَم النَّظر إلى السماء فقد ذكر الشيخ الطريفي عشرًا منها أحيل عليها إيجازًا، وأولها التفكر والتدبر والاعتبار وما ينتج عن ذلك من تعظيم الخالق واستشعار ضعف المخلوق وحاجته وفقره إلى ربه وهو ما نحن بصدده[4].

وبما تسطَّر في هذا المطلب يُعلَمُ أنَّ كثيرًا مما يذكره الوعاظ والدعاة لأحوالٍ من هديه ﷺ يكون أمثلةً لقواعد أعم؛ فلو جاء أحد الدعاة وتكلَّم عن هديه ﷺ في استثمار شهر رمضان مثلًا.. فإننا هنا قد وعينا أنَّ عنايته برمضان كانت فرعًا عن عنايته بالأوقات الفاضلة، وأنَّ قضاءه للاعتكاف مثلًا كان فرعًا عن قضائِهِ للسُّنَنِ واستدراكِهِ للفَوائت.

والله تعالى هو الموفق، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٦/ ٨٣).
(٢) سنن أبي داود، رقم الحديث: (٥٠٩٦).
(٣) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٤٥٦٩)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٦١٩) واللفظ للبخاري.
(٤) انظر التفسير والبيان (١/ ١٢٠-١٢٧).

المطلب الثاني

الأعمـــال البدنيـــة

تقدَّم في صدر المبحث أنَّ المقامَ هنا ليس مَقَامَ تَقَصٍّ للأعمال[1]؛ وإنما إلمامٌ بمهماتها مما لا ينبغي الغفلةُ عنه في رحلة التعبد، لا سيما ما تكرَّر منه.

كما تقدَّم أنَّ بين الأعمال قدرًا كبيرًا من التكامل والتداخل؛ فالعلم مثلًا يكون بالجلوس والقراءة والاستماع وهذا عملٌ بدني، ولكن الفهم والتأمل عملٌ عقلي، والصدقةُ بالمال منشؤها القلب كذلك لكنها تُخْرَجُ باليد، والحجُّ عملٌ مشتركٌ بين الجوارح والمال وأضراب ذلك، فأعتمد من ذلك ما يكون غالبًا فيه.

وأبني ترتيب الأعمال على أركان الإسلام، وأزيد عليها عبادةَ الجهاد، وأُدرِجُ الفرعَ في الأصلِ؛ كالصدقة في الزكاة والعمرة في الحج، وأجعل لكلِّ عملٍ من الأصول فرعًا يتولى الكلام عليه، وذلك في خمسة أفرع كما يلي:

الفرع الأول: الصلاة

أسير في هذا الفرع في مسارين:

المسار الأول: ما يتعلق بذات صلاة الفريضة، فيُعتنى بها من جهة شهود الجماعة فيها والتبكير لها والتحذير من التهاون فيها.

والثاني: أفراد الصلوات، ومن أهمها: السنن الرواتب وقيام الليل ومنه صلاة التراويح، وصلاة الضحى، والنفل المطلق.

وإليك بسطَ ذلك على قاعدة الإيجاز في القول وعدم تَتَبُّعِ التَّفاصيل، ولنبدأ بمادة

---

(١) وكثيرٌ مما من شأنه أن يُذكر هنا أتت عليه الكتب التي ركَّزت على الأعمال والفضائل ويأتي في مقدمتها كتاب «رياض الصالحين» وكتب الأذكار والسنن، فأنتقي هنا ما تشتد أهميته.

المسار الأول وفيه أربعة بنود:

أولًا: وجوب الصلوات الخمس:

روى **البخاري** ومسلم عَنْ **ابْنِ عُمَرَ** رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ**»(١).

وهذا الدليل للصلاة وما يأتي من أركان الإسلام.

وروى **أبو داود والنسائي وابن ماجه** عن **عبادة بن الصامت** رضي الله عنه أنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**خَمْسُ صَلَوَاتٍ كَتَبَهُنَّ الله عَلَى الْعِبَادِ، مَنْ جَاءَ بِهِنَّ لَمْ يُضَيِّعْ مِنْهُنَّ شَيْئًا اسْتِخْفَافًا بِحَقِّهِنَّ كَانَ لَهُ عِنْدَ الله عَهْدٌ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِنَّ فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ الله عَهْدٌ؛ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ**»(٢) صححه الألباني.

ثانيًا: فضيلة شهود صلاة الجماعة:

روى **البخاريُّ** ومسلم في صحيحيهما عَنْ **عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ** رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**صَلَاةُ الْجَمَاعَةِ تَفْضُلُ صَلَاةَ الْفَذِّ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً**»(٣).

وفي الصحيحين أيضًا من حديث **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي الْجَمَاعَةِ تُضَعَّفُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ وَفِي سُوقِهِ خَمْسًا وَعِشْرِينَ ضِعْفًا، وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ.. لَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إِلَّا رُفِعَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ، فَإِذَا صَلَّى لَمْ تَزَلِ الْمَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَيْهِ مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ: اللهمَّ صَلِّ عَلَيْهِ، اللهمَّ ارْحَمْهُ، وَلَا يَزَالُ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاةٍ مَا انْتَظَرَ الصَّلَاةَ**»(٤).

---

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٨)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٢٢) واللفظ للبخاري.

(٢) سنن أبي داود، رقم الحديث: (١٤٢٢)، سنن النسائي، رقم الحديث: (٤٦٠)، سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (١٤٠١).

(٣) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٦٤٥)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٥٠٩).

(٤) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٦٤٧)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٥٣٨) واللفظ للبخاري.

وعند **مسلم** عن **أبي هريرة** ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «صَلاَةٌ مَعَ الإِمَامِ أَفْضَلُ مِنْ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ صَلاَةً يُصَلِّيهَا وَحْدَهُ»[١].

أما عن اختلاف العدد فأجاب عنه الإمام **النووي** ﷺ فقال: الجمع بينهما من أوجهٍ منها: أن يكون أخبر أولًا بالقليل ثم أعلمه الله تعالى بزيادة الفضل فأخبر به.

ومنها: أنه يختلف الفضل باختلاف أحوال المصلين والصلاة فيكون لبعضهم خمس وعشرون ولبعضهم سبعٌ وعشرون؛ وذلك بحسب كمال الصلاة ومحافظته على هيآتها وخشوعها وكثرة جماعتها وفضلهم وشرف البقعة ونحو ذلك[٢].

ثالثًا: التحذير من التهاون في صلاة الجماعة:

روى **البخاري** و**مسلمٌ** عَنْ **أَبِي هُرَيْرَةَ** ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِحَطَبٍ يُحْتَطَبُ ثُمَّ آمُرَ بِالصَّلاَةِ فَيُؤَذَّنَ لَهَا ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا فَيَؤُمَّ النَّاسَ ثُمَّ أُخَالِفَ إِلَى رِجَالٍ فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ..»[٣].

وروى **مسلمٌ** عَنْ **عَبْدِ الله** قَالَ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى الله غَدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلاَءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ؛ فَإِنَّ الله شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ سُنَنَ الْهُدَى، وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى، وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ.

وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ ثُمَّ يَعْمِدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ إِلاَّ كَتَبَ الله لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً، وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً، وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلاَّ مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ»[٤].

---

(١) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٥٠٨).
(٢) شرح النووي على مسلم (٥/ ١٥١).
(٣) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٧٢٢٤)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٥١٣) واللفظ للبخاري.
(٤) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٥٢٠).

والذي يضغط على المشاعر حتى إنَّ الإنسانَ ذا القلب اليقظ ليكاد يتصاغر في نفسه من الحياء أنَّ الله تعالى أمر بصلاة الجماعة في لحظة المواجهة العسكرية والالتحام مع الكفار، وجاء القرآن يبين فقه صلاة الخوف؛ ليُدار أمر الصلاة وأمر الجهاد معًا كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢].

ومن العجيب أنَّ النبيَّ ﷺ كان يُنتِجُ في كلِّ مرةٍ صورةً جديدةً لصلاةِ الخَوفِ تتناسبُ مع مقام المعركة وظروفها، حتى زاد ذلك عن خمس عشرة صورة، بما يُثمر إدارةَ المعركة وأداء الصلاة جماعةً معًا.

والأعجب من ذلك أنَّ النبيَّ ﷺ لم يتوجه لتكرير الجماعة؛ بل جعل الجماعة واحدة، واغتُفِر في سبيل انتظام المسلمين في جماعةٍ واحدة بعضُ التغير في نظم الصلاة نفسها؛ كتقدم الصفوف وتأخرها، وكانقسام المسلمين نصفين؛ نصفًا يصلي ونصفًا يحرس، فالذي يصلي يؤدي ركعة ويتم ركعةً وحده ثم يذهب للحراسة، ويأتي من في الحراسة يدركون الركعة الثانية ويأتون بما فاتهم عقب السجود ويسلمون معه، فالفرقة الأولى حازت فضيلة تكبيرة الإحرام مع الإمام، والفرقة الأخرى حازت فضيلة السلام معه.

وقل مثل ذلك في غير هذا من الصور مما تُعرف تفاصيلُهُ من كتب الفقه.

استحضر هذا وما لا تخطئه العين من استهانةِ كثيرٍ من المسلمين بالجماعة الأولى، وربما كانوا من الخاصَّة الذين يعلمون، ولكن **قضية التعبد قضيةُ توفيقٍ وحرمان لا قضية معرفةٍ وبيان.**

والكلام يتشدد في حقِّ من اعتاد ترك صلاة الجماعة أو كان هذا هو الغالبَ من أمره، بل طال الوعيد من يشهد الجماعة لكنه يعتاد التأخر عن الصفِّ الأول؛ روى **أبو داود** عَنْ **عَائِشَةَ** رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا يَزَالُ قَوْمٌ يَتَأَخَّرُونَ عَنِ الصَّفِّ الْأَوَّلِ حَتَّى يُؤَخِّرَهُمُ اللهُ فِي النَّارِ**»[1] صححه الألباني.

(١) سنن أبي داود، رقم الحديث: (٦٧٩).

قال **العيني**: هذا تغليظٌ في حقِّ من يتكاسل عن المبادرة إلى الصف الأول ويجيء في أخريات الناس وتعوَّد بذلك، وذهب المنذري إلى أنَّ هذا الوعيدَ آتٍ في المنافقين[1].

رابعًا: فضيلة التبكير لصلاة الجماعة:

روى الشيخان أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**وَلَا يَزَالُ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاةٍ مَا انْتَظَرَ الصَّلَاةَ**»[2] كما مرَّ قريبًا.

وروى **مُسلمٌ** عن **أبي هريرة** رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**أَلَا أَدُلُّكُم عَلَى ما يَمْحُو الله بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ**»؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمْ الرِّبَاطُ**»[3].

وانتظار الصلاة شاملٌ لانتظار وقتها أو جماعتها.

فإذا كان الانتظار طويلًا؛ بحيث كان بعد الصلاة ينتظر الصلاة التي بعدها؛ كما لو صلَّى العصر وجلس في المسجد ينتظر المغرب، أو صلى المغرب وجلس في المسجد ينتظر العشاء.. كان هذا كخِيَارِ المجاهدين وأفضلهم.

روى الإمام **أحمد** في مسنده عن **أبي هريرة** رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**مُنْتَظِرُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ كَفَارِسٍ اشْتَدَّ بِهِ فَرَسُهُ فِي سَبِيلِ الله عَلَى كَشْحِهِ**[4]**، تُصَلِّي عَلَيْهِ مَلَائِكَةُ الله مَا لَمْ يُحْدِثْ أَوْ يَقُوم، وَهُوَ فِي الرِّبَاطِ الْأَكْبَرِ**»[5] حسنه الألباني.

والحاصل: أنَّ ملازمةَ المساجد مُشَبَّهَةٌ بملازمة الثغور، ولن تضيع أمةٌ يلزم أبناؤها الثغور والمساجد.

---

(١) شرح سنن ابن ماجه لمغلطاي (١/ ١٦٣٠)، شرح أبي داود للعيني (٣/ ٢٣٣).
(٢) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٦٤٧)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٥٣٨).
(٣) صحيح مسلم، رقم الحديث: (٦١٠).
(٤) الكشح هو الخصر، ولعل المراد: على جوعه، يعني أن هذا المجاهد لازم الركوب على الفرس، وجاهد وجالد مع دقيق بنية الحصان وخفته. أفاده مصطفى محمد عمارة في تعليقه على الترغيب والترهيب (١/ ٢٨٤).
(٥) مسند أحمد، رقم الحديث: (٨٦٢٥).

والألذ للنفس من هذا كله تلك المباهاة الإلهية بفاعل ذلك؛ فقد أخرج **ابن ماجه** من حديث **عبد الله بن عمرو** قال: «صَلَّيْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْمَغْرِبَ، فَرَجَعَ مَنْ رَجَعَ، وَعَقَّبَ مَنْ عَقَّبَ[1]، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُسْرِعًا قَدْ حَفَزَهُ النَّفَسُ قَدْ حَسَرَ عَنْ رُكْبَتَيْهِ[2] قَالَ: «**أَبْشِرُوا؛ هَذَا رَبُّكُمْ قَدْ فَتَحَ بَابًا مِنْ أَبْوَابِ السَّمَاءِ يُبَاهِي بِكُمْ الْمَلَائِكَةَ يَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى عِبَادِي قَدْ قَضَوْا فَرِيضَةً وَهُمْ يَنْتَظِرُونَ أُخْرَى**»[3] صححه الألباني.

ومن فضل التبكير أنه يُعين صاحبَهُ على الخشوع في الصلاة؛ وذلك أنَّ المصلي إذا جاء مبكرًا وصلى تحية المسجد والسُّنَّة القبليَّة وتلا من القرآن ما تيسَّر له.. فإنه يكون أقرب إلى الخشوع في الصلاة وتدبر ما يقرأ فيها؛ لأنَّ الإنسان عادةً يفكر في صلاته فيما كان مشغولًا به قبلها، فالتبكير يجعله على نفسيةٍ أكثر استعدادًا لتلقي كمالات الصلاة وتربيتها.

المسار الثاني: أفراد الصلوات:

وفيه خمس صلوات كما يلي:

أولًا: السنن الرواتب:

روى **الترمذي والنسائي وابن ماجه** عَنْ **عَائِشَةَ** رضي الله عنها عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ ثَابَرَ عَلَى اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً بَنَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ؛ أَرْبَعًا قَبْلَ الظُّهْرِ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الظُّهْرِ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْعِشَاءِ، وَرَكْعَتَيْنِ قَبْلَ الْفَجْرِ**»[4] صححه الألباني.

ومما جاء في فضل بعض أفراد السنن الرواتب: ما روى **مسلمٌ** عَنْ **عَائِشَةَ** رضي الله عنها عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**»[5].

---

(١) التعقيب في الصلاة هو الجلوس بعد أن يقضيها لدعاءٍ أو غيره، وقال السيوطي: التعقيب في المساجد: انتظار الصلاة بعد الصلاة. انظر: حاشية السندي على ابن ماجه (٢/ ٢٠٢).

(٢) أي: جَهَده من شدة السرعة، وحسر عن الركبتين؛ أيْ كشف عنهما، ولعل هذا كان بسبب السرعة لا أنه مقصود. انظر شرح سنن ابن ماجه للسيوطي وآخرين (١/ ٥٨).

(٣) سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٨٠١).

(٤) سنن الترمذي، رقم الحديث: (٤١٤)، سنن النسائي، رقم الحديث: (١٧٩٤)، سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (١١٤٠).

(٥) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٧٢١).

وما روى **أبو داود** عن **أم حبيبة** زوج النبيِّ ﷺ أنها قالت: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ حَافَظَ عَلَى أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ قَبْلَ الظُّهْرِ وَأَرْبَعٍ بَعْدَهَا حَرُمَ عَلَى النَّارِ»[١] صححه الألباني.

هل تعقل ما تقرأ!

إنَّ المحافظةَ على هذه الركعات تُمثِّل صكَّ البراءةِ من نار جهنم يوم القيامة!

والحديث الذي قبله يُبشِّر بأنَّ ركعتين خيرٌ من الدنيا وما فيها، والذي قبله يقرر أنَّ السنن الرواتب التي تأخذ من الوقت أقل من نصف ساعةٍ في اليوم الذي عدته أربعٌ وعشرون ساعة جعلها الله بمنِّه وفضله وكرمه سببًا في دخول الجنة، وفي الفوز ببيتٍ فيها.

اللهم إني أعوذ بك من التقصير والغفلة.

وعقب الذي تسطَّر في هذا المسار والذي قبله؛ فإنَّ من أعظم القرارات التي يمكن أن تأخذها في حياتك الإيمانية أن تقوم إلى الوضوء والذهاب إلى المسجد متى سمعت الأذان فورًا، فلا تنتهي تكبيرةُ فاتحةِ الأذان إلا وأنت مترجِّلٌ تمشي للوضوء أو للمسجد.

وهذا القرار لو أخذته.. فإنَّ جميع ما تقدَّمَ من فضائل هذا مِفتاحُه، فلن تعاني من اختلال شهود الجماعة والتبكير لها أو التهاون فيها، ولن تشكو ذهاب تكبيرة الإحرام وغياب الخشوع وترك السنن الرواتب وورد القرآن ومراجعة شيءٍ من المحفوظ؛ إذ كل ذلك تبعٌ لهذا القرار الميسور على من يسَّره الله عليه.

وثمةَ فضيلةٌ زائدةٌ على كلِّ هذا مفادها: أنَّ هذه السياسة تعطيك قدرًا من الاستقرار النفسي والنجاة من الشتات الروحي، وتصبح أكثر هدوءًا وبعدًا عن الصخب والثرثرة، تمشي إلى المسجد بسكينةٍ ووقار، لسانك رطبٌ بذكر الله، وهذا يعود بالاتزان النفسي على يومك وعملك كلِّه بإذن الله وفضله وعونه وتسديده.

إنَّ التكلفةَ الزمنيَّةَ لهذه العزائم دقائق، لكنَّ الاهتداء إليها من الهدايات الدقائق، التي قلَّ من يُوَفَّقُ إليها.

---

(١) سنن أبي داود، رقم الحديث: (١٢٧١).

فإن تقاصرتَ عن ذلك فلا أقل من إدراك تكبيرة الإحرام، فالصلاة أكبر من كلِّ كبير، وتكبيراتها المبنية على صيغة التفضيل «الله أكبر» تُؤذِنُ بهذا.

ولك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة؛ فحين سُئِلَت أم المؤمنين **عائشة** رضي الله عنها: مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ -تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ- فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ»[1].

هذه إفادةٌ من أهل بيته ﷺ فما إفادة أهل بيتك عنك لو تكلموا عنك؟!

إنَّ التزامَك بذلك وعزمَك فيه هو الذي يجعلهم يقولون عنك: كان إذا حضرت الصَّلاة فكأنَّه لا يعرفنا ولا نعرفه!

أذكر أني زرت يومًا الشيخ **محمد بن محيي الدين الأسطل** رحمه الله لما جاء زائرًا من الديار الحجازية وقد مضى على مقامه هناك قريبٌ من أربعين سنة، وهو شقيق شيخنا الدكتور يونس الأسطل وفقه الله، وكانت الزيارة عقب صلاة المغرب مباشرة، فلما جلست في مكان استقبال الزوار بقينا بعض الوقت في انتظاره.

وإذ بنجله عبد الله وفقه الله يهمس في أذني معتذرًا عن تأخر أبيه بأنه صائم، وأنه من ثلاثين سنة يصوم يومًا ويفطر يومًا ووافق اليوم صيامه!

فكان هذا أمرًا ذا عجبٍ عندي؛ إذ إنَّ المسافر يجد من وعثاء السفر ما يترخص به أيامًا بعد إقامته.

ثم جاء وجلسنا، وكنا نسأله ويجيب على العادة في أحاديث المجالس، فلما أذَّنَ العشاء ما أن أتم المؤذن قوله: «الله أكبر» إلا وهو يقوم إلى المسجد، والذي عجبت منه أنه لم يستأذن من الحاضرين بل كان صنيعه بلسان الحال دعوةً إلى القيام للمسجد!

فعاد ابنه **عبد الله** يهمس في أذني ثانيةً وقال: إنَّ أبي معتادٌ أن يقوم للصَّلاة من فوره.

وفي تلك اللحظات القليلة هجم على ذهني ما ورد عن النبيِّ ﷺ أنه كان إذا حضرت

---

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٦٧٦).

الصلاة وهو في أهله يقوم إلى الصَّلاةِ كأنه لا يعرفهم ولا يعرفونه، فكان هذا أولَ مشهدٍ أراه يُذكِّرُ بذلك!

وبعد مدةٍ قابلته وسألته عن أحسن طرق ضبط القرآن لما يُشتهر عنه أنه متقن فقال: ما لا تقدر أن تتلوه في كلِّ وقتٍ فلا تَعُدَّهُ حفظًا، فسألته في كم يراجع القرآن؟ قال: ما أنا بصاحب الهمة في ذلك، فأعدت السؤال عن متوسط المدة؟ قال: أسبوعٌ!

إنَّها عزائم حقًّا لكنَّها خفَّت بتيسير الله تعالى حين جعلها أمرًا لازمًا في حياته.

ثانيًا: قيام الليل:

تقدم الحديث عن فضل قيام الليل ومركزيته في التكوين الإيماني، وأتحدث هنا عن كيفية قيام الليل على الوجه الأكمل، وذلك بحسب الخطوات الستِّ الآتية:

١) **إذا سمعت صوت المنبه فقم فورًا من فراشك ولا تُسوِّف لحظةً واحدة**؛ لأنَّ النائم لا سلطان له على نفسه، فإذا ذهبت لحظة اليقظة فيُخشى أن تذهب ليلتك.

فإذا عانيت شدة النعاس.. فيمكن أن تمشي قليلًا أو تشرب القهوة إلى أن تستيقظ، فإن غُلِبت فيمكن أن تجلس على الكرسي فعسى ألا يطول نومك لتجد حيويتك وتقوم، واستعن بالله على ذلك وتجلَّد؛ فإنَّ لذاذة التهجد تستحق أن تُجاهِد وتُكابد.

واجتهد أن تنام مبكرًا ما استطعت؛ فإنَّ ذلك من العُدَّة التي تُعينُ على حسن اليقظة، فضلًا عما في ذلك من تلمسٍ للقيام في الوقت الفاضل؛ روى **البخاري** ومسلم عن **عبد الله بن عَمْرٍو** رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: **«أَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى الله صِيَامُ دَاوُدَ؛ كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَأَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى الله صَلَاةُ دَاوُدَ؛ كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ»**[١].

٢) **ذكر الله عند الانتباه**: وذلك بما ورد عند **البخاري** في صحيحه من حديث **عُبَادَةَ بْنِ**

---

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٣٤٢٠)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٢٧٩٦) واللفظ للبخاري.

الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ تَعَارَّ[١] مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الْحَمْدُ للهِ وَسُبْحَانَ اللهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، ثُمَّ قَالَ: اللهمَّ اغْفِرْ لِي، أَوْ دَعَا.. اسْتُجِيبَ لَهُ، فَإِنْ تَوَضَّأَ وَصَلَّى قُبِلَتْ صَلَاتُهُ**»[٢].

والمعنى: إنَّ من استيقظ من نومه فشرع يتكلم من فوره بالذِّكر الوارد فإنَّه يُبشَّر بدعاءٍ مستجابٍ وصلاةٍ مقبولة، وإنَّما يتفق ذلك لمن تعوَّد الذِّكرَ واستأنسَ به وغلب عليه حتى صار حديث نفسه في نومه ويقظته[٣].

وكأني **بابن بطَّالٍ** رحمه الله قد طَرِبَ لهذا الحديث؛ فإنه عقَّب عليه بكلامٍ لا ينبغي أن يفوت، قال رحمه الله: هذا حديثُ عبادةٍ شريفٌ عظيمُ القدر، وفيه ما وعد الله عباده على التيقظ من نومهم وألسنتهم تلهج بشهادة التوحيد له والربوبية، والإذعان له بالملك، والاعتراف له بالحمد على جزيل نعمه التي لا تحصى، وأفواههم رطبةٌ بالإقرار له بالقدرة التي لا تتناهى، وقلوبهم مطمئنةٌ بحمده وتسبيحه وتنزيهه عما لا يليق بالإلهية من صفات النقص، والتسليم له بالعجز عن القدرة عن نيل شيءٍ إلا به سبحانه وتعالى.

فإنَّه وعد بإجابةِ دعاء من بهذا دعاه، وقبول صلاة من بعد ذلك صلَّى، وهو تعالى لا يُخلف الميعاد، وهو الكريم الوهاب.

فينبغي لكلِّ مؤمنٍ بلغه هذا الحديث أن يغتنم العمل به، ويخلص نيته لربِّه العظيم أن يرزقه حظًّا من قيام الليل، فلا عون إلا به، ويسأله فكاك رقبته من النار، وأن يوفقه لعمل الأبرار، ويتوفاه على الإسلام[٤].

٣) **مسح الوجه**: لحديث الصحيحين عن **ابن عباس** رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا لَمَّا بات عند خالته ميمونة،

---

(١) التعار: اليقظة مع صوت. انظر: فتح الباري (٣/ ٤٠).
(٢) صحيح البخاري، رقم الحديث: (١١٥٤).
(٣) فتح الباري لابن حجر (٣/ ٤٠).
(٤) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٣/ ١٤٧-١٤٨).

وفيه: «حَتَّى إِذَا انْتَصَفَ اللَّيْلُ أَوْ قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ أَوْ بَعْدَهُ بِقَلِيلٍ اسْتَيْقَظَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَجَلَسَ يَمْسَحُ النَّوْمَ عَنْ وَجْهِهِ بِيَدِهِ»[1].

٤) **قراءة خواتيم آل عمران ثم الوضوء والاستياك والصلاة:** ففي الصحيحين أيضًا عن **ابْنِ عَبَّاسٍ** رضي الله عنهما قَالَ: بِتُّ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ فَتَحَدَّثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَ أَهْلِهِ سَاعَةً ثُمَّ رَقَدَ، فَلَمَّا كَانَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ قَعَدَ، فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، ثُمَّ قَامَ فَتَوَضَّأَ وَاسْتَنَّ[2] فَصَلَّى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً»[3].

وهذه الآيات الإحدى عشرة زاخرةٌ بالمعاني والقواعد الكلية، وثمة رسائل فيها تغرس الإيمان غرسًا، وتبني التصورات الشرعية في الإنسان بناءً محكمًا، وهذا مما يُعرف من كتب التفاسير المطولة.

٥) **افتتاح القيام بركعتين خفيفتين:** وهذا ثابتٌ عن النبي ﷺ من قوله وفعله كما مرَّ في هديه ﷺ في التعبد، والمعنى فيهما: لينشط بهما لما بعدهما.

٦) **البدء في صلاة التهجد:** مع الاجتهاد في تحسينها والتفاعل مع الآيات فيها بسؤال الرحمة والتعوذ وغيره بحسب القراءة كما مرَّ من هديه ﷺ في التعبد مفصلًا، ويعين على ذلك أن يجعل الصلاة زمنًا يلتزم به لا قدرًا من الآيات أو الصفحات ينتهي إليه كما مرَّ في الأصل الثالث من الأصول الكلية للتعبد والعمل.

وعلى هذا؛ فإذا وجد قلبه في القيام أو في الركوع أو في السجود أو منَّ الله عليه بالبكاء من خشيته سبحانه أو بتضرعٍ ومناجاةٍ وحسنِ مسألةٍ.. فإنه يستمر في ذلك ولا يقطع، ولا يصدنه عن ذلك ما هيَّأه في نفسه من ركعاتٍ يصليها أو عددٍ من الآيات يتلوها؛ فإنَّه ما هيَّأ ذلك إلا لمظنة صلاح قلبه به، فإذا جاءه ما يطلب من طريقٍ أحسن تشبث به، وإنما المقصود حصول مثل هذه المقامات الفاضلة التي صار عليها، فإذا حصلت فكأنما ظفر

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (١٨٣)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٨٢٥).
(٢) أي: استاك.
(٣) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٤٥٦٩)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٦١٩).

بفريسته فليشدَّ يده عليها ويغتنمها لئلا تنفلت منه، فقلَّ أن يجدها.

ولأجل هذا المعنى قال **أبو سليمان الداراني** رحمه الله: «**إِذَا لَذَّتْ لَكَ الْقِرَاءَةُ فَلَا تَرْكَعْ وَلَا تَسْجُدْ، وَإِذَا لَذَّ لَكَ الرُّكُوعُ فَلَا تَقْرَأْ وَلَا تَسْجُدْ، وَإِذَا لَذَّ لَكَ السُّجُودُ فَلَا تَقْرَأْ وَلَا تَرْكَعْ**»[١].

ومن زيادة الفضلِ أن يعتنيَ بما يبلِّغُه أجرَ قيامِ ليلةٍ وإن لم يقمها حقيقة؛ فهو جزاء لا إجزاء، والأعمال التي من شأنها ذلك متعددة، مما يعني أنَّ بإمكانه أن يأخذ أجر قيام عدة ليالٍ في ليلةٍ واحدة، ومن هذه الأعمال ما يلي:

١) **صلاة العشاء والفجر في جماعة:** أخرج **مُسْلِمٌ** في صحيحه من حديث **عثمانَ بنِ عفان** رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا صَلَّى اللَّيْلَ كُلَّهُ**»[٢].

قلت: ولعله لأجل ذلك قال **سعيدُ بن المسيب**: من شهد العشاء ليلة القدر فقد أخذ بحظٍّ منها[٣].

٢) **إتمام صلاة التراويح مع الإمام بما في ذلك صلاةُ الوتر:** فقد أخرج أصحاب السنن عن **أبي ذرٍّ** رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**مَنْ قَامَ مَعَ الْإِمَامِ حَتَّى يَنْصَرِفَ كُتِبَ لَهُ قِيَامُ لَيْلَةٍ**»[٤] صححه الألباني.

وإذا استحضرت شهرة هذا الحديث بين الناس، ثم نظرت إلى كثرة من يترك العمل به.. علمت أنَّ **قضيَّةَ التعبد قضية توفيقٍ وحرمان لا معرفةٍ وبيان.**

أما من عمد لتأخير صلاة الوتر لآخر الليل فإنَّه يزيدُ مع إمامه ركعةً بنية القيام إذا لم يَخْشَ بالتجربة أن تغلبه عيناه.

٣) **قراءة خواتيم البقرة:** فقد أخرج الشيخانِ عن **أبي مسعود البدري** رضي الله عنه قال: قال

---

(١) المدخل للعبدري (٣/ ٣٠١).
(٢) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٥٢٣).
(٣) شرح السنة للبغوي (٦/ ٣٩٠).
(٤) سنن أبي داود، رقم الحديث: (١٣٧٧)، سنن الترمذي، رقم الحديث: (٨٠٦)، سنن النسائي، رقم الحديث: (١٣٦٣)، سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (١٣٢٧) واللفظ للترمذي.

رسول الله ﷺ: «**الْآيَتَانِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مَنْ قَرَأَهُمَا فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ**»(١).

وقوله: «**كفتاه**» قال **الحافظ ابن حجر**: أي أجزأتاه عن قيام الليل بالقرآن، ثم ساق أقوالًا أخرى مصدرةً بلفظ قيل إلى أن قال: والوجه الأول ورد صريحًا من طريق **عاصم** عن **علقمة** عن **أبي مسعود** رَفَعَهُ أنه قال: «**من قرأ خاتمة البقرة أجزأت عنه قيام ليلة**»(٢).

وهاتان الآيتان لهما قدرٌ خاصٌّ في الشريعة؛ إذ كانتا من جملة عطاءات الله لنبيه ﷺ ليلة الإسراء والمعراج؛ روى **مسلمٌ** في صحيحه عَنْ **عَبْدِ الله** قال: لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ الله ﷺ انْتُهِيَ بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى.. إلى أن قال: **فَأُعْطِيَ رَسُولُ الله ﷺ ثَلَاثًا: أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَغُفِرَ لِمَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِالله مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا الْمُقْحِمَاتُ**»(٣).

والْمُقْحِمَاتُ: هي الذنوبُ العظامُ الكبائرُ التي تُهلِكُ أصحابَها وتوردهم النار وتقحمهم فيها، والتقحم: الوقوع في المهالك، ومعنى الكلام: أنَّ من مات من هذه الأمة غير مشركٍ بالله غُفِر له المقحمات، والمراد -والله أعلم- بغفرانها: أنه لا يخلد في النار بخلاف المشركين، وليس المراد أنه لا يُعذَّب أصلًا؛ فقد تقرَّرت نصوص الشرع وإجماع أهل السنة على إثبات عذاب بعض العصاة من الموحدين(٤).

ويدل على عناية الصحابة رضي الله عنهم بهما ما روى **الدارميُّ** في سننه أن **عليًّا** رضي الله عنه قال: «**مَا كُنْتُ أَرَى أَنَّ أَحَدًا يَعْقِلُ يَنَامُ حَتَّى يَقْرَأَ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَإِنَّهُنَّ لَمِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ**»(٥).

٤) **قراءة خواتيم آل عمران**: وذلك لما روى **الدارميُّ** في سننه عَنْ **عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ** رضي الله عنه

---

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٤٠٠٨)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٩١٤).
(٢) فتح الباري (٩/ ٥٦) وانظر أيضًا شرح النووي على مسلم (٦/ ٩١-٩٢).
(٣) صحيح مسلم، رقم الحديث: (٤٤٩).
(٤) شرح النووي على مسلم (٣/ ٣).
(٥) سنن الدارمي، رقم الأثر: (٣٤٢٧).

أنَّه قَالَ: «مَنْ قَرَأَ آخِرَ آلِ عِمْرَانَ فِي لَيْلَةٍ كُتِبَ لَهُ قِيَامُ لَيْلَةٍ»[١].

وهذا الأثر حُكِمَ عليه بالضعف، ولكن الضعف إنما هو متعلقٌ بالفضل لا بذات العمل؛ فقد ثبت من فعل النبيِّ ﷺ؛ فكان إذا استيقظ من نومه بدأ بتلاوة هذه الآيات وهو ينظر إلى السماء كما مرَّ، ويكفي ثبوته للعمل به ولو لم يثبت خصوص الفضل المذكور، والمسلم ليس تاجرًا يشترط معرفة مقدار الربح ثم يقرر هل يعمل أو لا.

وهذه الآيات تُعَدُّ تلاوتُها عند الاستيقاظ من النوم مع النظر للسماء من لذائذ ما يفعله الإنسان في مفتتح يومه ولو افترضنا انفكاك تلاوتها عن الأجر كله، فكيف وهي معاملةٌ مع الربِّ الكريم سبحانه، ولا يخسر على الله أحد!

٥) **القيام بمائة آية**: فقد أخرج **أحمد** في مسنده عن **تميم الدَّارِيِّ** رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ بِمِائَةِ آيَةٍ فِي لَيْلَةٍ كُتِبَ لَهُ قُنُوتُ لَيْلَةٍ»[٢] صححه الألباني وحسَّنه شعيب الأرنؤوط بشواهده.

٦) **نية القيام**: لما روى **النسائي وابن ماجه** عَنْ **أَبِي الدَّرْدَاءِ** رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَتَى فِرَاشَهُ وَهُوَ يَنْوِي أَنْ يَقُومَ يُصَلِّي مِنْ اللَّيْلِ فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ حَتَّى أَصْبَحَ كُتِبَ لَهُ مَا نَوَى وَكَانَ نَوْمُهُ صَدَقَةً عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ»[٣] صححه الألباني.

٧) **الغسل يوم الجمعة والتبكير للخطبة**: فقد أَخْرَجَ أَصْحَابُ السُّنَنِ من حَدِيثِ **أوسِ بنِ أوس الثقفي** رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ غَسَّلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَاغْتَسَلَ، ثُمَّ بَكَّرَ وَابْتَكَرَ، وَمَشَى وَلَمْ يَرْكَبْ، وَدَنَا مِنَ الإِمَامِ فَاسْتَمَعَ وَلَمْ يَلْغُ.. كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ عَمَلُ سَنَةٍ أَجْرُ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا»[٤] صححه الألباني.

---

(١) سنن الدارمي، رقم الأثر: (٣٤٣٩).

(٢) مسند أحمد، رقم الحديث: (١٦٩٩٩).

(٣) سنن النسائي، رقم الحديث: (١٧٨٦)، سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (١٣٤٤) واللفظ للنسائي.

(٤) سنن أبي داود، رقم الحديث: (٣٤٥)، سنن الترمذي، رقم الحديث: (٤٩٦)، سنن النسائي، رقم الحديث: (١٣٨٠)، سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (١٠٨٧) واللفظ لأبي داود.

ثالثًا: **صلاة التراويح**:

صلاةُ التَّراويحِ من جملةِ قيام الليل، ولكنَّها تُفرد لما لها من قدرٍ من الخصوصية من جهة العدد والزمن والصفة؛ فإنَّها مبنيةٌ على الطول، ووردت مثنى مثنى، ولهذا ذهب الشافعية إلى أنه لو صلى أربعًا بتسليمةٍ واحدةٍ لم يصح؛ لأنَّه خلافُ المشروع، ولأنَّها لما شُرِعَت جماعةً أشبهت الفرائض فلا تُغيَّر عما وردت[1].

ومن ثم اتفقوا على أنَّها المراد من قوله ﷺ: «**مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»[2].

وقوله: «**إيمانًا**»؛ أي تصديقًا بوعد الله بالثواب عليه والاعتقاد بأنه حقٌّ وفرضٌ وطاعة.

وقوله: «**احتسابًا**»؛ أي إخلاصًا لله وطلبًا للأجر لا لقصدٍ آخر من رياءٍ أو غيرِهِ مما يخالف الإخلاص[3].

وصلاةُ التَّراويحِ متفقٌ على سُنيَّتِها، ولكن اختلف أهل العلم في عددها:

فذهب جمهورُ العلماء من الحنفية والشافعية والحنابلة إلى أنَّها عشرون ركعة بعشر تسليمات؛ وذلك لما رُوي أنَّ **عمرَ بن الخطاب** رضي الله عنه جمع أصحاب رسول الله ﷺ فيها على **أُبَيِّ بن كعب** رضي الله عنه فصلى بهم في كل ليلةٍ عشرين ركعة، ولم ينكر عليه أحدٌ فكان هذا إجماعًا منهم[4].

وإنما لم يَقُمْ بذلك **أبو بكر الصديق** رضي الله عنه إما لأنه رأى أنَّ قيامَ النَّاسِ آخر الليل وما هم عليه من الصَّلاةِ فرادى أفضل من جمعهم على إمام، وإما لاشتغاله واشتغال المسلمين بجهاد المرتدين عن ذلك، والجهاد آكدُ من صلاة التراويح، وخلافته لم تدم سوى سنتين، فلما تمهَّد الإسلامُ في زمن **عمر** رضي الله عنه ورأى الناس في المسجد أوزاعًا متفرقين جمعهم على إمامٍ واحد[5].

---

(١) مغني المحتاج للشربيني (١/ ٢٢٧).

(٢) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٣٧)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٨١٥).

(٣) فتح الباري لابن حجر (٤/ ١١٥، ٢٥١)، شرح النووي على مسلم (٦/ ٣٩)، التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي (١/ ٤٩٦).

(٤) بدائع الصنائع للكاساني الحنفي (١/ ٢٨٨)، مغني المحتاج للشربيني الشافعي (١/ ٢٢٦)، المغني لابن قدامة الحنبلي (١/ ٨٣٣).

(٥) الاعتصام للشاطبي ص (١٤٢).

وذهب المالكيةُ إلى أنَّها ستٌّ وثلاثون ركعة، واستدلوا بفعل أهل المدينة، قال الإمام مالك: هذا ما أدركت الناس عليه، وهذا الأمر القديم الذي لم تزل الناس عليه[١].

قال **الرافعي**: قال العلماء: وسبب فعلهم أنَّ الركعات العشرين خمس ترويحات، كل ترويحة أربع ركعات، وكان أهل مكة يطوفون بين كل ترويحتين سبعة أشواط، ويصلون ركعتي الطواف أفرادًا، وكانوا لا يفعلون ذلك بين الفريضة والتراويح ولا بين التراويح والوتر، فأراد أهل المدينة أن يساووهم في الفضيلة فجعلوا مكان كل أسبوعٍ من الطواف ترويحة وهي أربع ركعات، فتحصل أربع ترويحات وهي ست عشرة ركعة تنضم إلى العشرين، والوتر ثلاث ركعات، فتكون جملة الركعات تسعًا وثلاثين، فلذلك قال الشافعي: ورأيتهم بالمدينة يقولون بتسعٍ وثلاثين[٢].

وقال قوم: إنَّها ثماني ركعات؛ لما جاء في الصحيحين عَنْ **أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ** أَنَّهُ سَأَلَ **عَائِشَةَ** رضي الله عنها: كَيْفَ كَانَتْ صَلَاةُ رَسُولِ الله ﷺ فِي رَمَضَانَ؟ فَقَالَتْ: «**مَا كَانَ يَزِيدُ فِي رَمَضَانَ وَلَا فِي غَيْرِهِ عَلَى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً؛ يُصَلِّي أَرْبَعًا فَلَا تَسَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي أَرْبَعًا فَلَا تَسَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي ثَلَاثًا..**»[٣].

والحق أنَّ أعدل الآراء أن تُصلَّى عشرون ركعة؛ لأنَّ حديثَ **عائشة** رضي الله عنها لا يقتضي التحديد بالعدد، ولأنَّ الزيادةَ إلى العشرين من فعل الخلفاء والصحابة رضي الله عنهم المأمور بالأخذ بسنَّتهم، وقد صار على ذلك جماهير أهل العلم من المذاهب المتبوعة في سائر الأمصار والأقطار جيلًا بعد جيلٍ من غير نكير.

ثم إنَّ هذا هو الأرفق بالناس؛ إذ إنَّ مبنى صلاةِ التَّراويحِ على الإطالة، وكان النبيُّ ﷺ يطيل الصلاة جدًّا؛ فمرة قام حتى ذهب ثلث الليل، ومرة قام حتى

---

(١) المدونة (١/ ٢٨٧)، الذخيرة للقرافي (٢/ ٤٠٧).
(٢) الشرح الكبير للرافعي (٢/ ١٣٣)، مغني المحتاج للشربيني (١/ ٢٢٦).
(٣) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٢٠١٣)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٧٥٧).

ذهب شطر الليل، ومرة قام إلى قريبٍ من الفجر حتى قال الراوي: «فَقَامَ بِنَا حَتَّى خَشِينَا أَنْ يَفُوتَنَا الْفَلَاحُ»[1]؛ أي السحور.

فالإطالة بعشرين ركعة أرفق بالناس من الإطالة بثمانٍ كما لا يخفى، ومن القصور أن نأخذ السنة في أصلها ونهملها في وصفها، أعني بذلك: أنَّ من صلى بثمانٍ وطواها في ساعةٍ أو أقل لا أحسب أنَّه اتبع السنة؛ لأنَّ الحديثَ المُثْبِتَ للسُّنَّةِ نصَّ على الصِّفَةِ كما نصَّ على العدد.

اقرأ قول **عائشة** رضي الله عنها من جديد: «مَا كَانَ يَزِيدُ فِي رَمَضَانَ وَلَا فِي غَيْرِهِ عَلَى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً؛ يُصَلِّي أَرْبَعًا فَلَا تَسَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي أَرْبَعًا فَلَا تَسَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ».

فمن صلى ثماني ركعات على هذه الكيفية فلا بأس، ومن قصَّر عن ذلك فلا بأس إلا إن أساء بالإسراع المُخِل بأركان الصلاة أو بتعظيمها وإجلالها.

فتحصَّل أنَّ الأمرَ واسعٌ من جهة العدد، ولا ينبغي أن يقود إلى الخلاف.

وتطرَّق شيخ الإسلام **ابن تيمية** لهذه المسألة فقال: «تنازع العلماء في مقدار القيام في رمضان؛ فإنَّه قد ثبت أن **أبيَّ بن كعب** رضي الله عنه كان يقوم بالناس عشرين ركعة في قيام رمضان ويوتر بثلاث، فرأى كثيرٌ من العلماء أنَّ ذلك هو السنة؛ لأنَّه أقامه بين المهاجرين والأنصار ولم ينكره منكر.

واستحب آخرون تسعًا وثلاثين ركعة؛ بناءً على أنَّه عملُ أهلِ المدينةِ القديم.

وقال طائفة: قد ثبت في الصحيح أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم لم يكن يزيد في رمضان ولا في غيره على ثلاث عشرة ركعة.

واضطرب قومٌ في هذا الأصل لما ظنُّوه من معارضة الحديث الصحيح لما ثبت من سنة الخلفاء الراشدين وعمل المسلمين.

---

(١) سنن أبي داود، رقم الحديث: (١٣٧٥).

والصَّواب أنَّ ذلك جميعه حسن كما نص على ذلك الإمام **أحمد** رضي الله عنه، وأنَّه لا يتوقَّت في قيام رمضان عدد؛ فإنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم لم يُوقِّت فيها عددًا، وحينئذٍ فيكون تكثير الركعات وتقليلها بحسب طول القيام وقصره.

فإنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان يطيل القيام بالليل حتى إنَّه قد ثبت عنه في الصحيح من حديث **حذيفة** رضي الله عنه أنه كان يقرأ في الركعة بالبقرة والنساء وآل عمران، فكان طول القيام يغني عن تكثير الركعات.

وأبيُّ بنُ كعب رضي الله عنه لمَّا قام بهم وهم جماعةٌ واحدةٌ لم يمكن أن يطيل بهم القيام، فكثَّر الركعات ليكون ذلك عوضًا عن طول القيام، وجعلوا ذلك ضِعْفَ عددِ ركعاته صلى الله عليه وسلم؛ فإنَّه صلى الله عليه وسلم كان يقوم بالليل إحدى عشرة ركعة أو ثلاث عشرة ركعة، ثم بعد ذلك كان الناس بالمدينة ضعفوا عن طول القيام فكثَّروا الركعات حتى بلغت تسعًا وثلاثين»[(١)].

وصفوة القول:

إنَّ مبنى صلاةِ التَّراويح على الإطالة، وأوسطُ الآراء وأعونُها على تحقيق المقصود قولُ الصَّحابةِ رضي الله عنهم إذ ذهبوا إلى أنَّها عشرون ركعة، فمن حاكى النبيَّ صلى الله عليه وسلم في فعله فلا بأس، وينبغي أن يحرص على تحقيق صفة الصلاة كما حرص على العدد.

وصلاة التراويح نفسها سُمِّيت بذلك؛ لأنهم كانوا يتروحون عقبها؛ أي يستريحون[(٢)].

فاسمها يحمل دلالةَ تطويلها؛ تمييزًا لها عن غيرها من الصلوات.

وخفف بعض العلماء في ذلك رعايةً لضعف الناس وما صارت عليه أحوالهم من الدَّعة والتراخي، ولا بأس بذلك بشرط توافر أمرين:

الأول: ألا يصل التخفيفُ بما يعود عليها بالإخلال، ومن ذلك ما يُرَى من تنافس بعض الأئمة على نَقْرِهَا بدل أن يتنافسوا على تحقيقها بالصفة الواردة عليها من العدد

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٣/ ١١٢-١١٣).
(٢) مغني المحتاج للشربيني (١/ ٢٢٦).

والخشوع بما يشي بتعظيم قدر الصلاة وإجلال الله سبحانه بحسن الوقوف بين يديه.

وتطرق الشيخ **عبد العزيز الطريفي** فرَّج الله كربه لهذه الظاهرة وأبرزها بمقارنتها مع صلاة المتقدمين فقال: سُمِّيت التراويح بهذا الاسم لأنهم يستريحون أثناء الصلاة لطولها، كان **عمر** رضي الله عنه يريحهم قدر ما يذهب الرجل من المسجد إلى سلع، وهو جبل يبعد عنهم ٧٠٠ متر، وكان أيوب يجعل الاستراحة مقدار ثلاثين آية، **وصلاة بعض المتأخرين تساوي استراحات السالفين**[١].

الثاني: ألا يتواطأ الناس في بلدٍ على تخفيفها غاية التخفيف عددًا وصفةً، وبهذا يُحرم من أراد أن يصليها على وجهها ولو بأدنى مراتب الكمال، فلا بد أن يكون في كل قريةٍ أو مدينةٍ مسجدٌ يصلي مثلًا بعشرين ركعةٍ ويقرأ في الليلة بجزءٍ أو نحوه، وبهذا يُجمع بين تفاوت أحوال الناس في إقبالهم وأداء العبادة على وجهها الوارد.

والناس قد يشق عليها شيء، فإذا رأته ورأت من يفعله سهل عليها.

أعني بذلك: أنَّ المجتمعَ الذي اعتاد أهله أن يصلوا بثماني ركعات يشق عليهم أن يُفرض عليهم القول بعشرين، لا سيما وفيهم المريض وذو الحاجة، فإذا سَرَتْ ثقافةُ الصَّلاةِ بعشرين مع تجويدها، ورأوا ما فيها من خشوعٍ ومشاعر فياضة لا سيما إذا أوتي الإمام صوتًا خاشعًا.. فإنهم يأنسون، ويبقى الأمرُ على ذلك إلى أن تتوغل الثقافة في الناس شيئًا فشيئًا.

وكلما كان الإمام أندى صوتًا وأبلغ خشوعًا وأكثر سكينةً هان على الناس طولها وربما تمنى كثيرٌ منهم زيادة الإطالة استئناسًا بها.

وأنبه أخيرًا إلى أنَّ بعضَ من يستثقل طول الصلاة أو كثرة عددها مرد أمره إلى أنه يكثر من الطعام على الإفطار ثم يأتي التراويح ثقيلًا لا يكاد يعي ما يُتلى ومن ثم يقول للإمام: من أمَّ منكم فليخفف، فهذا نقول له: مبنى صلاة التراويح على الإطالة، ولكن من أفطر منكم فليخفف.

---

(١) أسطر في النقل والعقل والفكر للطريفي ص (١٠٨).

ومن اعتنى بدينه ضَحَّى بشيءٍ من دنياه، فلا يجتمع بطنٌ وعقل، فالعقل يخمل بالإكثار من الطعام وينشط بالإقلال منه، وقديمًا قالت العرب: البِطنة تُذهب الفطنة، فرحم الله عبدًا تنازل عن رغبته وشهوته لصالح إيمانه وتربيته.

وأوصي أخي القارئ أن يُبالغ في تعظيم قدر صلاة التراويح؛ فإنَّها قيام الليل في رمضان الوارد في الأحاديث، ومن صُوَرِ وُفُورِ عناية المتعبد بصلاة التراويح وتعظيمه لها أن يقصد المسجد الذي يطيل إمامه الصلاة، ويكون على صوتٍ خاشع؛ فإنَّه يعين على تدبر ما يُتلى في الصلاةِ من آيات، ولا بأس لو تعنَّيتَ بالذهاب إلى مسجدٍ بعيد إذا تيسَّر لك، فإصلاح القلب مقصدٌ يستحق التضحية، وحذار أن تفرط في هذا لأيِّ اعتبارٍ كان.

والله الموفق وحده.

رابعًا: صلاة الضحى:

روى **مسلمٌ** في صحيحه عَنْ **أَبِي ذَرٍّ** رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى**»(١).

وصلاةُ الضحى كانت من جملةِ وصايا النبيِّ ﷺ لأصحابه:

روى **البخاري** و**مسلم** عن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: «**أَوْصَانِي خَلِيلِي ﷺ بِثَلَاثٍ: صِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَرَكْعَتَيْ الضُّحَى، وَأَنْ أُوتِرَ قَبْلَ أَنْ أَنَامَ**»(٢).

وروى **مسلمٌ** عن **أبي الدرداء** رضي الله عنه قال: «**أَوْصَانِي حَبِيبِي ﷺ بِثَلَاثٍ لَنْ أَدَعَهُنَّ مَا عِشْتُ: بِصِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَصَلَاةِ الضُّحَى، وَبِأَنْ لَا أَنَامَ حَتَّى أُوتِرَ**»(٣).

---

(١) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٧٠٤).
(٢) صحيح البخاري، رقم الحديث: (١٩٨١)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٧٠٥) واللفظ للبخاري.
(٣) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٧٠٨).

وصلاةُ الضُّحَى أقلُّها ركعتان؛ لحديث **أبي هريرة** رضي الله عنه المتقدم وفيه: «**وَرَكْعَتَيْ الضُّحَى**»، وكذا لحديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه وفيه: «**وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى**».

وأكملُها ثماني ركعات؛ لما جاء في الصحيحين أنَّه صلَّى يوم الفتح ثماني ركعات ضحىً[1].

وأوسطها أربع؛ روى **مسلمٌ** في صحيحه أن **معاذة** رضي الله عنها سألت **عائشة** رضي الله عنها: كَمْ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُصَلِّي صَلاَةَ الضُّحَى؟ قَالَتْ: أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ وَيَزِيدُ مَا شَاءَ»[2].

قال **ابن علان الشافعي**: وقضية هذا الحديث أنه لا حصر للزيادة، ولكن باستقراء الأحاديث الصحيحة والضعيفة عُلِمَ أنَّه لم يَزِد على الثمان[3].

وقال **النووي**: حاصل ما في الأحاديث أنَّ الضحى سُنَّةٌ مؤكدة، وأنَّ أقلَّها ركعتان، وأكملَها ثمانٍ، وبينهما أربعٌ أو ست كلاهما أكمل من ركعتين ودون ثمانٍ[4].

أما وقتها: فمن ارتفاع الشمس قدر رمحٍ عقب الشروق إلى الزوال، فتُصلَّى لما قبيل الظهر بعشر دقائق.

ويُندب تأخيرها إلى وقت شدة الحر؛ روى **مسلم عَنِ الْقَاسِمِ الشَّيْبَانِيِّ أَنَّ زَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ** رَأَى قَوْمًا يُصَلُّونَ مِنَ الضُّحَى فَقَالَ: أَمَا لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ الصَّلاَةَ فِي غَيْرِ هَذِهِ السَّاعَةِ أَفْضَلُ؛ إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**صَلاَةُ الأَوَّابِينَ حِينَ تَرْمَضُ الْفِصَالُ**»[5].

والفصال جمع فصيل وهو ولد الناقة الصغير الذي لم يستكمل سنة، وسُمِّي بذلك لأنَّه يُفصَلُ عن أُمِّهِ، فهذا يمشي في بكرة النهار مستريحًا، فإذا ارتفعت الشمس واشتدت حرارتها لم يَقْوَ على المشي بارتياح؛ لأن خفَّه غيرُ قويٍّ بعدُ لصغر سنه، ومن ثم يلجأ إلى الظل أو يربض على الأرض توقيًا من أذى الرمضاء.

---

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٣١٧١)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٧٠٢).
(٢) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٦٩٦).
(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (٦/ ٤٦٢).
(٤) شرح النووي على مسلم (٥/ ٢٢٩-٢٣٠).
(٥) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٧٨٠).

فهذا الوقت هو أفضل أوقات صلاة الضحى وإن كانت تجوز قبله وبعده[١].

والغالب أن هذا يقع في منتصف الوقت بين طلوع الشمس والزوال، وهو وقت ربع النهار، ولهذا نصَّ الفقهاء على أنَّ الوقتَ المختارَ لصلاةِ الضحى هو ربع النهار، على أنَّه قد يقع في غيره، ووقوعه أقرب إلى وقت الزوال أكثر من وقوعه أقرب إلى وقت طلوع الشمس، ولهذا فتأخير الضحى أفضل من التبكير فيها.

ولعل من حكمة ذلك: ألا يخلو كلُّ ربعٍ من النهار عن عبادة؛ ففي الربع الأول صلاة الصبح، وفي الثاني صلاة الضحى، وفي الثالث صلاة الظهر وفي الرابع صلاة العصر[٢].

ولعلَّ من الحكمة أيضًا: أنَّ هذا الوقت وقتُ غفلة؛ فالناس يكونون مشتغلين فيه عادةً بمعاشهم ومصالحهم الدنيوية، وقلما كان الإنسان متفرغًا فيه، فإذا انتبه لأمر تَعَبُّدِهِ ووقف بين يدي ربه بضع دقائق يصلي.. فإنَّ هذا يقع موقعًا من الفضل، ويكون أبلغ في القربة إلى الله تعالى، على أنَّه لو خشي فواتها والاشتغال عنها فليصلها متى شاء بما تيسَّر له[٣].

وهذا التعليل منسجمٌ مع هديه ﷺ؛ فقد تقدم أنه ﷺ كان يراعي بعض الأوقات والأحوال، ومن ذلك أنه كان يصوم شهر شعبان وقال: «**ذَلِكَ شَهْرٌ يَغْفُلُ النَّاسُ عَنْهُ بَيْنَ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ**»، فأوقع العبادة فيه لأنه وقت غفلة.

ووقتُ الغفلةِ مظنَّةُ الذهولِ عن العبادة فيه، أو أنه يفعلها فيه على شيءٍ من المشقة، فإذا تيقظ المتعبد للعبادة فيه وتعنَّى فإنَّ ذلك يُقدِّمه عند ربه ويقربه منه.

ولعل تسمية صلاة الضحى بصلاة الأوابين في حديث **زيد بن أرقم** رضي الله عنه متصلةٌ بهذا المعنى؛ فالأوَّاب هو الرَّجَّاعُ من الغفلة إلى الحضور ومن الذنب إلى التوبة[٤].

---

(١) شرح النووي على مسلم (٦/ ٣٠)، التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي (٢/ ١٨٩)، حاشية البجيرمي على الخطيب (٣/ ٤٦٩).

(٢) حاشية الطحاوي على مراقي الفلاح ص (٢٦١)، المجموع للنووي (٤/ ٣٦)، نهاية المحتاج للرملي (٢/ ١١٨)، إعانة الطالبين (١/ ٢٥٥).

(٣) شرح زاد المستقنع للشيخ محمد بن محمد المختار الشنقيطي، الشريط رقم: (٥٥).

(٤) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (٦/ ٤٦٣).

وجاء في فضلها المُسمَّى ما يشير إلى هذا؛ فقد روى **الترمذي** من حديث **أَبِي الدَّرْدَاءِ أَوْ أَبِي ذَرٍّ** رضي الله عنهما عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَنْ اللهِ عز وجل أَنَّهُ قَالَ: «**ابْنَ آدَمَ ارْكَعْ لِي مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ أَكْفِكَ آخِرَهُ**»(١) صححه الألباني.

ورواه **أبو داود** عَنْ **نُعَيْمِ بْنِ هَمَّارٍ** رضي الله عنه بلفظ: «**يَا ابْنَ آدَمَ لاَ تُعْجِزْنِي مِنْ أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ فِي أَوَّلِ نَهَارِكَ أَكْفِكَ آخِرَهُ**»(٢) صححه الألباني.

فقد فسَّره جمعٌ من أهل العلم بصلاة الضحى(٣)، وأخرجه **أبو داود والترمذي** في باب صلاة الضحى، ووجهه: أنَّ الضحى من جملة أول النهار، ولهذا جاءت في مقابل الليل في قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١، ٢](٤).

والشاهد فيه قوله: «**أَكْفِكَ آخِرَهُ**»؛ أي أكفك شغلك وحوائجك وأرفع عنك ما تكرهه بعد صلاتك إلى آخر النهار.

فظاهرٌ فيه المكافأة الربانية لمن اشتغل بأمر الله في وقت غفلة الناس وشغلهم، فجوزي من نفس الجهة، فكما أن الإنسان يشتغل بكفاية أمره وحوائجه فإنه إذا آثر أخراه كفاه الله أمر دنياه.

ومما لا تخطئه العين أنَّ الإنسانَ قد يشهد صلاة الظهر في جماعةٍ ولكنه يترك السنة الراتبة القبلية لاشتغاله بالعمل، فكيف بما كان قبلها في ذروة اشتغاله بأمر المعاش!

ولهذا كما عَظُمَ الأجر في صلاة الضحى فقد عَظُمَ في النافلة القبلية والبعدية للظهر حدَّ الدهشة؛ فقد روى أصحاب السنن عن **أم حبيبة** رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أنها قالت: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ صَلَّى قَبْلَ الظُّهْرِ أَرْبَعًا وَبَعْدَهَا أَرْبَعًا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ**»(٥).

---

(١) سنن الترمذي، رقم الحديث: (٤٧٥).
(٢) سنن أبي داود، رقم الحديث: (١٢٩١).
(٣) المجموع للنووي (٤/ ٣٩)، أسنى المطالب في شرح روضة الطالب لزكريا الأنصاري (١/ ٢٠٤).
(٤) وهناك من حمل الركعات الأربع على سُنَّة الصبح وفرضه، أو على ما يُصلى عند الإشراق، والظاهر من الحديث أنَّهن صلاة الضحى وهذا الذي عليه عمل الناس. انظر: مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للرحماني المباركفوري (٤/ ٣٥٢).
(٥) سنن أبي داود، رقم الحديث: (١٢٧١)، سنن الترمذي، رقم الحديث: (٤٢٧)، سنن النسائي، رقم الحديث: (١٨١٤)، سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (١١٦٠) واللفظ للترمذي.

وتدل رواية **أبي داود** ورواية عند **الترمذي** على أنَّ ذلك لمن داوم على هذا العمل وواظب عليه، وصدر الرواية: «مَنْ حَافَظَ عَلَى أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ..».

خامسًا: النفل المطلق:

تقدَّم أنَّ تكثيرَ الوقوفِ بين يدي الله من محبوباتِ الله تعالى، ويدل عليه أنَّ الصَّلاةَ حين فُرضت أول مرة فُرضت خمسين صلاة، ثم بقي التخفيف يتكرر حتى انتهى إلى خمس صلوات؛ رعايةً للضعف البشري، ليبقى تكثير الصلاة محبوبًا إلى الله تعالى، فيفعله أولو الألباب وذوو العزائم بحسب الاستطاعة والنشاط.

وهذا أمرٌ ظاهرٌ من فعل النبيِّ ﷺ، وقد تقدم أنَّ الاستكثارَ من النَّوافلِ كان من هديه ﷺ في التعبد، ومن تصريحه ﷺ في ذلك: ما جاء عند **الطبراني** في معجمه الأوسط من حديث **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**الصَّلاةُ خيرُ موضوعٍ، فمن استطاع أن يَسْتكثِر فليستكثر**»[1] حسنه الألباني.

وقوله: «**خير موضوع**»؛ أي خيرُ عملٍ وَضَعَهُ الله تعالى لعباده ليتقربوا به إليه[2].

وفي هذا برهانُ حبِّ العبد لربه، وحب الوقوف بين يديه، فيقبل على عبادة ربه إخلاصًا لا تخلصًا، تقربًا لا تهربًا.

حدثني عن شعورك لو أنك صلَّيت فرضَ الظهر مثلًا وسُنَّتَهُ الراتبة القبلية والبعدية، ثم قمت بعد ذلك أو فيما بين الظهر والعصر تضع سجادتك وتبدأ في الصلاة من غير أن تكون هذه الصلاة فرضًا أو قضاءً أو سنةً راتبة، ولكنك تقف بين يدي الله محبةً له وشوقًا إليه وتعظيمًا وإجلالًا.

إنَّ هذه الصلاة ولو لم تستغرق إلا دقائق فهي التي تُقدِّمك وترفعك عند ربك، وهي التي تدنيك منه وتجلب حبَّه لك؛ ليكون جزاؤك من جنس عملك، فكما أنك أحببت ربك وأحببت الوقوف بين يديه فإنَّه سبحانه يحبك بإذنه وفضله جلَّ وعلا.

(١) المعجم الأوسط، رقم الحديث: (٢٤٣).
(٢) تحفة الأحوذي للمباركفوري (٨/ ١٨٤)، دليل الفالحين لابن علان (٢/ ٤٥٠).

عطِّر أنفاسَك بدليلِ ذلك والعطاءات التي يكرمك بها إذا أحبك:

روى **البخاري** في صحيحه عَنْ **أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ..**»[1].

وهذا يجعل الإنسان مجتهدًا في الاستكثار من النوافل ما شاء، على أنَّ التفاعل مع السنن الواردة يحقق قدرًا حسنًا من ذلك من مثل صلاة الضحى والسنن الراتبة والتهجد وسنة الوضوء ودخول البيت والخروج منه وتحية المسجد، فضلًا عمَّا يعرض له من صلاة الخسوف والكسوف والاستسقاء والعيدين والجنازة وأضراب ذلك.

وإذا عرضت له حاجةٌ قام وصلَّى صلاةَ الحاجة، فإذا عرض له الأمر يحتاج أن يستخير فيه صلى صلاة الاستخارة، فإن حزبه أمرٌ قام إلى الصلاة، وهذه أمورٌ لا ينفكُّ عنها الإنسان، فتؤدي بمجموعها إلى تكثير العبادة إذا تفاعل معها[2].

هذا كله بالإضافة إلى المواسم الفاضلة من مثل تهجد العشر الأواخر في رمضان وصلاة التراويح، بالإضافة لما يتيسر له من الصلاة قبل الجمعة بقدر تبكيره؛ فإنَّ من السُّنَّةِ أن يُبكِّر ويصلي ما شاء الله له أن يصلي.

روى **البخاري** في الصحيح عَنْ **سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ** رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا يَغْتَسِلُ رَجُلٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَيَتَطَهَّرُ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ طُهْرٍ وَيَدَّهِنُ مِنْ دُهْنِهِ أَوْ يَمَسُّ مِنْ طِيبِ بَيْتِهِ ثُمَّ**

---

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٦٥٠٢).

(٢) ما ورد في هذه الفقرة والتي قبلها من أفراد الصلوات مما لم يُفرَد بكلام كان من رغبتي أن أفرد الكلام فيه، لكنني آثرت الإيجاز؛ لأنَّ الكلامَ عن كل صلاةٍ سيطيل الكتاب، ولعلَّ الكلام يتناوله من بعض الوجوه إذا يسَّر الله كتابة الجزء الثاني من هذا الكتاب المخصص للأحكام الفقهية المتعلقة بالتعبد.

يَخْرُجُ فَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، ثُمَّ يُصَلِّي مَا كُتِبَ لَهُ ثُمَّ يُنْصِتُ إِذَا تَكَلَّمَ الْإِمَامُ.. إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْأُخْرَى»(١).

والصلاة قبل الجمعة لا حدَّ لها، وأقلها ركعتان تحية المسجد، فيصلي ما شاء الله له أن يصلي؛ كعشر ركعاتٍ أو عشرين أو أقل من ذلك أو أكثر.

ولا تُمنَعُ الصَّلاةُ عند استواء الشمس يوم الجمعة؛ فإنَّ هذا الوقت مستثنىً من الأوقات المكروهة عند الإمام **الشافعي** ومن وافقه(٢).

الفرع الثاني: الصيام والاعتكاف

وأعرض مادته في البنود الأربعة الآتية:

أولًا: فضيلة الصيام:

روى الشيخان عَنْ **أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «قَالَ اللهُ: كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصِّيَامَ؛ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرْفُثْ وَلَا يَصْخَبْ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ، لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ»(٣).

وفي لفظٍ عند **مسلم**: «كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِلَّا الصَّوْمَ؛ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي..»(٤).

وروى الشيخان عَنْ **أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ** رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَصُومُ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللهِ إِلَّا بَاعَدَ اللهُ بِذَلِكَ الْيَوْمِ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا»(٥).

---

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٨٨٣).
(٢) عمدة القاري (٦/ ١٧٥) حاشية السندي على صحيح البخاري (١/ ١٤٦)، زاد المعاد لابن القيم (١/ ٣٧٨)، مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ٤٥٧)، نهاية المحتاج للرملي (١/ ٣٨٤).
(٣) صحيح البخاري، رقم الحديث: (١٩٠٤)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٢٧٦٢).
(٤) صحيح مسلم، رقم الحديث: (٢٧٦٣).
(٥) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٢٨٤٠)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٢٧٦٧) واللفظ لمسلم.

ثانيًا: صيام الأيام الفاضلة:

ومن ذلك الأنواع السبعة الآتية:

١- صيام الست من شوال:

روى **مسلمٌ** في صحيحه عَنْ **أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ** رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: **«مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ»**[١]؛ أي السنة.

وذلك أنَّ صيامَ رمضان بعشرة أشهر، وصيام الستة من شوال بشهرين، فذلك كصيام السنة[٢]، والمراد أنَّه كصيامها فرضًا، فيأخذ صائمها أجر الواجب، وإلا.. فلا خصوصية لكون الستة من شوال؛ لأنَّ الحسنةَ بعشرِ أمثالها في شوال وغيره[٣].

والأفضل صومها متصلةً بيوم العيد على التتابع، وإن حصلت السُّنَّةُ بصومها جوف الشهر أو تفريقها في جميعه.

٢،٣- صيام التسع من ذي الحجة وثلاثة أيام من كل شهر:

روى **أبو داود والنسائي** عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ **أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَصُومُ تِسْعًا مِنْ ذِي الْحِجَّةِ وَيَوْمَ عَاشُورَاءَ وَثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ أَوَّلَ اثْنَيْنِ مِنَ الشَّهْرِ وَخَمِيسَيْنِ»**[٤] صححه الألباني.

٤،٥- صيام يوم عرفة ويوم عاشوراء:

روى **مسلم** في صحيحه أن النبيَّ ﷺ قال: **«صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ أَحْتَسِبُ عَلَى الله أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ وَالسَّنَةَ الَّتِي بَعْدَهُ، وَصِيَامُ يَوْمِ عَاشُورَاءَ أَحْتَسِبُ عَلَى الله أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ»**[٥].

---

(١) صحيح مسلم، رقم الحديث: (٢٨١٥).
(٢) وعلى القول بأنَّ المراد بالدهر في الحديث العمر؛ فإنه إذا صام رمضان وستًّا من شوال في كل سنة.. كان كمن صام العمر كله.
(٣) نهاية المحتاج للرملي (٣/ ٢٠٨)، مغني المحتاج للشربيني (١/ ٤٤٧).
(٤) سنن أبي داود، رقم الحديث: (٢٤٣٩)، سنن النسائي، رقم الحديث: (٢٤١٦) واللفظ للنسائي.
(٥) صحيح مسلم، رقم الحديث: (٢٨٠٣).

ومحل ندب صيام يوم عرفة لغير الواقف بعرفة، أما هذا فلا يصوم؛ وذلك ليتقوى بالفطر على الدعاء وإن لم يضعف؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ لما فرغ من صلاة الظهر والعصر تقديمًا أتى الموقف واستقبل القبلة فلم يزل واقفًا يدعو حتى غربت الشمس، مما يعني أنَّ دعاءه استغرق نحوًا من خمس ساعات.

ولئن فاز صائم عرفة بتكفير سنتين فإنَّ الواقفَ بعرفة تُكفَّر ذنوب عمره كلها من غير صوم.

ومن الفضل الذي يمكن اقتناصه أن يُفطِّر الإنسان من تيسر له تفطيره يوم عرفة؛ إذ يُرجى له بذلك أن يُكفِّر الله عنه بكلِّ صائمٍ تكفير سنتين من الذنوب؛ لعموم قوله ﷺ: «مَنْ فَطَّرَ صَائِمًا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِ الصَّائِمِ شَيْئًا»[1] صححه الألباني.

فلو فطَّر عشرة أشخاص فيُرجى أن يُكفِّرَ الله عنه ذنوب عشرين سنة، وفضل الله واسع.

وقل مثل ذلك في صيام يوم عاشوراء ولكنه يكفر سنةً واحدة.

٦- صيام الأيام البيض:

روى **أبو داود** عَنِ **ابْنِ مِلْحَانَ الْقَيْسِيِّ** عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَأْمُرُنَا أَنْ نَصُومَ الْبِيضَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ وَأَرْبَعَ عَشْرَةَ وَخَمْسَ عَشْرَةَ، قال وقال: «هُنَّ كَهَيْئَةِ الدَّهْرِ»[2] صححه الألباني.

وروى **النسائي** عَنْ **أَبِي ذَرٍّ** رضي الله عنه قَالَ: «أَمَرَنَا رَسُولُ الله ﷺ أَنْ نَصُومَ مِنَ الشَّهْرِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ الْبِيضَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ وَأَرْبَعَ عَشْرَةَ وَخَمْسَ عَشْرَةَ»[3] حسنه الألباني.

---

(١) سنن الترمذي، رقم الحديث: (٨٠٧)، سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (١٧٤٦) واللفظ للترمذي.

(٢) سنن أبي داود، رقم الحديث: (٢٤٥١)، وروي عند ابن ماجه من رواية المنهال رضي الله عنه، وذلك في حديث رقم: (١٧٠٧).

(٣) سنن النسائي، رقم الحديث: (٢٤٢١).

٧- صوم الإثنين والخميس:

روى أصحابُ السُّنَنِ إلا أبا داود عَنْ **عَائِشَةَ** رضي الله عنها قَالَتْ: «**كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَحَرَّى صَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ**»[١] صححه الألباني.

وروى **أبو داود** عَنْ مَوْلَى **قُدَامَةَ بْنِ مَظْعُونٍ** عَنْ مَوْلَى **أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ** أَنَّهُ انْطَلَقَ مَعَ **أُسَامَةَ** إِلَى وَادِي الْقُرَى فِي طَلَبِ مَالٍ لَهُ فَكَانَ يَصُومُ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ فَقَالَ لَهُ مَوْلَاهُ: لِمَ تَصُومُ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ وَأَنْتَ شَيْخٌ كَبِيرٌ؟

فَقَالَ: إِنَّ نَبِيَّ الله ﷺ كَانَ يَصُومُ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، وَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: «**إِنَّ أَعْمَالَ الْعِبَادِ تُعْرَضُ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ**»[٢] صححه الألباني.

وروى **ابن ماجه** عَنْ **أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَصُومُ الِاثْنَيْنِ وَالْخَمِيسَ فَقِيلَ: يَا رَسُولَ الله إِنَّكَ تَصُومُ الِاثْنَيْنِ وَالْخَمِيسَ فَقَالَ: «**إِنَّ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ يَغْفِرُ الله فِيهِمَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ إِلَّا مُهْتَجِرَيْنِ يَقُولُ: دَعْهُمَا حَتَّى يَصْطَلِحَا**»[٣] صححه الألباني.

وبضم هذا الحديث للذي قبله يمكن أن يستفاد أنَّ المغفرة تحصل للمسلم حين تعرض أعماله على ربه، ويستثنى منها المتقاطعان لأمرٍ لا يقتضي القطيعة شرعًا.

وقوله: «**دعهما**» كأنَّه خطابٌ للمَلَكِ الذي يَعرِضُ الأعمال، ومعناه: لا تعرض عملهما أو لا تمسح سيئاتهما[٤].

فإذا كانت القطيعةُ من أحدهما لأمرٍ لا يقتضي القطيعةَ شرعًا كان هو المعاقب وحده، فإن كانت منهما وأراد أحدهما أن يخرج منها بالسَّلام فلم يقبل الآخر.. فقد برئ المُسَلِّمُ من القطيعة والهجرة.

---

(١) سنن الترمذي، رقم الحديث: (٧٤٥)، سنن النسائي، رقم الحديث: (٢٣٥٩)، سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (١٧٣٩).

(٢) سنن أبي داود، رقم الحديث: (٢٤٣٨).

(٣) سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (١٧٤٠).

(٤) حاشية السندي على ابن ماجه (٤/ ١).

ثالثًا: صيام مطلق التطوع:

الصومُ عبادةٌ عظيمةُ القدر فرضًا كان أو نفلًا، ولا يُشترط لتحصيل فضله الإكثار منه، فلو صام الإنسان يومًا واحدًا فإنَّ الله يُباعدُ بهذا اليوم وجهَه عن النار سبعين سنةً كما مرَّ في حديث **أبي سعيدٍ الخدري** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وإضافةً إلى كلِّ ما يُمكن أن يُسجَّل في فضل الصيام فإنَّ ثمة جزاءً معنويًّا عظيمًا في انتظار المكثر من الصيام يوم القيامة؛ روى الشيخان عَنْ **سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَدْخُلُ مَعَهُمْ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ يُقَالُ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ؟ فَيَدْخُلُونَ مِنْهُ، فَإِذَا دَخَلَ آخِرُهُمْ أُغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ»**[١].

فهذا فيه تشريفٌ لهم في الموقف المهيب، ونشرٌ لما كانوا يعملونه من الخير ولو كان في خفاء، فهنا يوم النعيم المعنوي كما هو يوم النعيم الحسي، واختصاصهم بالنداء في ساحة الموقف على رؤوس الخلائق تكريمٌ لهم ما بعده تكريم!

وقوله: **«أين الصائمون»**؛ أي الذين كانوا يكثرون الصوم في الدنيا[٢].

والظاهر أنَّ الإكثارَ لا يحصل بصوم رمضان وحده، بل بأن يزيد عليه ما جاء فيه أنه صيام الدهر؛ وذلك كصيام الست من شوال وثلاثة أيام من كل شهر، والله تعالى أعلم بحقيقة الأمر[٣].

ويؤيده أنَّ قوله: **«الصَّائِمُونَ»** اسم فاعل، وهو يدل على الدوام والثبوت[٤]، وهذا لا ينطبق إلا على من كان الصوم عادةً له أو يقع كثيرًا منه.

---

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (١٨٩٦)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٢٧٦٦) واللفظ لمسلم.
(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي (١/ ٦٥٦).
(٣) حاشية السندي على ابن ماجه (٣/ ٤١٣).
(٤) معاني الأبنية في العربية لفاضل السامرائي ص (٤١)، وفي المسألة زيادة تفصيل تعرف من الكتاب ليس المقام له.

والريان صيغةُ مبالغةٍ من الريِّ نقيض العطش، فجُوزي المكثر من الصيام بالدخولِ من هذا الباب مجازاةً له لما كان يصيبه من العطش في الصيام في الدنيا؛ إعلامًا بما ينتظره بدخوله من هذا الباب من ثوابٍ جزيل فضلًا عن نجاته من عطش يوم القيامة وحصول الريِّ الذي لا يظمأ بعده أبدًا[١].

واعلم أنَّ صيامَ النَّافلةِ لا يُشترط فيه تبييتُ النِّيَّةِ من الليل، بل يمكن أن تتأخر فيه لما قبل الزوال ومن ثم تنعطف لأول النهار، بشرط ألا يقع منافٍ للصوم من طلوع الفجر إلى وقت إنشاء نية الصوم كما مرَّ.

وهذا رأي جمهور الفقهاء خلافًا للمالكية.

ودليلُ ذلك: ما روى **مسلم** عن **طلحة بن يحيى بن عبد الله** عن **عائشة بنت طلحة** عن **عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ** رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ: **«يَا عَائِشَةُ هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ»؟**

قَالَتْ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله مَا عِنْدَنَا شَيْءٌ.

قَالَ: **«فَإِنِّي صَائِمٌ»**.

قَالَتْ: فَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ فَأُهْدِيَتْ لَنَا هَدِيَّةٌ - أَوْ جَاءَنَا زَوْرٌ[٢] - قَالَتْ- فَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ الله ﷺ قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله أُهْدِيَتْ لَنَا هَدِيَّةٌ - أَوْ جَاءَنَا زَوْرٌ - وَقَدْ خَبَأْتُ لَكَ شَيْئًا.

قَالَ: **«مَا هُوَ؟»**.

قُلْتُ: حَيْسٌ[٣].

قَالَ: **«هَاتِيهِ»** فَجِئْتُ بِهِ فَأَكَلَ ثُمَّ قَالَ: **«قَدْ كُنْتُ أَصْبَحْتُ صَائِمًا»**.

قَالَ طَلْحَةُ: فَحَدَّثْتُ مُجَاهِدًا بِهَذَا الْحَدِيثِ فَقَالَ: ذَاكَ بِمَنْزِلَةِ الرَّجُلِ يُخْرِجُ الصَّدَقَةَ مِنْ مَالِهِ فَإِنْ شَاءَ أَمْضَاهَا وَإِنْ شَاءَ أَمْسَكَهَا»[٤].

---

(١) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/ ٤٠٣)، المنتقى شرح الموطأ (٣/ ٧٦).
(٢) الزَّور: الجماعة الزائرون ويقع على الزائر الواحد. انظر: شرح النووي على مسلم (٨/ ٣٤).
(٣) هو التمر مع السمن والأقط. انظر: شرح النووي على مسلم (٨/ ٣٤).
(٤) صحيح مسلم، رقم الحديث: (٢٧٧٠).

وترجم له **مسلم** بقوله: باب جواز صَوْمِ النَّافِلَةِ بِنِيَّةٍ مِنَ النَّهَارِ قَبْلَ الزَّوَالِ.

وقد تقدَّم أنَّ سياسةَ الشَّريعةِ أنها تُخَفِّفُ في أمر النوافل لتكثر، ومن ثم جوَّزت في نافلة الصلاة أن يُؤدِّيَهَا الرجلُ قاعدًا مع القدرة على القيام، وأن تكون على الراحلة ولغير القبلة، والذِّكْرُ ليس له هيئةٌ ليكثر، فاستثناء نافلة الصيام من شرط تبييت النية من الليل من أفراد هذه السياسة الشرعية في التحريض على كثرة العمل مع ثبات الأجر.

فتحصَّل أنَّ التطوعَ أوسعُ من الفرض، وهذا من توسيع الله على عباده ليعظم أجرهم وتعلو درجاتهم، فما أكثرَ الطرقَ التي يمكن أن تتخذ بها إلى ربك سبيلًا!

وإذا فتح الله لك هذا الباب ويسَّره لك ورأيت من لم يُفتح له فيه.. فيمكن أن تحثه عليه، لكن حذارِ أن تنظر إلى نفسك نظرةَ عُجبٍ أو تنظر إليه نظرةَ ازدراء؛ فإنَّ الناس تتردد أحوالهم بين إقبال وإدبار، وربما كان من تنظر إليه في حال إدبار بينما أنت في حال إقبال، ولا يُؤمَنُ من تبدل الحال فيُفتح الباب له ويُغلق دونك.

وربما كان من تنظر إليه يشتد عليه الصوم بحيث لا يستطيعه إلا بقدرٍ كبيرٍ من العناء، وقد يعيقه عن أعمالٍ وكمالاتٍ أخرى هي أعظم فضلًا في حقه.

وقد يكون الباب الذي فُتِح فيه لغيرك غير الباب الذي فُتِح فيه لك، وبهذا يحصل التكامل بين الناس.

ورحم الله الإمام **مالكَ بن أنس** إذ نبَّه على هذا الأدب القلبي الدقيق بأحسن بيانٍ وأفصحه وأجوده، وذلك لما راجعه **عبد الله العمري** الرجل العابد في انصرافه الكليِّ للعلم وراح يحثُّه على الانفراد والعمل فكتب إليه الإمام **مالك** يقول:

«إنَّ الله قسَم الأعمال كما قسَم الأرزاق؛ فرب رجلٍ فُتِح له في الصلاة، ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الصدقة وآخر فتح له في الجهاد، ونشر العلم من أفضل أعمال البر، وقد رضيت بما فُتِح لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر»(١).

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (٨/ ١١٤).

وقد نَبَّهْتُ على هذا الأدب لئلا يختل عملٌ قلبيٌّ عند المتعبد وهو يجتهد في تحصيل عملٍ من أعمال البدن.

رابعًا: اعتكاف العشر الأواخر من رمضان:

هذا العملُ يَسَّرَ الله لي العنايةَ العلميَّةَ به فكتبت فيه كتابًا بعنوان: «**دليل المعتكف**»، وذلك بالاشتراك مع أخي الشيخ الفاضل د. **بلال جميل** مطاوع وفقه الله، والكتاب منشورٌ على الشبكة.

وبعد عيشٍ كريمٍ حينًا من الدهر مع الاعتكاف درسًا وعملًا وتأليفًا أدركت أنَّه أحد أبرز المصانع التربوية في الشريعة لمن قام به على وجهه الوارد عن النبيِّ ﷺ.

يُصنع في هذا المصنع قلبٌ عابدٌ طاهرٌ من خبث الشبهات ونجس الشهوات، يربي صاحبه على مواجهة أعباء الحياة، فيخرج منه بزاد التقوى ولباس التقوى، ولو تكدَّر في ساحة الدنيا فإنه يمتلك مفتاح النقاء والصفاء لا يفصله عنه إلا قرارٌ جريء.

كما بدا لي مع الزمن أنَّه مدرسةٌ تربويةٌ إيمانيةٌ خُلقيَّةٌ إدارية، ولهذا شمل الكتاب الجوانب التربوية والإيمانية والخُلُقية، بالإضافة لتخصيص مساحةٍ جيدةٍ لتناول أحكامه الفقهية على طريقة الفقه المقارن.

ومن الخلاصات التي خلصت إليها: أنَّ أحوجَ الناس للاعتكاف هم العلماء والقادة فضلًا عمَّن يشاركهم في مهمة التربية والإصلاح والخير من مثل طلبة العلم والدعاة والمربين والمحفظين والمجاهدين وأضرابهم.

وذلك أنَّ مادةَ النقاء التي تتحصل للمعتكف بعد نحوِ ثلاثة أيام أو أربعة من الانقطاع الكامل للتعبد تُبصِّره بحاله ومساره وعمله ومسيره، فتجده مع اشتغاله بالأوراد والتهجد قد صار على نفسيةٍ خاليةٍ من المؤثرات، فأيُّ التفاتةٍ منه إلى حياته يستطيع بها أن يقيِّم نفسه تقييمًا دقيقًا، وأن يأخذ القرارات الصحيحة السليمة التي تجعله أكثر إنجازًا وإنتاجًا، وأكثر سكينةً وطمأنينة وراحة.

وأحسب أنَّ اعتكاف النبيِّ ﷺ -وهو قائد الأمة وسلطان المسلمين- كان تدبيرًا وسياسةً إلى جانب مقصد التعبد.

ولو كان الأمر بيدي لجعلت الاعتكاف لازمًا لكلِّ ذي ولايةٍ، ومن حجزته العوائق من كلِّ وجهٍ فإنه يقضيه.

ومن الأمور التي تشد الانتباه أنَّ النبيَّ ﷺ لم يترك الاعتكاف حتى فارق الدنيا؛ روى **البخاري ومسلمٌ** عن **عَائِشَةَ** رضي الله عنها **أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَعْتَكِفُ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضَانَ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللهُ**[١].

وتركه مرةً فقضاه في شوال.

ولأجل ذلك قال **الزهري**: عجبًا من الناس كيف تركوا الاعتكاف ورسول الله ﷺ كان يفعل الشيء ويتركه، وما ترك الاعتكاف حتى قُبِض!(٢).

ومن أجلِّ مقاصد الاعتكاف: إدراك ليلة القدر التي تتفوق في الفضل على ألف شهر، فالنبيُّ ﷺ اعتكف شهرًا كاملًا أول الأمر طلبًا لها.

روى الشيخان عَنْ **أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ** رضي الله عنه قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ اعْتَكَفَ الْعَشْرَ الْأَوَّلَ مِنْ رَمَضَانَ، ثُمَّ اعْتَكَفَ الْعَشْرَ الْأَوْسَطَ فِي قُبَّةٍ تُرْكِيَّةٍ[٣] عَلَى سُدَّتِهَا حَصِيرٌ، -قَالَ- فَأَخَذَ الْحَصِيرَ بِيَدِهِ فَنَحَّاهَا فِي نَاحِيَةِ الْقُبَّةِ، ثُمَّ أَطْلَعَ رَأْسَهُ، فَكَلَّمَ النَّاسَ فَدَنَوْا مِنْهُ، فَقَالَ: «**إِنِّي اعْتَكَفْتُ الْعَشْرَ الْأَوَّلَ أَلْتَمِسُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، ثُمَّ اعْتَكَفْتُ الْعَشْرَ الْأَوْسَطَ، ثُمَّ أُتِيتُ فَقِيلَ لِي: إِنَّهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ، فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَعْتَكِفَ فَلْيَعْتَكِفْ**»، فَاعْتَكَفَ النَّاسُ مَعَهُ[٤].

ولا تنحصر مقاصد الاعتكاف في إدراك ليلة القدر؛ إذ لو كان الأمر كذلك لما اعتكف النبيُّ ﷺ في النهار ولا قضاه لَمَّا فاته في شوال؛ ولكن ثمة مقاصد أخرى كثيرة منها: إصلاح القلب وتربيته، وتحريك العقل وتنقيته، وتزكية النفس وتهذيبها، وتعلم العبادة وتجويدها، وتعلم الخلوة وعكوف القلب على الله، وتعلم الإخلاص واختباره وغير ذلك، وقد فصَّلت

---

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٢٠٢٦)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٢٨٤١).
(٢) العيني/ عمدة القاري (١١/ ٢٠٠).
(٣) هي التي لها بابٌ واحد، وقوله: «على سدتها» يعني على بابها، وقال النووي: المراد أنها صغيرة. انظر: شرح النووي على مسلم (٨/ ٦٢)، الديباج على مسلم للسيوطي (٣/ ٢٥٧).
(٤) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٢٠٢٧)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٢٨٢٨٢) واللفظ لمسلم.

القول في ذلك في كتاب: «**دليل المعتكف**».

فالاعتكاف إذن محطةٌ تربويةٌ وإداريَّةٌ مهمَّةٌ في حياة المتعبد، وهو من الأعمال التي تستحق أن تضحي بأشياء نفيسةٍ في سبيلها، ولو كنتَ موظفًا ولم يمكنك الاعتكاف إلا بأخذ إجازةٍ بلا راتب فليس بمُبَالَغٍ أن تفعل ذلك لتدرك الاعتكاف في وقته، وتؤديه على وجهه.

وأشار الشيخ **عبد العزيز الطريفي** فرَّج الله كربه لهذا بقوله: «**انقطاعُ النبيِّ ﷺ في العشر بالاعتكاف مع كونه يدير دولة الإسلام ويفتي الأنام والأمةُ كلُّهَا تحتاجُ إليه دليلٌ على أنه ينبغي أن تُؤَجَّل لهذه العشرِ المصالحُ**»[1].

ومن لم يستطع أن يعتكف كليًّا فليعتكف جزئيًّا، ومن تعذَّر في حقه أو تَعَسَّرَ فيحرص على قضائه حين يتيسر له ذلك.

ومما يمنحه الاعتكاف لصاحبه تلك النفسية المشحونة بمعاني السكينة والطمأنينة والراحة، والتي إن فقدتها النفس فقد قعدت وكسلت وتبلَّدت.

ولهذا متى نزلت بك حالةٌ من التشظي النفسي والشتات الروحي، وصرت على كدرٍ لا تصل معه إلى النقاء ولم تستطع أن تخرج مما أنت فيه.. فغادر البيئة التي أنت فيها فورًا، واعتكف يومين أو ثلاثة مع الانقطاع التام، لتستعيد عافيتك وحيويتك واستقامتك ثم تعود لميدان الحياة.

فهي رحلةٌ تتزود بها بالوقود، نظير المركبة التي تتوقف عند محطة الوقود قهرًا لتتزود بالوقود اللازم لها ثم تواصل الرحلة، وإن لم يفعل صاحبها ذلك فإنها ستتوقف به ويبقى على قارعة الطريق، مقطوعًا عن حوائجه التي كان يسعى فيها.

وأحرضك على الاعتكاف عامة واعتكاف العشر الأواخر من رمضان خاصة بما روى **ابن ماجه** في سننه عَنْ **أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَا تَوَطَّنَ رَجُلٌ مُسْلِمٌ الْمَسَاجِدَ لِلصَّلَاةِ وَالذِّكْرِ إِلَّا تَبَشْبَشَ الله لَهُ كَمَا يَتَبَشْبَشُ أَهْلُ الْغَائِبِ بِغَائِبِهِمْ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِمْ**»[2] صحَّحه الألباني.

---

(١) أسطر في النقل والعقل والفكر للطريفي ص (١٠٥).

(٢) سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٨٠٠).

قال **المناوي**: قوله: «لِلصَّلَاةِ وَالذِّكْرِ» ومِثْلُها الاعتكاف أيضًا.

وقوله: «إِلَّا تَبَشْبَشَ الله لَهُ»؛ أيْ أقبل عليه وتلقاه بِبِرِّهِ وإكرامه وإنعامه لوقوع صنيعه الموقعَ الجميلَ عنده(١).

والله الموفق وحده.

الفرع الثالث: الزكاة والصدقات

جَعَلْتُ العباداتِ الماليةَ ضمن الأعمال البدنية لأنَّها تُعطى باليد، ولأنَّ مردَّ حيازةِ المال لأمورٍ أبرزها التكسب، وهو من عمل البدن في الأعم الأغلب، ولينتظم الحديثُ عن أركان الإسلام في موضعٍ واحد، وإلا.. فإنَّها من الأعمال التي يشترك فيها الظاهر والباطن، ولو أُفرِدَت بقسمٍ لما كان يبعد، وعلى كلٍّ فالأمر في التقسيم قريب.

والمتعبد ينبغي أن تكون علاقته بالمال في شتى مساحاته واضحةً، لا سيما أنَّ العبادات المالية من أعظم الأبواب الشرعية التي تُقدِّم الإنسان عند ربه، والزكاة بلغت في الرتبة أنها من أركان الإسلام، والقرآن في عشرات المواضع يقرن الأمرَ بالزكاة بالأمرِ بالصَّلاة، والصلاة من إحسان العلاقة مع الرب، والزكاة والصدقات من إحسان العلاقة مع العبد.

وأعرض مادة هذا الفرع في أربعة بنود:

أولًا: الزكاة:

الزكاةُ واجبةٌ من غير خلاف، وقد جاء الحديث عن فرضيتها ومصارفها في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [التوبة: ٦٠].

فالذي آتاه الله مالًا تجب فيه الزكاة فهو على عبادةٍ تَنظِمُه في معالجة مشكلات المجتمع، فمصارف الزكاة -كما تراها في الآية- تتناول جوانب كثيرة.

---

(١) التيسير بشرح الجامع الصغير (٢/ ٦٧٣).

ومن أهم ما يتيسَّر لنا فعله اليوم: كفالةُ الفقراءِ والمساكين وإعانتُهم في قضاء حوائجهم من مطعمٍ ومشربٍ وملبسٍ ومسكنٍ وعلاجٍ وغير ذلك، وتفريجُ كربةِ المدينين بقضاء الدَّينِ عنهم؛ فإنَّ الدَّيْنَ همٌّ بالليل وذلٌّ بالنهار، ويعم ذلك من استدان لتسكينِ فتنةٍ أو إصلاحٍ بين الناس.

وامتدَّت مصارفُ الزَّكاةِ لتتولى الإنفاقَ على أعباء الجهاد في سبيل الله؛ لأنَّه الحزام الذي تُحرس به شعائر الإسلام، ويُحفظ به الأنام.

كما أنها أنقذت المنقطع عن ماله، فأعانته بما يتبلغ به مقصده أو ماله، بل وذهب الشافعية إلى أنَّ ذلك يشمل من أنشأ سفرًا لحجٍّ أو تحصيلِ كسبٍ بل وتَنَزُّه.

والزكاةُ عمودٌ من أعمدة الاقتصاد الإسلامي إلى جانب أمورٍ مركزيَّةٍ منها: الإنتاج والشركات والمضاربة والتكافل الاجتماعي وحرمة الربا والعدالة في التوزيع وتوازن القوى بين الدولة والمجتمع وغير ذلك.

ولهذا لا غرابة في ركنيتها ووجوبها، وتاركها آثمٌ متعرضٌ لشؤم الدنيا وعذاب الآخرة:

أما شؤم الدنيا.. فكالذي جاء فيما رواه **ابن ماجه** عن **ابن عمر** رضي الله عنهما قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: «**يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ**، وعدَّ منها: «**وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا**»[1] حسنه الألباني.

وأما عذاب الآخرة.. فكالذي جاء فيما رواه **مسلم** عَنْ **أَبِي ذَرٍّ** رضي الله عنه قَالَ: انْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ أَوْ وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ أَوْ كَمَا حَلَفَ مَا مِنْ رَجُلٍ تَكُونُ لَهُ إِبِلٌ أَوْ بَقَرٌ أَوْ غَنَمٌ لَا يُؤَدِّي حَقَّهَا إِلَّا أُتِيَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْظَمَ مَا تَكُونُ وَأَسْمَنَهُ تَطَؤُهُ بِأَخْفَافِهَا وَتَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا كُلَّمَا جَازَتْ أُخْرَاهَا رُدَّتْ عَلَيْهِ أُولَاهَا حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ**»[2]؛ أي إلى أن يفرغ الحساب[3].

---

(١) سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٤٠١٩).
(٢) صحيح البخاري، رقم الحديث: (١٤٦٠)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٢٣٤٧) واللفظ لمسلم.
(٣) عمدة القاري (٩/ ٢٧).

فالمال مالك، وهو صاحبك حيث أدَّيت حقَّه، وإلا.. كان عَدُوَّك.

وحيث حلَّ وقتُ إخراجِ الزكاة لم يكن له أن يتأخرَ في أدائها، فيجب أن يدفعها فورًا إذا تمكَّن من الأداء بحضور المال ووجود الآخذ للزكاة؛ لأنَّ حاجةَ المستحقين لها ناجزة، وله التأخيرُ لانتظارِ قريبٍ أو جارٍ أو من هو أحوج أو أصلح، وذلك إذا لم يشتد ضرر الحاضرين، وإلا.. فيحرم التأخير مطلقًا؛ لأنَّ دفعَ الضَّرَرِ فرضٌ فلا يجوز تركه لفضيلة.

فإن كان الرجل المزكي ممن يقصده أصحاب الحاجات، وأراد أن يعطيهم من الزكاة.. فيمكنه أن يُعجِّل بالزكاة منجَّمَةً بحسب الحاجة والطلب، فإذا جاء وقتها أخرج ما تبقَّى من فوره، فالتعجيل جائزٌ دون التأجيل، ومحله: حيث كان المال يبلغ نصابًا.

وفي مدة التعجيل خلافٌ بين الفقهاء يُعرف تفصيله في كتب الفقه، ويكفي هنا أن تعلم أنَّ الشافعية يجيزون تقديم الزكاة لعامٍ واحدٍ فقط، والحنابلة لعامين، والحنفية لأكثر من ذلك، بينما لا يغتفر المالكية التعجيل إلا في المدة اليسيرة، واختلفوا فيها: فقيل: يوم ويومان، وقيل: ثلاثة أيام، وقيل: خمسة، وقيل: عشرة، وقيل: شهر وشهران، وقال الدردير: لا تجزئ في أكثر من شهرٍ على المعتمد[1].

وبيَّنْتُ هذا الحُكْمَ لأنَّ المتعبِّدَ قد يحرص على أن يجمع بين الزكاة وتفريجِ الكُرَبِ ممَّا يعرض له، وألا يرد سائلًا يقف ببابه، من غير أن يقدر على القيام بحوائج ذوي الفاقة والحاجة بالصدقة فتكفيه الزكاةُ مؤنةَ ذلك.

ثانيًا: **الصدقة**:

من سياسة المؤمن لنفسه أنه يربيها على الشكر، وعلى أن المال يكون في يده لا في قلبه، وعلى أنه يتوسَّل به لحيازة الدرجات العلا في الجنة، وعلى أن يُسعِد به أهله وإخوانه وذوي الحاجة ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.

---

(١) المبسوط للسرخسي للحنفي (٢/ ٣١٧)، حاشية الدسوقي المالكي (١/ ٥٠٢)، الشرح الكبير للدردير المالكي (١/ ٥٠٢)، مغني المحتاج للشربيني الشافعي (١/ ٤١٦)، الإنصاف للمرداوي الحنبلي (٣/ ١٤٦).

وهذا يُيَسِّر له كثرةَ الإنفاق، وهي تربية القرآن في سبيل تحصيل مقام البر؛ قال سبحانه: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

قال **ابن مسعود** رضي الله عنه في قوله: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾: أي: يؤتيه وهو صحيحٌ شحيحٌ، يأمل العيش ويخشى الفقر[١].

والوحي زاخرٌ بالنصوص التي تُحرِّض على الإنفاق وتسهله على النفوس، ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، فالله يستحث عبده ليقرضه وهو غنيٌّ تمامًا عنه؛ فإنَّ الله لم يسأل القرض من عدمٍ؛ ولكن ليبلو الأخيار وتُجزى الأعمال[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]، ومن أيقن بالخلف جاد بالعطية.

وفي الصحيحين من حديث **أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ**»، وقَالَ: «**يَدُ الله مَلأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**»، وقَالَ: «**أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ..**»[٣].

وقوله: «**أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ**» في معنى الآية.

وقوله: «**لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ**»؛ أي لا تنقصها، ومن هنا قال **أبو سعيد الخدري** رضي الله عنه: «إِذَا سَأَلْتُم الله تعالى فَارْفَعُوا فِي الْمَسْأَلَةِ؛ فَإِنَّ مَا عِنْدَ الله لَسْتُمْ مُنْفِدِيهِ»[٤].

وقوله: «**سحَّاء**»؛ أي دائمة السحِّ؛ أي الصب والسيلان، فيد الله تعالى دائمة العطاء،

---

(١) تفسير الطبري (٣/ ٣٤٠).
(٢) شعب الإيمان للبيهقي (٣/ ٢٣٢).
(٣) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٤٦٨٤)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٢٣٥٦) واللفظ للبخاري.
(٤) مصنف ابن أبي شيبة، رقم الأثر: (٢٩٩٨١).

وإذا منع فإنما هو لحكمة[1].

وبشَّر النبيُّ ﷺ المتصدقَ بأنَّ مالَه لا ينقص بالصدقة؛ روى الإمام **أحمد** عن **عبد الرحمن بن عوف** رضي الله عنه قال: إنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**ثَلَاثٌ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنْ كُنْتُ لَحَالِفًا عَلَيْهِنَّ: لَا يَنْقُصُ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ فَتَصَدَّقُوا، وَلَا يَعْفُو عَبْدٌ عَنْ مَظْلَمَةٍ يَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ الله إِلَّا رَفَعَهُ الله بِهَا**، وقَالَ **أَبُو سَعِيدٍ** مَوْلَى بَنِي هَاشِمٍ: **إِلَّا زَادَهُ الله بِهَا عِزًّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَفْتَحُ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ الله عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ**»[2] حسنه شعيب الأرنؤوط وصححه الألباني.

فالصدقة تزيد المال ولا تنقصه، وقد أفردت فصلًا للكلام عن ذلك في كتاب: «**سراج الغرباء إلى منازل السعداء**» تحت عنوان: «**استمطار الأرزاق بالتصدق والإنفاق**» فانظر إليه إن شئت، وهو منشورٌ على الشبكة.

وخلصت فيه إلى النصيحة التي جادت بها أم المؤمنين **عائشة** رضي الله عنها بقولها: «**إذا افتقرتم فتصدقوا**».

والأهم من كل ذلك أنَّ الصَّدَقَةَ ترفع صاحبها يوم القيامة، وتُبقي مالَه له؛ روى **الترمذي** عَنْ **عَائِشَةَ** رضي الله عنها أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا بَقِيَ مِنْهَا؟**» قَالَتْ: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا كَتِفُهَا، قَالَ: «**بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا**»[3] صححه الألباني.

وهذا تعليمٌ منه ﷺ لفقه التعامل مع المال، ويُفَسِّرُ بقوله هذا قولَ الله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾[النحل:٩٦].

فالصدقة بعين البصر قد ذهبت، لكنها بعين القلب قد بقيت، وعلى هذا؛ فإذا كنت تُصْلِحُ بصدقتك دنيا غيرك فإن من يقبلها منك يُصلح لك دِينك، فلا يبعد أن يقال: إنَّ الغنيَّ أحوجُ إلى الفقير من حاجة الفقير إلى الغني.

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢٥/ ١٠٦)، شرح النووي على مسلم (٧/ ٧٩).

(٢) مسند أحمد، رقم الحديث: (١٦٧٤).

(٣) سنن الترمذي، رقم الحديث: (٢٤٧٠).

والمقصود: أنَّ المتعبد ينبغي أن يكون كثير الصدقة، ويتأكد ذلك منه في مواطن الحاجة، بالصدقة وغيرها مما يندرج في فعل المعروف من مثل إقراض ذي الحاجة وإنظار المعسر وتفريج كربة المكروب وأضراب ذلك.

وكلما وقعت الصدقة موقعها من الحاجة عَظُمَ أجرُها وزاد فضلُها.

ويشهد لذلك: ما روى **الترمذي والنسائي** أن رَسُولَ الله ﷺ قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ يُسْتَعْذَبُ غَيْرَ بِئْرِ رُومَةَ فَقَالَ: «**مَنْ يَشْتَرِي بِئْرَ رُومَةَ فَيَجْعَلُ فِيهَا دَلْوَهُ مَعَ دِلَاءِ الْمُسْلِمِينَ بِخَيْرٍ لَهُ مِنْهَا فِي الْجَنَّةِ**»[1]، فاشتراها **عثمان بن عفان** رضي الله عنه من صلب ماله.

فالنبي ﷺ يعطي صفقةً مدهشة؛ جنة مقابل بئر!

ولكن من منفعة البئر ألا يتحكم بأساسيات حياتنا أحدٌ من الناس، حتى لو كان مسلمًا، ولهذا اشترط في المتصدق ألا يكون مالكًا للبئر؛ بل يجعل دلوه مع دلاء المسلمين، وهذا كان ضمن إجراءات اتخذها النبي ﷺ حين قدم المدينة لاستقلال الأمة اقتصاديًّا إلى جانب استقلالها منهجيًّا.

وجاء عند **الترمذي** أنَّ **عثمان بن عفان** رضي الله عنه جاء إلى النبيِّ ﷺ يوم تبوك بألف دينار يشارك بها في تجهيز جيش العسرة، قال **عبد الرحمن بن سَمُرة** رضي الله عنه راوي الحديث: فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُقَلِّبُهَا فِي حِجْرِهِ وَيَقُولُ: «**مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ**» مَرَّتَيْنِ![2] حسنه الألباني.

والمعنى: لم يضر **عثمان** ما يعمل من الذنوب بعد هذه الصدقة؛ فإنَّها مغفورةٌ مُكفَّرة[3].

ثالثًا: التعفف:

وذلك في كلِّ ما يمكن التعفف فيه؛ من مثل ترك المسألة وترك الدَّين إلا من حاجةٍ مُلِحَّةٍ أو ضرورة.

---

(١) سنن الترمذي، رقم الحديث: (٣٧٠٣)، سنن النسائي، رقم الحديث: (٣٦٠١). وقد صححه الألباني.

(٢) سنن الترمذي، رقم الحديث: (٣٧٠١).

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للمباركفوري (١٠/ ١٣٣)، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للملا علي القاري (١٧/ ٣٩٩).

والوحي زاخرٌ بالنصوص التي تُربِّي العبد على هذا، ومن ذلك:

ما روى **الحاكم** عَنْ **سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ** رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ **جِبْرِيلُ** عليه السلام إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «**يَا مُحَمَّدُ، عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَأَحْبِبْ مَنْ أَحْبَبْتَ فَإِنَّكَ مَفَارِقُهُ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ**»، ثُمَّ قَالَ: «**يَا مُحَمَّدُ شَرَفُ الْمُؤْمِنِ قِيَامُ اللَّيْلِ، وَعِزُّهُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ**»[1] حسنه الألباني.

ووصَّى النبيُّ ﷺ ابن عمه **عبد الله بن عباس** رضي الله عنهما على هذا المعنى الكبير وهو غلام صغير فقال له: «**يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظْ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ..**»[2] صححه الألباني.

وجعل القيام بهذا الخُلُقِ على وجه الكمال شرطًا في صفقةٍ مدهشة؛ روى أصحاب السنن إلا **الترمذي** عن **ثوبان** مولى رسول الله ﷺ أنه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ تَكَفَّلَ لِي أَنْ لَا يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا وَأَتَكَفَّلَ لَهُ بِالْجَنَّةِ**»؟! فَقَالَ **ثَوْبَانُ**: أَنَا. فَكَانَ لَا يَسْأَلُ أَحَدًا شَيْئًا»[3] صححه الألباني.

ولفظ **النسائي**: «**مَنْ يَضْمَنْ لِي وَاحِدَةً وَلَهُ الْجَنَّةُ**».

وفي رواية **ابن ماجه**: «**فَكَانَ ثَوْبَانُ يَقَعُ سَوْطُهُ وَهُوَ رَاكِبٌ فَلَا يَقُولُ لِأَحَدٍ نَاوِلْنِيهِ حَتَّى يَنْزِلَ فَيَأْخُذَهُ**».

والتربية الشرعية تأخذ بالعبد إلى أن يسأل ربه ويستعين به على قضاء حوائجه، قال سبحانه: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢]، يقول **سفيان بن عيينة**: لم يأمر بالمسألة إلا ليعطي.

وروى **الترمذي** عَنْ **عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ** رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ، وَمَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِاللهِ فَيُوشِكُ اللهُ لَهُ بِرِزْقٍ عَاجِلٍ أَوْ آجِلٍ**»[4] صححه الألباني.

---

(١) المستدرك على الصحيحين، رقم الحديث: (٨٠٣٨).

(٢) سنن الترمذي، رقم الحديث: (٢٥١٦).

(٣) سنن أبي داود، رقم الحديث: (١٦٤٥)، سنن النسائي، رقم الحديث: (٢٥٨٩)، سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (١٨٣٧) واللفظ لأبي داود.

(٤) سنن الترمذي، رقم الحديث: (٢٣٢٦).

وهـذه النصـوص تقـرر **عبودية الشكاية لله تعالى**، والتـي رأيناها صراحـةً في كلام نبي الله **يعقوب** عليه السلام؛ إذ لما مسه الحزن قال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦].

ولهذا متى نزلت بك حاجةٌ، أو اشتدت بك مصيبة.. فإلى جانب الأخذ بالأسبابِ افرش سجادتك وانصب قدميك وأنزل حاجتك بربك، وأخبره بشكواك، واطرق الباب حتى يُفتح لك.

وإني شـخصيًّا جرَّبتُ هـذا في مواقف لا أحصيها عددًا، وكنت أعجب أشد العجب كيف تحصل الإجابة بأمورٍ خارجةٍ عن حسابات البشر تمامًا.

ويتأكد خلق العفة في حقِّ أهل العلم والمشتغلين به والدعاة إلى الله تعالى، فيتعفف الواحد منهم عن كلِّ ما يُصنَّف في الاستفادة من دنيا الناس من مثل قبول الهبات والهدايا مما يقع خارج النطاق الاجتماعي المعتاد، وتلبية الدعوة لمجالس الاحتفاء والتكريم لا سيما التي يكون الاجتماع على الطعام جزءًا منها، اللهم إلا ما يقع تبعًا بقرائن تستبعد المحاذير فيه.

وذلك أنَّه ما من شيءٍ إلا وله باعث ولو آجلًا، فإذا جاءت العالِمَ أو طالبَ العلمِ أو الداعيةَ أو ذا الولاية هبةٌ أو غيرها من وجوه الإكرام.. فلا يُؤمَنُ من تأثيرها عليه، ولو نوع تأثير فيما يقول أو يفعل، ولو أن يلتزم الحياد أو يتكلم في المساحات الآمنة، ولو لم يكن المُكرِم يقصد ذلك، لكن الإكرام يبقى نقطة ضعف يمكن أن يُتسلل منها فإقفالها أولى.

وقد حدثنا القرآنُ الكريمُ أنَّ **فرعون** لما خالفه **موسى** عليه السلام طالبه بثمن إحسانه القديم فقال له: ﴿أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨].

ولو توافرت قرائن السلامة من التبعات كلها فتبقى إشكاليةٌ خلاصتها: أنَّ من يتقبل الحظوظ الدنيوية من أهل العلم والدعوة ومن قاربهم فإنه يكون مستفيدًا للدنيا من بوابة الدين بعد الوجاهة التي حصلت له بسببه.

والاسترزاق الدنيوي من المدخل الديني من أقبح الأرزاق التي كان يتوقاها سلفنا الصالح، والكلام في هذا يحتاج لبسطٍ ليس المقام له.

ولهذا فإنَّ تربيةَ النَّفسِ على التعفف وترك المسألة تربيةٌ سلفيَّةٌ راشدة، وقد كان الإمام **أحمد** يقول في دعائه: «**اللهم كما صُنتَ وَجهي عن السجود لغيرك فَصُنْهُ عن المَسألةِ لِغَيرك**»[1].

وأختم التحريض على هذا الخُلق بتذكيرك بالرجل العربي في الجاهلية الذي لم يكن يشكو ولا يسأل حتى لو بات طاويًا.

وبلغ بعض العرب في ذلك شأوًا كبيرًا حتى إنه ليبلغ حدًّا يُنكَر! فكان الواحدُ من قريشٍ إذا أصابته مخمصةٌ ولم يجد طعامًا له ولأهل بيته جرى بهم لموضعٍ معروفٍ، فضربوا على أنفسهم خباء ولا يزالون كذلك حتى يموت واحدٌ بعد واحد من الجوع.

وتُسمَّى هذا العادة بالاعتفار، ويذكرها بعض النَّقلة بالدال بدل الراء، ولم تَنتِه هذه العادة إلا بمبادرةٍ من أحد سادات قريش وهو **هاشم بن عبد مناف** جد النبيِّ ﷺ.

وقصةُ ذلك: أنَّ أهل بيتٍ من بني مخزوم أصابتهم فاقةٌ شديدة فهمُّوا بالاعتفار على عادة القوم، وكان أحد أبنائهم الفِتْيَةِ صديقًا لأحد أبناء هاشم واسمه أسد، وكان يجالسه ويلعب معه، وقال له يومًا: إننا غدًا نعتفر!

فأخبر **أسدٌ** أمَّه فأرسلت إليهم بطعام عاشوا به أيامًا، فلما انتهى عزموا من جديدٍ على الاعتفار، وأخبر الولد بذلك صديقه أسدًا.

فذهب **أسدٌ** إلى أبيه **هاشم** وهو يبكي وأخبره بنيَّةِ ذلك البيت المخزومي على الاعتفار، فاشتد ذلك عليه، فقام خطيبًا في قريش -وكانوا يطيعون أمره- فقال: إنكم أحدثتم حدثًا تَقِلُّون فيه وتكثر العرب، وتذلون وتعز العرب، وأنتم أهل حرم الله والناس لكم تُبَّع، ويكاد هذا الاعتفار يأتي عليكم.

ثم جمع رأيهم على التجارة، وسنَّ لهم رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، واستطاع أن يعقد عقدًا تجاريًّا مع الروم وغيرهم عُرِفَ بالإيلاف، ونجح في إقناع قادة القبائل العربية بذلك لئلا يُغِيرُوا على قوافل قريش، وأعانه في ذلك المنزلة الدينية التي تتمتع بها قريش لوجود الكعبة والحج فيها.

---

(١) حادي الأرواح لابن القيم ص (٦٣).

وكان من نتيجة ذلك أنَّ ما يقع للغنيِّ من ربحٍ فإنه يتقاسمه مع الفقير من عشيرته، حتى صار فقيرهم كغنيهم، وبقي الأمر في ازدياد حتى صاروا من الأغنياء، وصارت أرزاقهم تأتيهم والناس يُتَخَطَّفُون من حولهم، وجاء الإسلام ولم يكن في العرب أكثر عزًّا ومالًا من قريش[1].

وجاءت الإشارة لذلك في قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧]، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

ورسم القرآن المشهد كله بأوجز لفظٍ في سورةٍ حملت اسم قريش شُحِنت بالمعاني السياسية، يقول سبحانه: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ [قريش: ١ - ٤][2].

رابعًا: الكرم:

تقدَّم أنَّ المؤمن ينبغي أن يربي نفسه على الشكر، وأن يتخذ من المال وسيلةً لحيازةِ الدرجات العلا في الجنة، وإسعادِ أهله وإخوانه وإدخال السرور عليهم ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.

وهذا يجعله سخيًّا كريمًا كثير العطاء والبذل، يكرم أهله وأقاربه وأرحامه وإخوانه وأضيافه بما يتيسَّر له، لا يضنُّ عليهم بما آتاه الله.

ولا يُشترط أن يكون الإنسان غنيًّا؛ فالرجل الكريم ييسر الله ما يقوم به بما يناسب حاله، وإنَّ المعونة تنزل على قدر المؤونة، وما زال الناس يتناقلون فيما بينهم أنَّ الجود من الموجود، ويميزون بطبعهم الكريم ولو كان فقيرًا والبخيل ولو كان غنيًّا.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٠/ ٢٠٤)، التحرير والتنوير لابن عاشور (١٣/ ٥٥٨).

(٢) وقد بسطت القول في مسألة الإيلاف في سلسلة السيرة النبوية، والتي لم تكتمل بعد، وعسى أن أشرع في إكمالها عن قريب، وفي النية الحديث عن الجوانب السياسية التي جاءت سورة قريش بتقريرها بإيجاز بالغ، والسلسلة منشورة على اليوتيوب، وفهم هذا الموضوع فهمٌ لحركة السيرة كلها سواء في المرحلة المكية أو المدنية وما هو أوسع من ذلك.

أما عن النصوص التي تحث على الكرم فهي كثيرة، ومن ذلك:

ما روى الشيخان عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْعَدَوِيِّ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعَتْ أُذُنَايَ وَأَبْصَرَتْ عَيْنَايَ حِينَ تَكَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ..»[١].

وروى أحمد في مسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنْبِئْنِي عَنْ أَمْرٍ إِذَا أَخَذْتُ بِهِ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ قَالَ: «أَفْشِ السَّلَامَ وَأَطْعِمِ الطَّعَامَ وَصِلِ الْأَرْحَامَ وَقُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ ثُمَّ ادْخُلِ الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ»[٢] صححه شعيب الأرنؤوط.

وفي المسند أيضًا من حديث عليٍّ رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَغُرَفًا يُرَى بُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا وَظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا»، فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: يَا رَسُولَ اللهِ لِمَنْ هِيَ؟ قَالَ: «لِمَنْ أَطَابَ الْكَلَامَ وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ وَصَلَّى لِلَّهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ»[٣] حسنه شعيب الأرنؤوط.

وإطعام الطعام يشمل ما كان للعيال والفقراء والأضياف ونحو ذلك[٤].

والمتعبدُ يظلُّ بخيرٍ متى وُقِي شحَّ نفسه وصار بذل المال خفيفًا عليه بقوة التربية ولو كان يؤتيه على حبه، وهو بذلك يشق طريقه للفلاح كما قال سبحانه: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

والباب المالي بأسره من الأبواب التي تحتاج لفقهٍ وتربيةٍ تتبعها قراراتٌ واضحة، من مثل التعففِ وتركِ المسألةِ والابتعادِ عن الدَّين إلا من حاجةٍ مُلحَّةٍ أو ضرورة، وإكرامِ الضيف وكثرةِ الصدقة، وإنظارِ المعسر، وقضاءِ الدَّينِ في وقته مع الإحسان إلى الدَّائن والاعتذار إليه لو حصل تأخير في الوفاء، والتكسب الذي يعينه في كلِّ ذلك

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٦٠١٩)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٨٥) واللفظ للبخاري.
(٢) مسند أحمد، رقم الحديث: (٧٩١٩).
(٣) مسند أحمد، رقم الحديث: (١٣٣٧).
(٤) تحفة الأحوذي (٦/ ١٠١).

ولو تعنَّى فيه، مع توقي المعاملات المالية المحرمة وكذا التي تُحيط بها الشُّبَه؛ فإنَّ من اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه.

والله يهدي من يشاءُ إلى صراطٍ مستقيم.

الفرع الرابع: الحج والعمرة

وأعرض مادته في ثلاثة بنود:

البند الأول: مركزية الحج:

إنَّ الحجَّ لا يزيدُ عن بضعةِ أيام، ومعظمُ أعمالِهِ تنحصرُ بين ظهر اليوم التاسع من ذي الحجة وظهر اليوم العاشر، ومع ذلك فإنَّه ركنٌ من أركان الإسلام!

والمقارنةُ تظهر المفاهيم جيدًا؛ إنَّ الصلاةَ تتكرر خمس مراتٍ في اليوم، وإنَّ صيام شهر رمضان يتكرر في كلِّ سنة، والزكاة كذلك، أما الحج فلا يزيد عن بضعة أيام في العمر كله ثم هو ركنٌ فما سرُّ ذلك؟!

لست أهتدي لجوابٍ قاطعٍ يميط اللثام عن سرِّ المسألة، ولكني أَعْمَلْتُ فِكري فخرجت بهذه الإجابات الأربع:

١- ما يجده الحاج في نفسه من حالةٍ إيمانيَّةٍ ومشاعر روحانية لا يُحسن أن يُعبِّر عنها، ولكنه يعي من غير مبالغةٍ قط أنَّ الوجبةَ الإيمانيَّةَ التي يُقَدِّمُهَا الحجُّ لا نظيرَ لها في جميع الأعمال في الشريعة.

٢- إنَّ الحجَّ مُنطَوٍ على أصول المعاني العقدية والإيمانية، فمشاهده كلها تذكيرٌ بأصول الدين والتوحيد والبراءة من الشرك، وشواهد ذلك متناثرةٌ في مادة هذا الفرع فيما سيأتي إن شاء الله تعالى.

٣- الحج هو الركن الوحيد الذي يربط المسلمين بمكانٍ جغرافيٍّ محدد، وأعماله مرتبطةٌ بأماكن جغرافية ومشاهد حسية من مثل الطواف حول الكعبة والسعي بين الصفا والمروة والوقوف بعرفات والوقوف بمزدلفة ورمي الجمار في منى وغير ذلك.

وهـذا يحمـل المسـلمين على الاجتماع للحج في أماكن معلومةٍ في أزمنةٍ مخصوصة، ويفضي ذلـك كلُّهُ إلى اجتماع المسـلمين بِعِدَّةٍ قد تصـل إلى ملايين، يأتون من شتى بقـاع الأرض، وفي هـذا مـن المعـاني التـي تُشـحن بها النفوس مـا لا يوجـد في أيِّ عملٍ آخر من أعمال الشريعة.

فالحج مؤتمرٌ عـام لأمـة الإسـلام، وهو بمثابـة الاجتماع السـنوي الـذي يتناول فيـه كبراءُ الأمَّـةِ أمرَها وهمومَهـا وقضاياها.

وقـد ذكـر **سيد قطب** رحمه الله في الظـلال مـا مفـاده: أنَّ النفـسَ ذاتُ ميـلٍ فطـريٍّ إلى اتخاذ أشـكالٍ ظاهـرةٍ للتعبـير عـن المشـاعر المضمـرة، ولا عجـب في ذلـك؛ فإنَّ الإنسـان مكـونٌ من جسـدٍ ظاهـرٍ وروحٍ أمرهـا مـن الغيـب.

فالمشـاعر المضمـرة لا تهـدأ ولا تسـتقر حتـى تتخذ لها شـكلًا ظاهرًا تدركـه الحواس، تفرغ مـن خـلال الشـحنات الشـعورية الكامنة فيها؛ ليكتمل بذلك التناسـق بـين الظاهر والباطن.

وهذا المعنى أظهر ما يكون في الحج؛ فالطواف مثلًا يكون حول كعبةٍ يدركها الحس، لكن الخطاب والمناجاة إنما هو مع الله تعالى، فهي أحجارٌ لا تضرُّ ولا تنفع، وهذا بعكس الجاهلية التي عبد الناس فيها الأصنام نفسها وخاطبوها واعتقدوا أنها تضرُّ وتنفع، وأنَّ لها تأثيرًا في الأحداث.

أمـا الإسـلام فراعـى الظاهر ولكـن جعل الأمر منوطًا بالباطن، في اتِّساقٍ عجيبٍ بين ما يقـع في النفـس ومـا يقع في الحس[1].

فـآل الأمـر إلى أنَّ هـذه المواضـع بمثابة دلائل رمزيـة لمعانٍ كبرى مركزية، فلـم تعد الكعبة مثلًا مجـرد أحجـارٍ فحسـب؛ بل هي بمثابـة رمز عاصمة الأمة الإسـلامية، كما أشـار **عمر بهاء الديـن الأميري** إلى هـذا المعنى فقال:

الكعبـة الشمـاء في مذهبـي ... قيمتهـا ليسـت بأحجـارها
والقرب من خالقها ليس فـي ... تشبـث المـرء بأستـارهـا
قدسية الكعبة فـي جمعهـا ... أمتنـا مـن كـل أقطـارها
وأنهـا محـور أمجادهـا ... وأنهـا مصـدر أنـوارها

(١) في ظلال القرآن (١/ ٩٦-٩٧) بتصرف.

٤- ينتج عن المعنى السابق ارتباطُ الأُمَّةِ بِقِبْلَةٍ واحدةٍ معلومة، ومناسك متحدةٍ معلومة، وهذا يثمر استقلال الأمة عقديًّا ومنهجيًّا، فقبلة اليهود بيت المقدس، وقبلة النصارى مطلع الشمس، ولن يتبعوا قبلتنا كما أننا لن نتبع قبلتهم.

وهذا الاستقلال شاملٌ للعقيدة والعبادة والتصور، لكن وضوحه في الحس من خلال القبلة المشاهدة والمشاعر المقدسة أشد وضوحًا.

ولهذا كان حادث تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة مزلزلًا حين حصل، وتبع ذلك شبهاتٌ أذاعها الكفار واليهود، ومن ثم جاء القرآن يعرض هذه القضية وسط سياقاتها وظروفها في نحو سبع صفحاتٍ من سورة البقرة، بدءًا من الآية (١٠٦) من السورة، لا سيما أنَّ هذا التحويل كان أول نسخٍ وقع في الشريعة، وقد فصَّلت القول في ذلك في مقالٍ بعنوان: «**حادث تحويل القبلة.. رسائل سياسية وتقريراتٌ عقدية وتربوية**» وهو منشورٌ على الشبكة.

والذي أريد أن أخلص إليه أنَّ الحجَّ ذو دورٍ مركزيٍّ في حفظ هوية الأمة وتماسكها واجتماعها، والحج بما يتضمنه من مناسك وشعائر ومشاعر يعصم الأمة من الذوبان في أيِّ ثقافةٍ وافدةٍ أخرى ولو بلغت من السطوة ما بلغت.

والأمة التي لا تتميز بمنهجها لا بد وأن تأكلها الذئاب بالضرورة، فالشعائر الدينية التي تثمر استقلال الأمة تمنع من الانهزام الداخلي أمام الأمم الأخرى، لينحصر التقارب مع الآخرين في الاستفادة الدنيوية ليس غير كما مرَّ.

فالحج بمثابة الميزان الذي يَرُدُّ الأُمَّةَ إلى دينها، وغاية المبطلين أن يثيروا الشُّبَه ثم يتدافع الناس حولها ويبقى دين الله قائمًا.

وجملةِ المعاني المتقدمة كان من الخير تثويرُ المعاني الكلية بتكرار الحج وكذا العمرة، وجاء الحث على ذلك في غير نصٍّ ومن ذلك: ما روى **ابن حبان والبيهقي** عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَقُولُ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى: إِنَّ عَبْدًا صَحَّحْتُ لَهُ جِسْمَهُ وَأَوْسَعْتُ عَلَيْهِ فِي رِزْقِهِ يَأْتِي عَلَيْهِ خَمْسُ سِنِينَ لَا يَفِدُ إِلَيَّ لَمَحْرُومٌ**» صححه الألباني.

قَالَ **عَلِيُّ بْنُ الْمُنْذِرِ**: أَخْبَرَنِي بَعْضُ أَصْحَابِنَا قَالَ: كَانَ **حَسَنُ بْنُ حُيَيٍّ** يُعْجِبُهُ هَذَا الْحَدِيثَ وَبِهِ يَأْخُذُ، وَيُحِبُّ لِلرَّجُلِ الْمُوسِرِ الصَّحِيحِ أَنْ لَا يَتْرُكَ الْحَجَّ إِلَى خَمْسِ سِنِينَ»[1].

إنَّ المتعبد بحاجةٍ إلى محطاتٍ دوريَّةٍ لاستعادة فاعلية النفس وحيويتها، وقد تولَّت الشريعة ترتيب المحطات في إحكامٍ عجيب؛ فتهجد الثلث الأخير محطةُ اليوم، والتبكير للجمعة منذ الصباح محطةُ الأسبوع، ورمضان عامة واعتكاف العشر الأواخر خاصة محطةُ العام، والحج محطةُ العمر، وجاء الحديث بطلب تكرره في كلِّ خمسة أعوام مرة كما رأيت.

ولهذا لا أجدني متفقًا مع الدعوات المتكررة لترك نوافل الحجِّ والعمرة وإيثار بقية المصارف بإطلاق القول في ذلك؛ ولكن من خرج لمحض التنفل فالأولى أن يجعل ماله فيما تشتد الحاجةُ إليه من النفقات في أرجاء المجتمع.

أما من خرج لإصلاح قلبه واستنقاذ نفسه مما يعرض لها من الفتن والشهوات حتى يشعر أنها تلطَّخت بأوساخ الدنيا، وصارت على كدرٍ لا يُخرجه منه إلا محطةُ فلترة قوية يستعيد بها عافيته الإيمانية كالحج والعمرة.. فإني أراه على فقهٍ وبصيرةٍ وخير.

وعافية النفس وسكينتها مطلبٌ يستحق أن تُنفَقَ فيه الأموال.

والعتب يشتدُّ بمن يعتاد الحج والعمرة ويتكرر ذلك منه ثم هو في بعدٍ عن المعركة بين الحق والباطل وأعباء الجهاد في سبيل الله، فهذا يتبع الهوى وإن توهَّم أنه على الهدى، وسيأتي في خاتمة الكتاب كلامٌ يتقاطر فقهًا ونفاسةً بخصوص ذلك لابن القيم بإذن الله تعالى، بالإضافة لما سيأتي بعد قليلٍ في البند الثالث من كلامٍ عن دورِ الحجِّ نفسِهِ في تثوير الحالة الجهادية في صدر الحاج ليدخل المعركة بقوة.

وإني أُحَرِّضُ كلَّ قادرٍ على الحجِّ أو العمرة أن يفعل، ويبادر في ذلك، لا سيما بعد أن بات السفر للحج يتضيَّق بفعل الخناق الأمني على المسافرين في المطارات وتَعَرُّضِ فئامٍ

---

(١) صحيح ابن حبان، رقم الحديث: (٣٧٠٣)، شعب الإيمان للبيهقي، رقم الحديث: (٣٨٣٧) واللفظ للبيهقي وما تبعه من كلام علي بن المنذر عنده لا عند ابن حبان.

كثيرين من المسلمين للملاحقة والاعتقال ولا حول ولا قوة إلا بالله، فمن استطاع أن يستدرك على نفسه ويقوم بالنُّسُكِ الذي أوجبه الله عليه ويحقق ما فيه من مقاصد عظيمة.. فليفعل.

أما من مُنِع من ذلك، أو صار لا يستطيعه إلا بركوب الخطر واقتحام المهالك.. فعزاؤه أنَّ النبيَّ ﷺ أحصِر من قبل، وعسى الله أن يفرِّج الكرب ويُذهب الغمة عن الأمة، وإنما الأعمال بالنيات، وإنما لكلِّ امرئ ما نوى.

البند الثاني: **فضيلة الحج**:

روى أصحاب السنن إلا **أبا داود** عَنْ **عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ** رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**تَابِعُوا بَيْنَ الحَجِّ وَالْعُمْرَةِ؛ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَلَيْسَ لِلْحَجَّةِ الْمَبْرُورَةِ ثَوَابٌ إِلَّا الْجَنَّةُ**»[1] صححه الألباني.

والحديث يُصرِّح بثلاث فضائل: إزالة الفقر ومحو الذنوب والجنة، فليس الحج من الأعمال التي ينحصر جزاؤها في تكفير الذنوب؛ بل يُضَمُّ إلى ذلك الجنة.

وقوله: «**تَابِعُوا بَيْنَ الحَجِّ وَالْعُمْرَةِ**»؛ أي إذا اعتمرتم فحجوا وإذا حججتم فاعتمروا، بحيث يظهر الاهتمام بهما وإن تخلل بينهما زمنٌ قليل.

وينبغي للمتعبد أن يحرص على هذه المتابعة كلما يسَّر الله أسبابها، والضراعة إلى الله بذلك، ولا يترك تكرار النسك إلا لمصلحةٍ تقتضي ذلك بحسب الذي تقدَّم قبل قليل.

وقوله: «**المَبْرُورة**» قيل: المقبولة، وقيل: التي لم يخالطها شيءٌ من الإثم، وقيل غير ذلك، وحاصل الأقوال: أنها الحجة التي وفِّيت أحكامُها فوقعت موقعًا لما طُلب من المكلف على الوجه الأكمل[2].

---

(١) سنن الترمذي، رقم الحديث: (٨١٠)، سنن النسائي، رقم الحديث: (٢٦٣٠)، سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٢٨٨٧) واللفظ للترمذي.

(٢) فتح الباري لابن حجر (٣/ ٣٨٢)، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للمباركفوري (٣/ ٤٥٤)، التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي (١/ ٨٩٧).

والحديث يتناول فضيلةَ العُمرةِ كما هو ظاهرٌ، والعمرة من جنس الحج، وما يُقال في التحريض على الحج يُقال في التحريض على العمرة، والعمرة واجبةٌ عند الشافعية والحنابلة، وسنةٌ مؤكدةٌ عند الحنفية والمالكية[1].

وجاء عند **المنذري** من حديث **ابن عمر** رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**فَإِنَّكَ إِذَا خَرَجْتَ مِنْ بَيْتِكَ تَؤُمُّ الْبَيْتَ الْحَرَامَ، لَمْ تَضَعْ نَاقَتُكَ خُفًّا وَلَمْ تَرْفَعْهُ إِلَّا كَتَبَ اللهُ لَكَ بِهِ حَسَنَةً، وَمَحَا عَنْكَ بِهِ خَطِيئَةً، وَرَفَعَ لَكَ بِهَا دَرَجَةً.**

وَأَمَّا رَكْعَتَيْكَ بَعْدَ الطَّوَافِ فَإِنَّهُمَا كَعِتْقِ رَقَبَةٍ مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ.

وَأَمَّا طَوَافُكَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ فَكَعِتْقِ سَبْعِينَ رَقَبَةً.

وَأَمَّا وُقُوفُكَ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ فَإِنَّ اللهَ يَهْبِطُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيُبَاهِي بِكُمُ الْمَلَائِكَةَ يَقُولُ: هَؤُلَاءِ عِبَادِي جَاءُونِي شُعْثًا غُبْرًا مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، يَرْجُونَ رَحْمَتِي وَمَغْفِرَتِي، فَلَوْ كَانَتْ ذُنُوبُكُمْ عَدَدَ الرَّمْلِ أَوْ كَزَبَدِ الْبَحْرِ لَغَفَرْتُهَا، أَفِيضُوا عِبَادِي مَغْفُورًا لَكُمْ وَلِمَنْ شَفَعْتُمْ لَهُ.

وَأَمَّا رَمْيُكَ الْجِمَارَ فَلَكَ بِكُلِّ حَصَاةٍ رَمَيْتَهَا تكفير كَبِيرَةٍ مِنَ الْكَبَائِرِ الْمُوبِقَاتِ الْمُوجِبَاتِ.

وَأَمَّا نَحْرُكَ فَمَدْخُورٌ لَكَ عِنْدَ رَبِّكَ.

وَأَمَّا حِلَاقُ رَأْسِكَ فَبِكُلِّ شَعْرَةٍ حَلَقْتَهَا حَسَنَةٌ، وَيُمْحَى عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةٌ.

قَالَ -أي: السائل-: يَا رَسُولَ اللهِ؛ فَإِنْ كَانَتِ الذُّنُوبُ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ؟

قَالَ: إِذًا يُدَّخَرُ لَكَ فِي حَسَنَاتِكَ.

وَأَمَّا طَوَافُكَ بِالْبَيْتِ بَعْدَ ذَلِكَ فَإِنَّكَ تَطُوفُ وَلَا ذَنْبَ لَكَ، يَأْتِي مَلَكٌ حَتَّى يَضَعَ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيْكَ ثُمَّ يَقُولُ: اعْمَلْ لِمَا يُسْتَقْبَلُ؛ فَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا مَضَى..»[2] حسنه الألباني.

---

(١) الأم للشافعي (٢/ ١٣٢)، نهاية المحتاج للرملي (٣/ ٢٣٤)، المغني لابن قدامة (٣/ ١٧٤)، بدائع الصنائع للكاساني (٢/ ٢٢٦)، مواهب الجليل لشرح مختصر خليل للحطاب الرعيني (٣/ ٤١٥).

(٢) الترغيب والترهيب، رقم الحديث: (١٧٠٩).

البند الثالث: **ما يعين على تجويد نسك الحج**:

أعرض ذلك في نقاط ست:

أولًا: إدراك مركزية الحج في التصور الإيماني: بحسب الذي مرَّ في البند الأول.

ثانيًا: استحضار أجور الحج: كالذي تسطَّرَ في البند الثاني.

ثالثًا: استحضار أسرار النسك:

وأمثل بنُسُكٍ واحدٍ إيجازًا؛ وهو رمي الجمار.

فإنَّ الأجرَ المتقدمَ للرمي مدهش؛ إذ إنَّ عددَ الحصيات التي تُرمى لمن لم يتعجل في يومين سبعون حصاة، وهذا يعني أنَّ سبعين كبيرة يُمكن أن تُكفَّر بالرمي فقط!

فهذا يفتح نافذة التأمل لمحاولة اكتشاف سرِّ المسألة.

إنَّ الذي يظهر لي -والله أعلم- أنَّ ضخامةَ الأجرِ راجعةٌ أولًا لعظيم فضل الله الذي يتنزل على عباده الحجيج؛ بدليل عظمة الفضل الذي يكاد يُوجد في كل نسكٍ من المناسك، والذي بلغ ذروته أنَّ الله الجليل العظيم سبحانه يدنو من عباده الحجيج الواقفين بصعيد عرفات، فضلًا عن نعمة العتق من النار.

روى **مسلم** في صحيحه من حديث **عائشة** رضي الله عنها أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتِقَ الله فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَإِنَّهُ لَيَدْنُو ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمُ الْمَلَائِكَةَ فَيَقُولُ: مَا أَرَادَ هَؤُلَاءِ**»[1].

ثم إنَّ بقعةَ الرمي شهدت إحدى المعارك الحسيَّةِ مع الشيطان الرجيم.

روى **الحاكم** و**البيهقي** بسنده عَنِ **ابْنِ عَبَّاسٍ** رضي الله عنهما قَالَ: «**لَمَّا أَتَى إِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ الله عَلَيْهِ السَّلَامُ الْمَنَاسِكَ عَرَضَ لَهُ الشَّيْطَانُ عِنْدَ جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ حَتَّى سَاخَ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ عَرَضَ لَهُ عِنْدَ الْجَمْرَةِ الثَّانِيَةِ فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ حَتَّى سَاخَ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ عَرَضَ لَهُ فِي الْجَمْرَةِ الثَّالِثَةِ فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ حَتَّى سَاخَ فِي الْأَرْضِ**».

---

(١) صحيح مسلم، رقم الحديث: (٣٣٥٤).

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: **«الشَّيْطَانَ تَرْجُمُونَ وَمِلَّةَ أَبِيكُمْ تَتَّبِعُونَ»**[1].

فنبي الله **إبراهيم** عليه السلام رجم الشيطان رجمَ حسٍّ ونحن نرجمه من بعده رجمَ معنى، نرجم رمزيته وحزبه؛ إعلانًا للمفاصلة بيننا وبينه، وإعلانًا للحرب معه ومع حزبه وأوليائه المبطلين.

قد يسأل سائل: أما كان يكفي لتحقيق هذا المقصد أن نرجمه مرةً أو مرتين أو جولةً واحدة في كل جمرةٍ نرمي سبعًا كما صنع نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام؟

والذي يزيدُ من وَجَاهَةِ هذا السؤالِ أنَّ معظمَ أعمالِ الحجِّ تقع بين ظهر التاسع وظهر العاشر، أما الرمي فيمتد ثلاثة أيام، وليس مع الرمي إلا الأكل والشرب والذكر لله تعالى.

فمن هنا يطرح السؤال من جديد: لماذا؟!

الذي يقع في الظن أنَّ الشريعةَ تريد أن تنبهنا على شراسة المعركة، وأن تَنْظِمَنَا فيها، لندخل في أحداثها بقوة، ولئلا يكون في صدورنا أيُّ قدرٍ من الحنين للباطل أو التعايش معه.

فهي معركةٌ صورتها الرجم وحقيقتها تفعيلُ عقيدةِ الولاء والبراء والدخول بقوة في المعركة بين الحق والباطل ومنازلة الكفرة والمشركين من غير هوادة.

ويتأكد هذا المعنى في جو تلبيس الحق بالباطل، وضبابية الصورة عند كثيرٍ من الناس؛ لأنَّ الباطل في كثيرٍ من الأحيان يكون معه القوة والسلطة والجاه والمال، ويكون الحق مطاردًا متَّهمًا لا جاه له ولا مال معه، فهنا تضطرب الأمور ولا يتضح المشهد على وجهه، فكانت هذه التربية الشرعية الواضحة التي تُؤذِنُ بوجود عدوٍّ حقيقيٍّ لا بد من حربه، ليعود الإنسان من حجه مجاهدًا في سبيل الله؛ إما بالساعد وإما باللسان أو بالقلم أو بالمال أو بغير ذلك مما ييسره الله لعبده ويفتحه عليه.

فآل رمي الجمار إلى الانتظام في المعركة بين الحق والباطل.

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي، رقم الحديث: (٩٩٧٥)، المستدرك على الصحيحين، رقم الحديث: (١٦٦٦).

والـذي يستفز الحاجَّ ويُسَهِّلُ عليه استحضار هـذا المعنى أنَّ النُّسُكَ يَمتَدُّ لثلاثة أيام بعد يوم النحر، وأنَّ رجم الجمار مأخوذ من رجم نبي الله **إبراهيم** عليه السلام للشيطان، فالتذكرة ليست بعيدةً من الأذهان لمن تأمل.

وثمة أمرٌ آخر حصل في هذا المكان يُقوِّي هذا المعنى وإن لم يتَّصِل به اتِّصالًا مباشرًا، وهو أنَّ هذا المكان هو الذي شهد اجتماع بيعة العقبة الثانية، ولا يخفى أنَّ بيعةَ العقبةِ الأولى بيعةٌ تربوية، أما الثانية فهي بيعةٌ سياسية، حصل فيها الاتفاق المباشر على أن يستقبل مُسلِمَةُ المدينة مُسلمَةَ مكة، ليلحق النبي ﷺ بهم مباشرة ومن ثم يُعلَنُ عن دولةِ الإسلام.

والذي يعنينا هنا أنَّ النبيَّ ﷺ لَمَّا بايع الأنصار على ذلك -بعد أن تلا عليهم شيئًا من القرآن وعرض عليهم الأمر- وإذ بالشيطان يصيح من رأس الجبل: يا معشر قريش؛ هذه بنو الأوس والخزرج تُحالِفُ على قتالكم!

ففزع الأنصار فقال النبي ﷺ: **«لا يروعكم هذا الصوت؛ فإنَّما هو عدوُّ الله إبليس وليس يسمعه أحد».**

وأمرهم عند ذلك أن ينفضوا إلى رحالهم، وكانت البيعة قد تمت بفضل الله تعالى.

وفي روايةٍ أخرى أنَّ النبيَّ ﷺ قال له: **«استمع أيْ عدوَّ الله، أما والله لَأَفْرُغَنّ لك»**[1].

فهذه البقعة التي تشهد رمي الجمار ورجم رمزيَّة الشيطان تُذكِّر المسلم بالمعركة مع الشيطان في غير جولة.



وما زال مسجد البيعة قائمًا يُمَثِّلُ تذكرةً للحاج بهذه المحطة المركزية من التاريخ النبوي، ومسجد البيعة مبنيٌّ فوق البقعة التي شهدت اجتماع بيعة العقبة الثانية، ولهذا حمل اسمها، وهو يواجه الحاج حين ينتهي من رمي الجمار ويريد أن يستدير عائدًا إلى خيمته في مِنَى.

(١) السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون لابن برهان الدين الحلبي (٢/ ١٧٨)، الروض الأنف لأبي القاسم السهيلي (٢/ ٢٧٢)، الرحيق المختوم للمباركفوري ص (١٢٠).

وقيمةُ هذا المعلم: أنه يُذَكِّرُ بالمحطَّةِ التي انتقلنا فيها من مرحلة الفرد في مكة إلى مرحلة الدولة في المدينة.

وهذه إشارةٌ مهمَّةٌ تُقَرِّرُ أنَّ هذا الدينَ ليس منزويًا في المساجد، وليس مختبئًا في الصدور؛ وإنما هو دينٌ ذو نزعةٍ سياسية توسعية، فالدين دعوةٌ ودولة، والنبي ﷺ حين دخل المدينة دخلها بموجب اتفاق البيعة سلطانًا سياسيًّا إلى جانب دخوله لها رسولًا نبيًّا.

فالمعركةُ إذن ليست منحصرةً في ساحةِ الأفكار؛ بل هي معركة تنافس على قيادة هذه الأمة لجميع الأمم، والفتوحات الإسلامية أدل شيءٍ على هذه المعركة، ولهذا يخاف الغرب من أيِّ تقدمٍ إسلاميٍّ ولو لم يشكل خطرًا؛ لأنَّهم يعلمون أنَّ الإسلام يربي أبناءه على القوة والتوسع من أجل إنقاذ الناس من العذاب وتخليصهم من الطغيان، ومعلومٌ أنَّ الدولةَ التوسعيَّةَ خطيرةٌ ولو كانت ضعيفة، والدولةَ غيرِ التوسعيَّةِ ليست خطيرةً ولو كانت قوية.

والمقصود: أنَّ نُسُكَ رميِ الجمار يجعلك في مواجهة الشيطان وحزبه وجهًا لوجه، لترجع من حجك مجاهدًا في سبيل الله، تردد دومًا: أما والله يا عدو الله لأتفرغن لك.

رابعًا: الوقوف عند خصال شخصية سيدنا إبراهيم عليه السلام:

وذلك بحكم ارتباط أكثر المناسك بشخصه؛ فهو الذي بنى الكعبة، وسعت زوجته بين الصفا والمروة لما تركهم بأمر الله، وهو الذي رمى الشيطان بالحصيات في منى، وهو الذي أُمِرَ بتطهير البيت والأذان في الناس بالحج كما يفيد قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٦، ٢٧].

إنَّك تكاد تجد له في كلِّ زاويةٍ بصمة، وفي كل شعيرةٍ حضورًا، حتى إنَّه صار علمًا على الملَّةِ الصحيحة كما قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

ثم كيف لشخصٍ أن يصبح خليلَ الله، ويُخلِّد الله ذكره على امتداد مسار البشرية الطويل إلى أن يرث الله الأرضَ ومن عليها، حتى إنَّ هناك مقامًا يحمل اسمه هو «**مقام إبراهيم**»، وليس هو مجرد حجرٍ كان يقف عليه في بنائه للكعبة وبقي في إطار الذكريات؛ بل جاء قول الله صريحًا: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]!

فما سرُّ هذه الشخصية؟

وكيف بلغ هذه المنزلة في البشرية؟

وما الخصال التي بلَّغَتهُ هذه الإمامة وأوصلته إليها حتى إنَّه لمعدودٌ من أبرز الشخصيات المجمع عليها بين الأديان؟

ومن المستظرف أنَّ الولايات المتحدة الأمريكية حين جاءت في السنوات الأخيرة تسلخ المسلمين من دينهم عبر دينٍ توافقيٍّ ينزع من الإسلام مخالبَه المتمثلة في الجهاد وكل عوامل القوة والنهضة أطلقوا عليه «**الدين الإبراهيمي**»؛ بحيث يكون جامعًا للإسلام واليهودية والنصرانية؛ وذلك لمآرب منها: إنتاج نسخةٍ جديدةٍ من الدين متناغمة مع الثقافة الغربية، ومشاركة أهل المنطقة في ثرواتهم ونفطهم، ودمج العدو الصهيوني في شعوب المنطقة، وقد تكلمت عنه في مقالةٍ تكشف مخطط القوم بعنوان: «**ويسألونك عن الدين الإبراهيمي الجديد**» وهي منشورةٌ على الشبكة.

فما هذا القبول العجيب حتى إنَّ أئمة الكفر يتخذون منه مدخلًا مقبولًا لإبطال الدين!

وقبل أن آخذ في الجواب فلعلك تذكَّرت أنك تصلي وتسلم على **إبراهيم** عليه السلام في كلِّ صلاةٍ وتقول في تشهدك: «**اللهمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللهمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**»[1].

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٣٣٧٠)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٩٣٥).

وأنك تقول في أذكار صباحك: «أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ وَعَلَى كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»[1] ومثل ذلك في المساء.

كلُّ ذلك وما على شاكلته يؤكد طرح الأسئلة المتقدمة.

الحقُّ أنَّ الجوابَ عن ذلك يحتاجُ إلى بسطٍ وأي بسط، ولهذا لم يُبالغ من أفرد في شخصه عليه السلام الكتب[2]، وأُسجِّل هنا بعض الإشارات التي تعينك في البحث في خصال هذه الشخصية:

إنَّ نبيَّ الله **إبراهيم** عليه السلام بلغ الإمامة في الانقياد لأمر ربه؛ لقد ألقى زوجته وولده في جوف الصحراء وتركهم لأنَّ الله أمره بذلك ثم توارى خلف الجبال والهضاب يدعو الله لهم كما وثَّق القرآن هذا المشهد في السورة التي حملت اسمه بقوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وحين جاءه الأمر بذبح ولده من خلال رؤيا منام -وهي أضعف طرق الوحي في حقِّ الأنبياء- امتثل وراح يقول لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

ورفع قواعد الكعبة ثم سأل الله أن يتقبل منه ذلك كما قال سبحانه: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٢٧].

فهو يبني بيت الله ويخشى ألا يتقبل منه صاحب البيت ذلك!

---

(١) مسند أحمد، رقم الحديث: (١٥٤٠٠)، والحديث صححه الشيخ شعيب الأرنؤوط.

(٢) من الكتب المُفردة فيه: «**سيدنا إبراهيم عليه السلام.. أمةٌ في رجل**» للشيخ د. صلاح سلطان فرَّج الله كربه، «**إبراهيم خليل الله.. داعية التوحيد ودين الإسلام والأسوة الحسنة**» للدكتور علي الصلابي، «**إبراهيم عليه السلام.. من وحي القرآن**» للأستاذ الدكتور عقيل حسين عقيل، «**إنَّ إبراهيم كان أمة**» للشيخ د. ناصر العمر، «**سيدنا إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم**» للدكتور محمد الكبيسي، «**إبراهيم عليه السلام ودعوته في القرآن الكريم**» لأحمد البراء الأميري.

ولم يكتف بذلك، بل راح يدعو بأدعيةٍ قلَّ أن تخطر على بالِ أحد:

﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨، ١٢٩]

إنه يدعو بدوام الخضوع والإذعان لله، يدعو بهذا له ولولده ولذريتهما من بعدهما.

ويدعو أن يعلمه الله شرائع الدين وأعمال الحج كالطواف والسعي والوقوف، أو المتعبدات التي تقام فيها الشرائع كمنى وعرفات ونحوهما.

ويدعو أن يبعث الله في ذريتهما أو في الأمة المسلمة رسولًا يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، وقد استجاب الله له هذا الدعاء بعد آلاف السنين، بإرسال نبينا ﷺ الذي قال: «**أنا دَعْوَةُ إبراهيم**»[(١)].

إنَّ كثيرًا من النَّاسِ يتفلت من الأوامر الشرعية التي أمر الله بها، أما نبيُّ الله **إبراهيم** عليه السلام فيسأل ربه أن يعلمه الشرائع ويقول: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾.

إنَّ أكثرَ الناسِ لا تتجاوز أدعيةُ الواحدِ منهم نفسَهُ وأهلَهُ ومن يعيش في زمنه، أما نبيُّ **إبراهيم** عليه السلام فالدعاء لذريته وللأمم من بعده أمرٌ شائع تراه في كثيرٍ من الدعوات المأثورة عنه عليه السلام.

ومن الأدعية التي وثَّقها القرآن الكريم وتكشف لك عن خصاله عليه السلام:

ما جاء في قوله سبحانه: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦].

فهو يسأل ربه أن يجعل البلد آمنًا، والمراد به مكة، وهذا دعاء قلما دعا به أحد إلا تبعًا للمأثور الوارد.

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١/ ١٧٣) وصححه الألباني.

ويسأله أن يجنّبه وبَنيهِ عبادةَ الأصنام، وأكثرنا في أمانٍ تامٍّ من هذا، ولا يكاد يخطر على أذهاننا في الدعاء على بال.

ثم هو في غاية الشفقة على من كفر، فيقول مفوضًا أمرهم إلى الله: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وكذا ما جاء في قوله سبحانه:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩، ٤٠].

إنه يشكر ربه على ما آتاه من ذرية، ويسأله أن يكون مقيم الصلاة، يؤديها في أوقاتها، وأن تكون على إخلاصٍ وخشوع، يسأل هذا لنفسه ولذريته.

فهل تجعل من دعائك أن تكون مقيمَ الصلاة؟

ولو دعوت بذلك لنفسك فهل دعوت به لذريّتك من بعدك؟!

ثم إنَّ الذي يُقلِّب دفترَ حياتِهِ عليه السلام يرى أنَّه كان متمسكًا بالحق داعيًا إليه مجاهدًا في سبيله منذ أن كان صغيرًا.

لقد قام بأمر الله وتوحيده وأعلن في كلامٍ واضحٍ بيِّن: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

لقد جادل أباه وقومه وتحداهم جميعًا، وأفحمهم حتى إنهم لم يجدوا من سبيلٍ إلا القمع والأذى والتهديد.

أما قومه.. فقد أقنعهم وأفحمهم حتى رجعوا إلى أنفسهم وقالوا لبعضهم: إنكم أنتم الظالمون، لكنهم نُكِسُوا على رؤوسهم بعد ذلك وعاندوا، ولما شعروا بالخطر على أصنامهم ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٨، ٦٩].

وأما أبوه.. فلما عجز عن الرد عليه قال له: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦].

فأخذ **إبراهيم** قرارًا بالهجرة ولم يُبالِ بترك بلده في سبيل الله، وقال لأبيه: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ٤٧ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾ [مريم: ٤٧، ٤٨].

لقد جمع **إبراهيم** عليه السلام بين الشخصية ذات الرحمة واللين والشفقة على عباد الله، وبين الجرأة في الحق والشدة على أعداء الله.

ومن شواهد الرحمة ما جاء في قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ٧٤ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ٧٥ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾ [هود: ٧٤ - ٧٦].

ومن شواهد الشدة في الحق ما جاء في قوله سبحانه: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٨].

وقوله سبحانه: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

ومن المناقب البارزة في شخصية **إبراهيم** عليه السلام أنه قام بالأوامر التي أمره الله بها على الوجه الكامل، فالشائع في الصالحين النقص فيما يعملون ولو كانوا أئمة، لكن الله أخبرنا عن العزم العظيم الذي كان عليه عبده ونبيه **إبراهيم** عليه السلام وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وقد اختلف المفسرون في بيان المراد بالكلمات ولا يمكن الجزم بشيءٍ مما قالوه، ولعلَّ أرجح الآراء أنها الأوامر التي كلَّفه الله بها، قام بها على أتم وجه[1].

إذن هذه جملةٌ من المعالم التي تكشف لك عن إمامة هذه الشخصية وعظمتها، وما تسطَّر هنا ليس إلا نبذةً يسيرةً تستفز القارئ للبحث في خصال هذه الشخصية وصفاتها

(١) تفسير الطبري (٢/ ١٥-١٧)، تفسير الوسيط (١/ ٢٠٢).

ومعالمها، ولعلك أدركت أنَّ الوقوف على ذلك شأنه الكتب المفردة.

والذي نخلص إليه أنَّ **إبراهيمَ** عليه السلام أنموذجٌ متكامل، عقيدةً وشريعةً وسلوكًا، على صعيد الأعمال الظاهرة والأعمال القلبية الباطنة، فهو النبيُّ الإمام الكامل القدوة.

وليس هذا الاستنتاج محضَ استنباط؛ فإنَّه منطوق القرآن الكريم، وذلك في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١].

وهذا يشهد للشيخ **صلاح سلطان** فرَّج الله كربه بالتوفيق حين سمى كتابه عن نبي الله **إبراهيم** عليه السلام: «**سيدنا إبراهيم عليه السلام.. أمةٌ في رجل**».

ولا أحسب رجلًا يحجُّ البيتَ إلا ويعاين ما لا يكاد يحصيه من شواهد إمامة هذا النبيِّ العظيم، حتى إنَّ الله تعالى شرَّفه بالمشاركة في بناء معالم المِلَّةِ؛ كبنائه للكعبة وقيامه بالنسك وندائه لها، حتى ارتبطت المِلَّةُ باسمه، وحَمَلَتِ المناسكُ أخبارَهُ وسَارت على رَسمِه.

وعقب الذي قرأت لعلك أدركت طرفًا من سرِّ جَعْلِهِ في مادَّةِ التشهدِ التي نكررها في كلِّ يوم ما يزيد عن عشر مرات، وكذا في مادة أذكار الصباح والمساء، لتبدأ بمجموع ذلك تتدبر علاقة هذه الأمة بنبيِّ الله **إبراهيم** عليه السلام أو بزوجته أو بولده **إسماعيل** عليه السلام.

إذن؛ من الصفات التي بلَّغت نبيَّ الله **إبراهيم** عليه السلام هذه الإمامة: الانقياد المطلق لله تعالى والامتثال التام لأوامره، والجرأة الشديدة في الحق، والتكامل بين مقامات الدين والإمامة في كلٍّ منها، حتى صار أمة وحده.

وهذا يعين الحجيج خاصةً على تجويد النسك، ويُقِيتُ المتعبدين عامَّةً في رحلة سيرهم إلى الله تعالى.

خامسًا: استحضار المشاهد والأحداث المرتبطة بها:

ومن ذلك هذه الأربعة:

أ- الوقوف بموضع دار الندوة والذي يقع شمال الحِجْرِ إلى الشرق قليلًا حيث كان الكفار يخططون لاستئصال شأفة الإسلام ومَحْقِ أهله، ثم هم اليوم مَثَلُ السَّوْءِ ورمزُ

الكفرِ والإجرام، والإسلام في عافيةٍ، قد انتشر في الأرض، وتوارثه الناس جيلًا بعد جيل، حتى صرنا بعد هذه القرون المتطاولة من المسلمين الموحدين، وها نحن نسعى ونطوف حول الكعبة، والناس يشهدون لربهم سبحانه بالوحدانية ولنبيهم ﷺ بالرسالة.

ب- الوقوف بجبل الصفا، واستشعار أنَّ دار الأرقم التي كان النبيُّ ﷺ يُربِّي فيها أصحابه رضي الله عنهم تقع على سفحه، ولعله لم يخطر ببال زعماء قريش أنَّ المكان الذي تحصل فيه اللقاءات وتتأسس فيه كتيبة الإسلام لا يبعد عن دار الندوة مقر الكفر سوى مائة مترٍ أو أقل من ذلك!

ج- الوقوف بجبل أحد وكذا بجبل الرماة، وتَذَكُّرُ أحداث الغزوة وأماكن استشهاد بعض الصحابة رضي الله عنهم، والوقوف على قبورهم.

وأنصح بقراءة أحداث المعركة جيدًا والوقوف على تفاصيلها العسكرية، وقراءة معالجة القرآن لها في سورة آل عمران؛ فهذا أوقع في التذكرة والعبرة، وتفسيرُ الظِّلال للآيات التي تناولتها تحفةٌ تربوية لا ينبغي أن تفوت.

د- ما تقدم من المشاهد التي حصلت فيها أحداث مع نبيِّ الله **إبراهيم** عليه السلام أو ارتبطت به؛ بدءًا بالكعبة التي رفع قواعدها، ومرورًا بالصفا والمروة التي كانت زوجته تسعى بينهما بحثًا عن الماء، وليس انتهاء بمنى حيث رمى الشيطان بالحصى.

إنَّ الحاجَّ محظوظٌ بالمرور في هذه الأماكن وتَذَكُّرِ ما حصل فيها، والتقاط المعاني التي تشحن المشاعر، وتحرض على المقامات الصالحة.

وأكتفي بهذا الحد محيلًا على قراءة كتابٍ في السيرة؛ بحيث يعين في تذكر المشاهد والأحداث، وأحيل كذلك على صفحة: «معالم المدينة النبوية» على الفيس بوك؛ فإنها تتولى ذكر المشاهد والأماكن المرتبطة بالنبي ﷺ أو بالصحابة رضي الله عنهم.

ووددت لو نشط أحد الفضلاء في استخراج دررها في ملفٍّ واحد؛ فإنَّها جهدٌ كريمٌ تراكم مع أصحابه عبر السنين، فجزى الله من يقوم على أمرها خيرًا.

سادسًا: نصائح عامة:

أذكر هنا جملةً متفرقةً من النصائح التي تُعينُ على تجويد النسك عدَّتها تسعٌ كما يلي:

١- الاستكثار من الصلاة ما أمكن؛ فإنَّ الرَّكعةَ في المسجد الحرام بمائة ألف وفي المسجد النبوي بألف.

ودليل هذا: ما روى **ابن ماجه** في سننه عَنْ **جَابِرٍ** رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَصَلَاةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ**»[١] صححه الألباني.

٢- تكرار العمرة من غير مبالغةٍ في التكرار.

٣- ختم ختمة قرآنية أو ما تيسَّر من القرآن؛ استثمارًا للوقت أولًا، ورجاءَ حصول مضاعفة الأجر لمائة ألف حسنة لغير الصلاة على رأي من يقول: إنَّ حسنةَ الحَرَمِ بمائة ألف مطلقًا، ولأنَّ التجارب تُفتي بأنَّ المتدبر يزداد فهمًا للقرآن بتلاوته في مكان نزوله، ومقام الإنسان مدة في البقعة التي شهدت مهبط الوحي فرصةٌ للعيش مع الآيات.

وقد كتبت منشورًا مرةً يتضمن هذا المعنى هذا نصه:

«يزداد فهمك للقرآن بتلاوته في زمن نزوله «رمضان والليل»، أو في مكان نزوله «مكة والمدينة»، أو باستماعه من إمامٍ ذي صوتٍ خاشعٍ يقرأ قراءةً تفسيرية، أو بدراسة البيئة التي تَنَزَّلَ فيها، أو بمرورك بظروفٍ تشبه أحوال تنزيله، كما قال الجصاص: «القرآن لا تَتَفَتَّق معانيه إلا لمن يعانيه».

٤- الإكثار من الدعاء والتماس الإجابة في مواضع الإجابة: كالدعاء عند الصفا والمروة والجمار وفي عرفة.

ولا تحمل همَّ الإجابة ولكن همَّ الدعاء؛ فإنَّ الإجابةَ في إثره إن شاء الله.

---

(١) سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (١٤٠٦).

ومتى حضر قلبك ودعوت فالرجاء أن تُجاب في أيِّ موضع كنت ما دمت حاجًّا أو معتمرًا؛ روى **ابن ماجه** عن **ابْنِ عُمَرَ** رضي الله عنهما عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**الْغَازِي فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْحَاجُّ وَالْمُعْتَمِرُ وَفْدُ اللهِ دَعَاهُمْ فَأَجَابُوهُ وَسَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ**»[1] حسنه الألباني.

وأرجى المواضع إجابةً عرفة؛ روى **الترمذي** أن النبي ﷺ قال: «**خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ**»[2] صححه الألباني.

وهذا يحتمل أن يريد به اليوم ويحتمل أن يريد به الحاج الواقف بعرفة خاصة[3]، والرجاء أن يعم كلَّ من دعا يوم عرفة، وعلى هذا عمل الناس، ولكن الدعاء في البقعة أرجى من غير شك.

ولي أمرٌ كان مستغلقًا أيما استغلاق، فلما يسَّر الله لي الحجَّ عام ١٤٣٢ هـ ودعوت به بعرفة أجيب عقب الحجِّ فورًا.

والمأثور عن النبيِّ ﷺ أنه أخذ يدعو عقب صلاته الظهر والعصر تقديمًا، ولم يزل واقفًا يدعو حتى غربت الشمس، مما يعني أنَّ الدعاءَ مكث نحوًا من خمس ساعات!

ومن الأحوال التي يُجاب عندها الدعاء: شرب ماء زمزم؛ روى **ابن ماجه** عن **جابر بن عبد الله** رضي الله عنهما يقول: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ**»[4] صححه الألباني.

ومن الأخبار في ذلك:

أنَّ **الخطيبَ البغدادي** لما حجَّ شرب من ماء زمزم ثلاث شربات وسأل الله ثلاث حاجات: أن يُحدِّث بتاريخ بغداد، وأن يُملِيَ الحديثَ والعلم بجامع المنصور، وأن يُدفن إذا مات بجوار بِشْرِ الحافي، فحصلت الثلاث[5].

---

(١) سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٢٨٩٣).
(٢) سنن الترمذي، رقم الحديث: (٣٥٨٥).
(٣) شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك (٢/ ٥٣).
(٤) سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٣٠٦٢).
(٥) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٤/ ٣٥).

وقال **ابن القيم**: «ولقد مرَّ بي وقتٌ بمكة سَقِمْتُ فيه، وفَقَدْتُ الطبيبَ والدواء، فكنت أتعالج بالفاتحة، آخذ شربةً من ماء زمزم، وأقرؤها عليها مرارًا ثم أشربه، فوجدتُ بذلك البرءَ التام، ثم صِرتُ أعتمد ذلك عند كثير من الأوجاع، فأنتفع بها غايةَ الانتفاع[1].

وقال في موضعٍ آخر: فإنه كان يعرض لي آلامٌ مزعجة بحيث تكاد تقطع الحركة مني، وذلك في أثناء الطواف وغيره فأبادر إلى قراءة الفاتحة وأمسح بها على محل الألم، فكأنَّه حصاة تسقط، جرَّبتُ ذلك مرارًا عديدة، وكنت آخذ قدحًا من ماء زمزم فأقرأ عليه الفاتحة مرارًا فأشربه فأجد به من النفع والقوة ما لم أعهد مثله في الدواء، والأمرُ أعظم من ذلك ولكن بحسب قوة الإيمان وصحة اليقين[2].

وقال **سويد بن سعيد**: رأيت عبد الله بن المبارك بمكة أتى زمزم فاستقى منه شربةً ثم استقبل الكعبة ثم قال: اللهم إنَّ ابن أبي الموال حدَّثنا عن **محمد بن المنكدر** عن **جابر** عن النبي ﷺ أنه قال: «**ماء زمزم لما شُرِب له**» وهذا أشربه لعطش القيامة، ثم شربه[3].

ويمكن التقاط هذه الكلمات، بحيث تقول عند الشرب: اللهم إنه قد بلغني أنَّ نبيك ﷺ قال: «**مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ**» وإني أشربه لكذا وكذا، وتسمي حاجتك من مثل التقوى والصدق والثبات على الدين والطاعة والتهجد وقضاء الدَّين وعافية البدن وما إلى ذلك مما يفتحه الله عليك.

٥- جمع القلب على المناسك، فتكون على قدرٍ من التعظيم والإجلال لهذه العبادة، وتتخفف من الدخول في أحوال الدنيا وأخبار أهلها، فتعيش أيامًا من الخشوع والافتقار لله تعالى وتَأمُّلِ نِعَمِهِ الواصلةِ إليك، ويعينك في ذلك أن تبتعد عن الزحام ما أمكن، كأنْ تجعل عمرتك في جوف الليل أو في الثلث الأخير من الليل، مع البعد عن المزاحمة خاصة عند الحجر الأسود وفي الروضة الشريفة.

---

(١) زاد المعاد (٤/ ١٧٨).
(٢) مدارج السالكين (١/ ٥٨).
(٣) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (١٠/ ١٦٦).

٦- التزام ما تيسَّر من مجالس أهل العلم المعقودة في الحرمين، وأحب أن تحضر لكلِّ عالمٍ درسًا بحيث تحضر لأكبر قدرٍ ممكن، إلا إذا عرفت عالمًا راسخًا بعينه فتستكثر من الحضور إليه.

٧- استدرار رحمة الله وعفوه بالعفو عن كلِّ من أساء إليك، ولا يمنع ذلك من المطالبة بما لك من حقوقٍ مادية، فيمكن أن تعفو عمن أساء وتبقى المطالبة بحقك قائمة.

٨- أن تقضي الليل كله في الحرم وتنوي الاعتكاف بذلك، ويمكن أن تصلي العشاء وتنام شيئًا يسيرًا إذا كان تبكير النوم سهلًا لديك ثم تأتي الحرم فتصلي وتقرأ القرآن وتدعو، فهذا أبلغ في اليقظة وحضور القلب.

وتكرار ذلك فضلٌ عظيم؛ فإنَّ إنسان هذا العصر منهمكٌ في دوامة الحياة وصخبها وأعبائها، بعد أن صار التشتت عنوانًا لهذا العصر، ومجاورة الكعبة أيامًا بما أنت عليه من جلال البقعة وجمال العمل خير معين على تحصيل الصفاء والنقاء وراحة البال التي تعينك في إعادة رسم مسارات حياتك، وإعادة جدولة أولوياتك.

ولا يصدنك عن ذلك أنك مشغولٌ بأوراد التعبد، فإنَّ الحالة التي أنت عليها من الصفاء تجعل أي التفاتةٍ منك إلى حياتك وأعبائك تثمر قراراتٍ راشدة، فترجع من حجِّك أو عمرتك خلقًا آخر بعون الله تعالى وتسديده وتوفيقه.

ومجرد النظر إلى الكعبة يزيل هموم النفس واضطرابها والفوضى العارمة في جوانحها.

إذا عَايَنَتْهُ العيـنُ زال ظَلامُهَا   وزال من القلب الكئيب التألُّمُ

وقد جرَّبت هذا لما تيسر لي الحج، وكنت أقضي الليل في الحرم، وكان يكون عندي الورد فأنظر إلى البيت فتطيب نفسي بمجرد النظر إليه، وأبقى مدةً من الوقت لا أقدر أن أبدأ في وردي لجلال المقام وجمال المشهد.

٩- توقي الذنوب في المسجد الحرام؛ فإنَّ المؤاخذةَ فيه شديدة، حتى إنَّها لتتناول الهمَّ على الذنب وإن لم يقع كما قال سبحانه: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الحج: ٢٥].

واختلف المفسرون في معنى الظلم الذي من أراد الميل به في المسجد الحرام أذاقه الله من العذاب الأليم على عدة أقوال، خلص الإمام **الطبري** بعد أن سردها إلى أنَّ أَوْلَى الأقوال في ذلك أنَّ الظلمَ في هذا الموضع يعم كلَّ معصيةٍ لله؛ لأنَّ الله تعالى عمم القول في الآية فلا يُخَصَّصُ ظلمٌ دون ظلم فيبقى الأمر على عمومه(١).

ومن هنا قال **ابن مسعود** رضي الله عنه: «من همَّ بخطيئةٍ فعملها في سوى البيت لم يكتب عليه حتى يعملها، ومن همَّ بخطيئةٍ فعملها في البيت لم يُمِتْهُ الله من الدنيا حتى يذيقه من عذابٍ أليم»(٢).

وقوله هذا أشد الأقوال في هذه المسألة.

ووجهُ هذه الشِّدَّةِ: أنَّ المسجدَ الحرامَ لما كان أولَ بيتٍ وُضِع للناس، وكان أعظمَ المواضع المعظَّمة.. كان من يعصي ربه فيه كالذي يعصي ملكًا على بساط ملكه، ومجرد الهمِّ بالمعصية مخالفٌ لقانون التعظيم، ومن ثم كان الواقع في ذلك في الحرم واقعًا في أمرٍ عظيم.

وكما أنَّ الله عز وجل أعطى لمن عَبَدَه فيه وصلَّى أجرًا عظيمًا حتى إنَّ الصلاةَ الواحدة فيه بمائة ألف صلاة.. كان من عصاه في المقابل مُتَوَعَّدًا بأنه لا يموت حتى يذيقه الله من العذاب الأليم، نسأل الله السلامة والنجاة.

الفرع الخامس: الجهاد في سبيل الله

الجهاد له إطلاقان: خاصٌّ وعام، أما الخاص فهو خصوص القتال بالسيف، وأما العام فيشمل عامة مراتب الجهاد ودرجاته وساحاته.

وقد خلصت في كتاب «**الرباط وأحكامه في الفقه الإسلامي**»(٣) إلى أنَّ عِدَّةَ الدرجات من جهة التفصيل ثمانٍ وثلاثون درجة، موزعة على جهاد النفس والشيطان وأرباب الظلم والمنكرات والبدع والكفار والمنافقين.

---

(١) تفسير الطبري (١٨/ ٦٠٠).
(٢) المعجم الكبير للطبراني (٩/ ٢٢٢).
(٣) هو في الأصل رسالة دكتوراه، وهو منشورٌ على الشبكة وأحيل عليه لمن أراد أن يتوسع في الباب.

والحكم الفقهي يختلف بحسب الإطلاق: فالجهاد بحسب الإطلاق الخاص فرض كفايةٍ عند الجمهور إذا كان الجهاد جهادَ طلبٍ، وفرض عين إذا كان الجهاد جهادَ دفع، وبحسب الإطلاق العام فرض عين كما خلص إلى ذلك **الحافظ ابن حجرٍ** بقوله: «**والتحقيق أنَّ جنسَ جهاد الكفار متعينٌ على كل مسلم؛ إما بيده وإما بلسانه وإما بماله وإما بقلبه**»[1].

فالجهاد في سبيل الله عبادةٌ مفروضة كالصلاةِ والصيام والزكاة والحج.

والقتال أحد أفراد الجهاد العسكري وهو يشمل أربع مراتب: الهجرة حيث احتيج إليها، والإعداد والتدريب، والرباط والحراسة، والقتال.

والرباط هو «الإقامة بالثغر لتقوية المسلمين وحراستهم من عدوهم».

وحراسة الثغور رأس مهام المرابط.

وبناءً على ذلك؛ فإنَّ أهل غزة مثلًا مرابطون، ومن يقف منهم بالثغر يحرسه فإنه مرابطٌ حارس، فإن انتهى من نوبته وعاد إلى بيته فهو مرابطٌ لا حارس.

وهنا أكتفي بمقامِ التَّحريضِ على الانتظام في سلك المجاهدين في سبيل الله بما تَيَسَّر لك، **فالمسلمُ الفَطِنُ قويُّ الانتماء لهذا الدين من جدول أوراده التعبدية أن يغيظَ أعداءَ الله تعالى، فالتربية الشرعية تجعلك سيفًا على أعداء الله، لتكون كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا.**

وهذا الدين ليس منزويًا في المساجد، وإنما يبتغي نشر رسالة الرحمة في العالمين، فمن أبى دِفْءَ الدَّعوةِ ونسائمَ الرحمة وأصر على طغيانه.. أنزلنا عليه حرارة السيف؛ لئلا يكون في الأرض إلا مسلمٌ أو مسالم.

وباجتماع الرحمة إلى القوة دخل الناس في دين الله أفواجًا، وذلك حين رأوا أنَّ المسلمين يفتحون بلادهم من أجلهم هم لا من أجل مصادرة ثرواتهم والسيطرة على ممتلكاتهم، وحينئذٍ رأينا معجزةً تُبهر كلَّ ناظرٍ تمثَّلت في دخول المغلوب في دين الغالب.

---

(١) فتح الباري (٦/ ٣٨).

وأما عن نصوص الفضائل فأحيل على كتاب الرباط لكثرتها، وأكتفي من جملة ما تسطَّر في الكتاب بحديثٍ واحدٍ في فضل القتال وثانٍ في فضل الرباط، وثالثٍ في فضل الحراسة مع شيءٍ من التعقيب إن شاء الله.

أما حديثُ فضلِ القتال:

فقد روى **ابن عساكر** من حديث **أبي هريرة** رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**قِيَامُ سَاعَةٍ فِي الصَّفِّ لِلْقِتَالِ فِي سَبِيلِ الله خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ سِتِّينَ سَنَةٍ**»[1] صححه الألباني.

وهذا فضلٌ لا طاقة للقاعد به مهما أوتي من جَلَدٍ في التعبد؛ فساعةُ قتالٍ في يَومٍ من حَياةِ مجاهدٍ أعظم أجرًا من رجل تهجد كل ليلة مدة ستين سنة[2]!

إن هذا لهو الفضل العظيم.

لكن المجاهدَ ضعيفٌ من غير تعبد، والعابدَ ضعيفٌ من غير جهاد، فلا يقوم الأمر إلا بهما، ولا تحصل التربية إلا باجتماعهما، كما هي دلالة الوصف الوارد عن الصحابة رضي الله عنهم إذ قال الله عنهم: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩].

وهذا لا يمكن أن تقوم دولةٌ للإسلام بمحرابٍ دون حِرَاب، ولا توفيقَ في الحراب إلا إذا تقدمه تعبدٌ في المحراب، ولن تضيع أمةٌ يلزم أبناؤها الثغور والمساجد.

وأما حديثُ فضلِ الرباط:

فقد أخرج **الترمذي والنسائي** عن **أبي صالح** مولى **عثمان** قال: سمعت عثمان وهو على المنبر يقول: إني كتمتكم حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ كراهية تفرقكم عني، ثم بدا لي أن أحدثكموه؛ ليختار امرؤ لنفسه ما بدا له؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ الله خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ يَوْمٍ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الْمَنَازِلِ**»[3] حسنه الألباني.

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٢/ ٤٤٤).

(٢) المفصل في أحكام الهجرة للشحود (٢/ ٢٤٤)، التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوى (٢/ ٣٩١).

(٣) سنن الترمذي، رقم الحديث: (١٦٦٧)، سنن النسائي، رقم الحديث: (٣١٦٩)، سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٢٧٦٦).

وجـاء الحديـث عنـد **ابـن ماجـه** مـن روايـة **عبـد الله بـن الزبـير** قـال: خَطَـبَ **عُثْـمَانُ بْـنُ عَفَّـانَ** النَّـاسَ فَقَـالَ: يَـا أَيُّهَـا النَّـاسُ إِنِّي سَـمِعْتُ حَدِيثًـا مِـنْ رَسُـولِ الله ﷺ لَمْ يَمْنَعْنِـي أَنْ أُحَدِّثَكُـمْ بِـهِ إِلَّا الضَّـنُّ بِكُـمْ وَبِصَحَابَتِكُـمْ، فَلْيَخْـتَرْ مُخْتَـارٌ لِنَفْسِـهِ أَوْ لِيَـدَعْ، سَـمِعْتُ رَسُـولَ الله ﷺ يَقُـولُ: «مَـنْ رَابَـطَ لَيْلَـةً فِي سَـبِيلِ الله سُـبْحَانَهُ كَانَـتْ كَأَلْـفِ لَيْلَـةٍ صِيَامِهَـا وَقِيَامِهَـا»[1] حسـنه الألبـاني.

وقوله: «خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ يَوْمٍ فِيمَا سِوَاهُ مِنْ الْمَنَازِلِ»؛ أي فيما سوى الثغر.

قـال **المناوي**: وعليـه؛ فحسـنة الجهـاد بألـف، وإن ربـاط يـوم في سـبيل الله خيرٌ مـن رباط ألـف يـومٍ فيـما سـواه مـن المنـازل[2]؛ وذلـك لعظيـم مـا يشـتغل بـه المرابـط مـن حراسـة أهـل الإسـلام في دمائهـم وأعراضهـم وأموالهـم[3].

قـال **ابـن النحـاس**: وفي حـديـث **عثـمان** رضي الله عنه هـذا دليـلٌ واضـحٌ عـلى أنَّ إقامـةَ المرابطِ يومًا واحـدًا بـأرض الرِّبـاط أفضـلُ مـن الإقامـةِ ألـف يـوم في غـيره من الأماكـن، سـواء كان مكة أو المدينـة أو بيـت المقـدس، ولهذا خـاف **عثـمان** رضي الله عنه أن يتفـرق الناس عنـه إذا أعلمهم بذلك؛ رغبةً في إقامتهـم عنـده، ولـولا أنـه يعلـم أن ذلـك يعـم مكـة والمدينـة لما خـاف تفرقهـم وخروجهم مـن المدينـة إلى أرض الربـاط[4].

ومـن قبلـه قال شـيخ الإسـلام **ابـن تيمية**: فقد بـيَّن لهم **عثـمانُ** رضي الله عنه هـذا الحديـث مع كونهم مقيمـين عنـده بالمدينـة النبويـة، بالمسـجد الـذي قال فيـه ﷺ: «صَـلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَـذَا أَفْضَلُ مِـنْ أَلْـفِ صَلَاةٍ فِيـمَا سِـوَاهُ إِلَّا الْمَسْـجِدَ الْحَـرَامَ»[5]، ودل ذلـك على أنَّ تضعيـفَ الصـلاة لا يقاوم تضعيـف اليـوم الـذي يعـم جميـع الأعـمال[6].

---

(١) سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٢٧٦٦).
(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي (٢/ ٥٤).
(٣) شرح زاد المستقنع للشنقيطي (١٣٦/ ١٣).
(٤) مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق لابن النحاس (١/ ٣٨٤-٣٨٥).
(٥) صحيح البخاري، رقم الحديث: (١١٩٠)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٣٤٤٠).
(٦) مسألة في المرابطة بالثغور أفضل أم المجاورة بمكة لابن تيمية ص (٣٤).

ولهذا كان **عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يهتف بأهل مكة فيقول: يا أهل مكة، يا أهل البلدة، ألا التمسوا الأضعاف المضاعفة في الجُنُودِ المُجَنَّدَة، والجيوش السائرة، ألا وإن لكم العَشْر، ولهم الأضعاف المضاعفة[١].

وكان من يسأله عن أفضل الأعمال يدله على الرباط والجهاد؛ **كالحارث بن هشام وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو**[٢].

واستجاب هؤلاء وغيرهم لموعظة **عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ويطيب للقلم هنا أن يتوقف ليسجل لك مشهد فراق **الحارث بن هشام** لأهل مكة، وتوديعهم له؛ فإنه لما خرج بأهله جزع أهل مكة جزعًا شديدًا، ولم يَبْقَ أحد يطعم إلا خرج يشيعه، حتى إذا كان بأعلى البطحاء وقف، ووقف الناس حوله يبكون، فلما رأى جزع الناس رق وبكى، ثم قال:

«يا أيها الناس؛ إني والله ما خرجت رغبةً بنفسي عن أنفسكم، ولا اختيار بلدٍ عن بلدكم، ولكن كان هذا الأمر -يعني الإسلام-، فخرجت فيه رجالٌ من قريش، والله ما كانوا من ذوي أسنانها، فأصبحنا والله لو أنَّ جبالَ مكة ذهبًا فأنفقناها في سبيلِ الله ما أدركنا يومًا من أيامهم، وايم الله لئن فاتونا به في الدنيا لنلتمسن أن نشاركهم به في الآخرة، أما والله لو كنا نستبدل دارًا بدار، وجارًا بجار؛ ما أردنا بكم بدلًا، ولكنها النقلة إلى الله»!

ولم يزل حابسًا نفسه ومن معه بالشام مجاهدًا[٣] حتى ختم الله له بخير؛ قيل: قضى شهيدًا، وقيل: مات في طاعون عمواس سنة ثمان عشرة[٤].

---

(١) السير الكبير للشيباني (١/ ١٢).
(٢) مسألة في المرابطة بالثغور أفضل أم المجاورة بمكة لابن تيمية ص (٤٧-٤٨).
(٣) وكانت الشام في ذلك الوقت تعتبر من الثغور، التي تحتاج إلى حُرَّاسٍ ومرابطين؛ فقد كانت متاخمة لدولة الروم البيزنطية، والتي كانت تناوش المسلمين وتهددهم باستمرار.
(٤) انظر مجمل ما ورد هنا: تهذيب الكمال للمزي (٥/ ٢٩٩-٣٠٢)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر (١/ ٣٠٢-٣٠٤)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٤٢٠-٤٢١).

والحارث هذا رُوي عن النبي ﷺ أنه ذكر فعله في الجاهلية في قِرى الضيف وإطعام الطعام، فقال: إنَّ الحارث لسَرِي[١]، وإن كان أبوه لسريًا، ولوددت أنَّ الله هَدَاهُ إلى الإسلام[٢].

وأما حديثُ فضلِ الحراسة:

فقد أخرج **المنذريُّ** عن **ابن عمر** رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ لَيْلَةً أَفْضَلَ مِنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ؛ حَارِسٌ حَرَسَ فِي أَرْضِ خَوْفٍ لَعَلَّهُ أَنْ لاَ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ**»[٣] صححه الألباني.

وهذا الحديث يُفهِمُ أنَّ حراسةَ ليلةٍ بالثغر في حال خوف أفضل من عبادةِ نحو مائة سنة؛ فإنَّ إحياءَ ليلةِ القدرِ خيرٌ من عبادة ثلاثة وثمانين عامًا، وليلة الحراسة خيرٌ من ليلة القدر في الأجر!

فماذا على المسلم لو سطَّر في صحيفة عمله وديوان حسناته ساعاتٍ من الحراسة وأيامًا من الرباط!؟[٤].

ولعلك لحظت أنَّ أجر الحراسة أعظم من أجر الرباط؛ وذلك لخصوص المهمة أولًا، ولأنَّ شدة الخوف تثمر كثرة الأجر والفضل، فلا يضيع شيءٌ عند الله تعالى ولو كان من المشاعر، وفضل الله واسع ممتدٌّ لا ينقطع.

وهذه الأجور تستفز العبد للجهاد حتى لو كان عبادةً مستحبَّةً فحسب، فكيف لو كان واجبًا وجوب كفايةٍ في حال الطلب ووجوب عين في حال الدفع!

والمرتجى من العبد أن يعيد صياغة شخصيته ليجاهد في سبيل الله بما يستطيع، ولا يتقيد بقيد البيئة التي قد تحجزه عن ذلك؛ فقد بتنا اليوم أمةً منزوعة الرأس منهوبة الثروات، وذلك منذ سقطت الخلافة الإسلامية العثمانية.

---

(١) السَّرْوُ: الشرف. انظر: تهذيب اللغة للأزهري الهروي (١٣/ ٥٣).
(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر (١/ ٣٠٣).
(٣) الترغيب والترهيب للمنذري، رقم الحديث: (١٩٢٤).
(٤) الحق بالقافلة لعبد الله عزام ص (٢٢).

وذلك أنه حين سقطت الخلافة، وبات المسلمون لأول مرة بفراغٍ سياسي، ولم يكن في قدرة الأفراد استعادة الخلافة.. هُرِعَ المسلمون لتأسيس جماعاتٍ تسد ما أمكن من الفراغ، وتتصدى لحملات التغريب التي استهدفت الأمة يومئذٍ، ومن ثم تأسست جماعة أنصار السنة المحمدية بمصر أولًا على يد الشيخ **محمد حامد الفقي** سنة ١٩٢٦م بعد سقوط الخلافة بسنتين فقط، وجماعة الدعوة والتبليغ في نفس السنة بالهند على يد الشيخ **محمد إلياس الكاندهلوي**، وجماعة الإخوان المسلمين سنة ١٩٢٨م بمصر على يد الأستاذ **حسن البنا**، رحمة الله على الجميع.

وهذه الجماعات وما تلاها بعد ذلك لم تقف موقفًا واحدًا من الجهاد، ولكن كانت بين مقلٍّ ومستكثر ومهمل، فتشكَّلت عقول الأتباع بحسبها، ومن ثم صرنا نرى تباينًا في علاقة أبناء المسلمين بفريضة الجهاد في سبيل الله.

وبعض الناس يؤمن بالجهاد، ولا يبغي عنه حولًا، لكنه يفر منه لشدة المؤنة وثقل التبعة وكثرة التكاليف وضراوة المعركة.

وبسطُ ما يتعلق بالجماعات الإسلامية إزاء الجهاد والسياسة والحكم لا تكفيه هذه الإشارة العابرة في كتابٍ يستهدف أوراد التعبد من غير توغلٍ في التفاصيل، وعسى أن تتيسر لذلك مناسبةٌ للكلامِ في ذلك بشيءٍ من التوسع، على أنِّي طرقت جملةً صالحةً من هذه المساحات الفكرية والسياسية في كتاب: «**سبائك الشيطان**» يسَّر الله صدوره عن قريب.

والمقدار الذي أستطيع الآن أن أصدح به في سمعِ كلِّ مسلمٍ أيًّا كان موضعه أن يكون مجاهدًا في سبيل الله؛ إما بيده وإما بلسانه وإما بماله وإما بقلبه.

ومن كان في موضعٍ يُتاح فيه الجهاد بالسيف ولم يأخذ بحظِّه من هذه العبادة التي يدافع من خلالها عن الإسلام.. فأخشى أن يكون واقعًا في درك الحرمان والخذلان.

وإذا قامت الحاجة له ولم يجاهد.. فلا آمن عليه من الإثم، وعارٌ على من أسكنه الله أرض الثغور ثم لم يكن له حظٌّ من الجهاد في سبيل الله.

إنَّ الجهادَ في سبيل الله من أبرز الأعمال التي تملأ سيرة نبينا ﷺ، حتى إنَّك لو فتحت أي كتابٍ في السيرة، وطالعت أطوار المرحلة المدنية ولو من خلال فهرس الكتاب فقط..

لشعرت أنها ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بالمعارك والحروب، بل لكأن السيرة هي المعارك؛ وذلك أنَّ المعارك هي التي تحدد مصائر الأمم، وترسم خرائط البلدان.

ولولا سعي بلدنا للقوة التي أمرنا الله بإعدادها.. لكنَّا الآن كالنعاج التي تُقاد، والدواب التي تُمتطى؛ لأنَّ العَالَمَ الظَّالِمَ لن يتأبى أن يستكثر من الأتباع والعبيد.

ومما قلته في كتاب **«الرباط وأحكامه»** مما ينصر هذا المعنى:

إنَّ النبيَّ ﷺ لو توزعت غزواته وسراياه على أيام حياته في المدينة النبوية لكان له في كل خمسة وثلاثين يومًا تقريبًا غزوةٌ أو سريَّة، وقد حسبت هذا بنفسي، ورأيناه لَمَّا ألَمَّ به المرض لم يشغله ذلك عن تذكير الصحابة بإنفاذ بعث **أسامة** رضي الله عنه.

وقد تشبع **أبو بكر** رضي الله عنه فهمًا بهذه الموعظة العملية؛ فحين أراد إنفاذ بعث **أسامة** رضي الله عنه حاول الصحابة رضي الله عنهم ثنيه عن ذلك؛ لكثرة الأخطار التي تتهدد المدينة من كل جانب، بعد أن ارتد أكثر العرب، فقال في كلامٍ حاسمٍ قاطع:

والله الذي لا إله غيره لو جَرَّت الكلابُ بأرجل أزواج رسول الله ﷺ ما رددت جيشًا وجهه رسول الله ﷺ، ولا حللت لواءً عقده رسول الله!

والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننتُ أنَّ السباع تخطفني لأنفذتُ بَعْثَ أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ، ولو لم يبقَ في القرى غيري لأنفذته[1]!

ولما شعر بالموت استدعى **عمر**، وقال:

اسمع يا عمر؛ إني لأرجو أن أموت من يومي هذا، فإن أنا مِتُّ فلا تُمْسِيَنَّ حتى تندب الناس للجهاد مع المثنى، وإن تأخرتُ إلى الليل فلا تصبحن حتى تندب الناس مع المثنى، ولا يشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم، ووصية ربكم، وقد رأيتني متوفَّى رسول الله ﷺ وما صنعتُ، ولم يصب الخلق بمثله، وبالله لو أني تأخرت عن أمر رسوله لخذلنا الله ولعاقبنا، فاضطرمت المدينة نارًا[2]!

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٢٤٥)، البداية والنهاية لابن كثير (٦/ ٣٣٥-٣٣٦)، حياة الصحابة للكاندهلوى (١/ ٤٥٧)، (٣/ ٢١٩).

(٢) تاريخ الطبري (٢/ ٣٤٥)، الكامل في التاريخ لابن الأثير (١/ ٣٩٤).

ومن قبل ذلك رأينا **كعب بن مالك** ﷺ لما تَخَلَّفَ عن معركة تبوك يُعاقبُ بعقوبةٍ نفسيَّةٍ مؤلمةٍ موجعة، تضمَّنت مقاطعةَ المسلمين له، بل ولحق بذلك اعتزال زوجته له بأمرٍ من النبي ﷺ، واستمر الحالُ على ذلك خمسين يومًا، بنفس عدد أيام الغزوة، ليعاقب نفسيًّا بعدد الأيام التي تعب فيها المجاهدون المشاركون في الغزوة جسديًّا، وعوقب معه كذلك صاحباه **هلال بن أمية ومرارة بن الربيع** رضي الله عنهما.

وكعب بن مالك رضي الله عنه هذا كان ممن شهد بدرًا، بل وشهد المشاهد كلها قبل تبوك، وكان أحد أعمدة التأسيس لهذا الدين، وشارك في بيعة العقبة، ونزلت به العقوبة المذكورة، وضاقت عليه الأرض وعلى صاحبيه بما رحبت، مع أنَّ الجيش لم يهتز بتخلفهم، بل لم تقم المعركة أصلًا!

فإذا كانت هذه عقوبة المتخلف عن الجهاد مرة واحدة فكيف بمن لم يطلق إلى اليوم طلقةً في سبيل الله! مع أنه لا يتمارى اثنان في أنَّ هذا الزمن من أكثر الأزمنة التي يُحارب فيها الإسلامُ وأهله والتي تحتاج لكلِّ جهدٍ وجهادٍ في سبيل الله.

ألا يخاف المسلم المتكاسل عن الجهاد بعد هذا الذي رأى من عناية النبيِّ ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم بالجهاد أن يعمه قولُ النبيِّ ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ»[1]؟!

إنَّ الإمامَ **أحمد** لما سُئِل عن قومٍ بطرسوس إحدى ثغور الإسلام قديمًا يقعدون عن الجهاد ولا يغزون بحجةٍ يتعللون بها قال: هؤلاء قوم سوء، هؤلاء جهال، وإن لم يكونوا يعلمون، ولا لهم علمٌ بالعلم فيقال لهم: أرأيت لو أنَّ طرسوس وأهل الثغور جلسوا عما جلسوا عنه؛ أليس كان قد ذهب الإسلام![2].

هذا وبالله التوفيق، ومنه استمداد العون والتسديد.

---

(١) صحيح مسلم، رقم الحديث: (٥٠٤٠).
(٢) المغني لابن قدامة (١٠/ ٣٦٥).

المطلب الثالث

الأعمـــال القوليـــة

يتولى هذا المطلب الأعمالَ التعبدية التي تؤدَّى باللسان خاصة أو يغلب فيها ذلك، ويمكن ردُّها إلى خمسة أعمالٍ كبرى: تلاوة القرآن وحفظه، والأذكار، والدعاء، والخُلُق الحسن، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأجعل لكل عملٍ فرعًا يتناوله.

ولا تخلو هذه الأعمال من اشتراكٍ بين الظاهر والباطن، بل قد يتركَّزُ فيها عملُ الباطن كالحفظ؛ فإنَّ دورَ العقلِ فيه من جهة الذاكرة قويٌّ غاية القوة، والدعاء؛ فإنَّ اختيارَ كلماتِهِ راجعٌ إلى فقهٍ يتولاه القلب والعقل، وحسن الخلق؛ فإنَّ منشأه الباطن من قلبٍ وعقل لكن قد يكون قولًا لطيفًا باللسان، أو سلوكًا حسنًا بالجوارح والأركان.

وقد تقدَّم أنَّ الأعمالَ بينها قدرٌ كبيرٌ من التداخل، وأنَّ هذا التقسيم إنما هو لمصلحة العرض والتدوين، والخطبُ في ذلك يسير.

ومنافذ الإدراك والهدى: السمعُ والبصر، وما يسمعه الإنسان أو يراه يُرسَل للعقل ليفكر ويتدبر، ثم ينتهي للقلب ليتفاعل ويتأثر، وما يستقرُّ في القلب يفيض على اللسان قولًا وعلى الجوارح عملًا.

والقرآن الكريم تتوارد عليه جملةُ الأعمال؛ فاللسان يتلو ويحفظ، والعقل يفهم ويتدبر، والقلب يتفاعل ويتأثر، وما يفيض من ذلك ينطق به اللسان وتعمل به الجوارح، وللقلب أعمالٌ كما للبدن، بل هي أخطر وأفضل كما مرَّ، وهي التي تُعرف بأعمال القلوب وسيأتي الحديث عنها في المطلب الخامس إن شاء الله تعالى.

إذا عُلِم هذا فلنأخذ في بيان مادَّة هذا المطلب في خمسة أفرع كما يلي:

الفرع الأول: تلاوة القرآن وحفظه

تقدَّم أنَّ القرآنَ الكريم أحدُ أعمدة بناء الإيمان، وأنه يشبه عمود الخيمة الذي تتوزع

الأعمدة حوله، وأنَّه أعظم كتب التزكية والتربية على الإطلاق، وأنَّه المادة المركزية التي تولَّت تربية الصحابة رضي الله عنهم وصناعتهم على عين الله خطوةً خطوة.

وما صلح به الجيل الأول وصار به إمامًا هو الذي تصلح به الأجيالُ المتراخيةُ إلى يوم القيامة، ولهذا لن أنفق حبرًا هنا في التأكيد على أهمية الالتزام بالوِرد القرآني؛ لأنَّ فضله وأهميته كامن في النفوس.

والله تعالى يوصي نبيه ﷺ الذي نزل عليه القرآن أن يتلو القرآن؛ قال سبحانه: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف:٢٧].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النمل:٩١،٩٢].

وأعدل الأوراد أن تقرأ ختمةً في كلِّ شهر، فإن ضاق وقتك عن ذلك أو كنت على حالٍ لا يتيسر لك فيه ذلك فاقرأ خمس عشرة صفحة في اليوم، ليتم لك في كلِّ أربعين يومًا ختمة.

أخرج **أبو داود والترمذي** عن **عبد الله بن عمرو** رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**اقْرَأْ الْقُرْآنَ فِي أَرْبَعِينَ**».

وقَالَ **إِسْحَقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ**: «وَلَا نُحِبُّ لِلرَّجُلِ أَنْ يَأْتِيَ عَلَيْهِ أَكْثَرُ مِنْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَلَمْ يَقْرَأْ الْقُرْآنَ لِهَذَا الْحَدِيثِ»[1].

وبناءً على ما تسطَّر؛ فإنَّ تلاوةَ الختمةِ الشهريَّةِ أو في كلِّ أربعين يومًا عملٌ لا ينبغي أن تتكاسل فيه أو تجعله في أورادك مؤخَّرًا.

ومن شقَّ عليه أن يقرأ وِرده كلَّ يوم فيقرأ ما تيسَّر له، وما بقي من حصَّة الأسبوع فإنه يستدركه في الاعتكاف الأسبوعي صبيحة الجمعة بتبكيره للمسجد، فيمكن أن يذهب الساعة الثامنة أو التاسعة ويقرأ نصيب الأسبوع كاملًا إلى جوار تلاوة سورة الكهف.

---

(١) سنن أبي داود، رقم الحديث: (١٣٩٧)، سنن الترمذي، رقم الحديث: (٢٩٤٦) واللفظ للترمذي.

ولا يعدل هذا المسلكُ الوردَ الذي يُبنى على اليوم والليلة؛ لأنَّه أقرب منالًا وأوثق دوامًا وأحسن تدبرًا، ومع ذلك فإنَّه يبقى حلًّا لمن تعسَّر عليه الورد اليومي على وجهه.

ومن لم يستطع أن يُسدد فليُقارب، أعني بذلك أنَّ من لم ينشط لتلاوة جزءٍ في كلِّ يوم أو خمس عشرة صفحة، وكان منتهى نشاطه لا يتجاوز خمس صفحاتٍ أو عشرًا مثلًا.. فإنَّه لا يترك ذلك، بل يتلو ما تيسَّر له، ويثبت عليه، ويبقى في طلب الزيادة، فإنَّ من قَارَبَ يوشك أن يُسدِّد بإذن الله تعالى وعونه وفضله.

وإذا جاء رمضان وفُتِحت أبواب الحسنات بفتح أبواب الجنة، وغُلِّقت أبواب السيئات بغلق أبواب النار وغابت الوساوس بتصفيد الشياطين.. أمكن أن يستدرك ما فات من ختمات العام التسع باعتبار أدنى الأوراد: خمس عشرة صفحة في اليوم، أو ما تيسَّر له من الاستدراك.

ورمضان أعظم ما يميزه أنه شهر القرآن، وفيه نزل كما هو صريح قوله تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

بل ونزلت فيه بقية الكتب؛ روى **البيهقيُّ والطبراني** عَنْ **وَاثِلَةَ بْنِ الأَسْقَعِ** رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**نَزَلَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ أَوَّلَ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ لِسِتٍّ مَضَيْنَ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَ الإِنْجِيلُ لِثَلَاثَ عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَ الزَّبُورُ لِثَمَانَ عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ، وَالْقُرْآنُ لأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ**»[1] حسَّنه الألباني.

أما أمر تدبر القرآن والمفاضلة بين كثرة التلاوة وقلتها مع حسن التدبر فأجعل الحديث عنه في موضعه من الأعمال العقلية في المطلب القادم إن شاء الله تعالى.

حفظ القرآن الكريم والطريقة الوحيدة الناجحة فيه:

يسَّر الله تعالى أن أُسهِبَ القول في الحفظ وفي طريقته وفقهه والتنظير له في كتاب

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي، رقم الحديث: (١٩١٢١)، المعجم الأوسط للطبراني، رقم الحديث: (٣٧٤٠).

«معارج العلوم»، ولي مقالةٌ منشورةٌ على الشبكة بعنوان: **«الطريقة المقترحة لحفظ القرآن الكريم وضبطه»** أتيتُ فيها على كامل المطلوب، بما يحل مشكلة النسيان والاضطراب في الحفظ التي يشكو منها أكثر السالكين في هذا السبيل.

والمتعبد لا بُدَّ وأن ينتظم في سلك الحفظة ولو بأن يحفظ عدة أجزاء من القرآن حفظًا راسخًا ليدخل فيمن امتدحهم الله تعالى بقوله: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

وأُوجِزُ القولَ في طريقة الحفظ التي تكاد تكون الطريقة الوحيدة لحفظ القرآن حفظًا راسخًا، وذلك من جهة الخطوط العامة، أما التفاصيل فالأمر فيها قريب.

ومبنى الطريقة التي أدونها هنا أنَّ الحفظَ يكون للعمر لا ليومٍ ولا لأسبوعٍ ولا لشهرٍ ولا لسنة، وهي تمر بثلاث مراحل كما يلي:

المرحلة الأولى: قوة الحفظ حين الحفظ لأول مرة:

وذلك بأن تُقسِّم الصفحةَ خمسةَ أقسامٍ أو نحوها، كل قسم ثلاثةُ أسطر أو نحوها، ثم تقرأ الأسطر الثلاثة إحدى عشرة مرة[1] نظرًا بالعين، حتى لو حفظتها في مراتٍ أقل؛ إذ ليس القصد هنا الحفظ؛ بل رسم صورة في الذهن للقطعة المراد حفظها.

ثم تحفظها.

ثم تعيدها عن ظهر قلبٍ إحدى عشرة مرة كذلك.

وإذا أخطأت في حرفٍ أو كلمةٍ فلا تُعِدِ الآيةَ كُلَّهَا؛ ولكن موضع الخطأ فقط؛ فتأتي بكلمةٍ قبله وكلمةٍ بعده وتكرره إحدى عشرة مرة؛ لأنَّ الهدفَ ترويضُ اللسان على الصحة في موضع الضعف.

---

(١) لا توجد ميزةٌ خاصةٌ للعدد ١١، فلو كررت عشرًا مثلاً لم تختلف النتيجة، ولكني آثرتُ العدد ١١ لأنَّ متابعةَ العدِّ أثناء التكرار والحفظ أمرٌ يُشوش الذهن، فلو أمسكتَ سبحةً فإنَّ هناك حاجزًا بعد كل ١١ حبة، فتصبح تكرر وحيث وصلت للحاجز تتوقف، وبهذا تتابع العدَّ دون أن تُشغلَ به ذهنيًّا.

وبعد إتمام المقطع الأول تنتقل للمقطع الذي يليه، وتكرره بنفس الطريقة، فإذا أتممته قرأت المقطعين ثلاث مراتٍ أو نحوها ليحصل الربط بينهما، وهكذا حتى تتم الصفحة.

المرحلة الثانية: التكرار:

وذلك بأن تُكَرِّرَ الصفحةَ التي باتت محفوظةً حفظًا قويًّا مائة مرة على عِدَّةِ مجالس، ولا ينبغي أن تكون في مجلسٍ واحدٍ أو في يومٍ واحد.

وحين سافرت إلى شنقيط خواتيم سنة ٢٠١٧م كنت حريصًا على معرفة طريقتهم في الحفظ بعد الإمامة التي بلغوها فيه، فرأيت أنَّ العدد الذي يكثر أن يُعتمد في التكرار عندهم هو مائة، وقد يقل قليلًا أو يزيد قليلًا بحسب نوع المحفوظ وحاله من الصعوبة والسهولة، وقد زدت في الكلام عنهم في ذلك في كتاب المعارج.

والعقبةُ الكبرى في ديارنا الإسلامية الشرقية عقبةٌ نفسية؛ فالثقافة التي نشأ فيها الواحد منَّا لا تعظه بالتكرار ولو مرةً واحدة بمجرد أن يحفظ الصفحة أو المتن، فكيف ينتقل من الصفر إلى المائة بتنظيرٍ خاطفٍ في كتابٍ!

إنه لا يحتاج في حفظ الصفحة إلا لربع ساعةٍ أو أقل، فكيف ينتقل لخطةٍ تحتاج فيها الصفحة ساعةً ونصفًا أو ساعتين!

لكن الذي مرت به السنوات، ووجد أنه كلما حفظ شيئًا نسيه، وأنه إذا تقدَّمَ للصلاة لا يكاد يجد شيئًا راسخًا في صدره.. حينئذٍ يعلم أنَّ أبطأَ الطرق أسرعُها، وأنَّه لو لم يحفظ في الأسبوع كله إلا صفحةً واحدةً على قانون الحفظ الراسخ فإنه أحسن حالًا ومآلًا من حفظ جزءٍ كاملٍ يذهب سريعًا، ومن ثم يستقر على الحفظ الراسخ القليل؛ لأنه بعين ذي البصيرة حفظٌ كثير؛ إذ الذي يُحفظ لا يذهب؛ لأنه حفظٌ للعمر لا ليومٍ ولا لشهر.

المرحلة الثالثة: المراجعة الأسبوعية:

وذلك بتقسيم المحفوظ على أيام الأسبوع دون الجمعة؛ لأنَّ الراحة تعطي حيويةً وإقبالًا حين العَوْد، ثم إنَّ وجودَ يومٍ راحة ييسر عملية التعويض والاستدراك فيما لو

حصل نقص، هذا بالإضافة إلى أنَّ يوم الجمعة له أعمال تخصُّه من مثل تلاوة سورة الكهف وكثرة الصلاة على النبيِّ ﷺ وغير ذلك.

والمراجعة الأسبوعية تقي من ضعف المحفوظ مع مرور الزمن، وتُبقي الإنسان كثير التلاوة، دائم العيش مع كتاب الله تعالى، وهي صفة المتعبد.

إنَّ المراجعة رزقٌ من الله للمتعبدين؛ لأنها من خير الوسائل الحسية التي تربط الحافظ ليعيش مع القرآن بشكلٍ يوميٍّ دائم.

وقد يختار الحافظ يومًا أو يومين من الأسبوع يسرد فيهما محفوظه، ولو جعل المراجعة من خلال التسميع لشخصٍ يستحيي أن يُخطئ أمامه فهو خير.

هذا قانون الحفظ الذي لا أرى غيره بعد العناية بهذا الباب من سنين، وقد رأيت ما لا أحصي من الطرائق التي يجتهد فيها الناس لعلاج المشكلة فلم يهتدوا إلى صوابٍ قاطع، وما ذكرته لك هو فحوى طريقة السلف المتقدمين في الحفظ، وقد فصَّلت ذلك وبسطت القول فيه في كتاب «**معارج العلوم**» فارجع إليه.

وقد كان السَّلَفُ يعتمدون ذلك وهم على ما هم عليه من الصلاح وقلة التشتت، فزماننا يحملنا على ذلك أكثر من زمانهم.

وليس العيب في عقلك أو في ذاكرتك أو أنك مستنقعٌ في الذنوب والآثام، فهذا قد يفرز سوء الحفظ واختلاله من غير شك، لكنَّ القضيَّةَ منهجيةٌ بالمقام الأول.

ولست أشك أنَّ الحفظ بهذه الطريقة هو أسرع طرق الحفظ، وأنَّ من أهمله على هذا النحو سيعود إليه إذا كان حريصًا.

أما أن هذه الطريقة تحتاج وقتًا فهذا حق، ولكن: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾ [آل عمران: ٩٢]، بل إنَّ إنفاقَ الجهدِ والوقتِ في حفظ القليل من القرآن مع التمكين لا يقل شأنًا عن إنفاق المال إن لم يتفوق عليه.

وأعيد التنبيه على أنَّ هذه الطريقةَ بالنسبة للمتعبد رزقٌ وأي رزق؛ لأنَّها تحمله على كثرة التلاوة والتكرار وطول العيش مع كتاب الله، فيكون رجلَ قرآنٍ بحق.

ولولا النسيانُ لَهُجِرَ العلمُ والقرآن؛ إذ لو كان الذي يحفظ لا ينسى لما قرأ ولا تلا ولا كرَّرَ ولا راجعَ ولا قام من الليل به، فكان النسيان جسرًا ليكون الحافظ عابدًا كثير التلاوة آناء الليل وأطراف النهار.

والله جل جلاله عظيمٌ يستحق أن تتعنى في سبيله كما قال سبحانه: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ [مريم: ٦٥].

والحفظُ الرَّاسِخُ يشبه أن يكون كبيتٍ من قصبٍ لكنَّ بابه من حديد، فحين تجرب الحفظ وترى ثمرته يشق عليك أن تتركه، ولا تبالي بما تنفق من وقتٍ في ذلك في سبيل الله تعالى.

وأعرف طبيبًا كان إلى جوار عمله في المستشفى والعيادة يحفظ القرآن، وهو من أكثر الأطباء شهرة وقصدًا من جهة الناس، وربما شُدَّت إليه الرحال، وقد حدثني قبل نحو عشر سنين أنه يعزم على حفظ القرآن، وأنه سيحفظ ثلاثة أجزاء في كلِّ سنة ويبقى سائر العام يكررها، لينتهي في عشر سنين.

وقد يسَّر الله له قبل نحو عامٍ أن ينتهي في بضع سنين لتمر الأعوام سريعًا.

والعزيمةُ تُثمِرُ راحةً في النفس وإقبالًا وحيوية لا يعرفها الكسالى، بل هي أمتع من الدَّعَة، واسأل أهل الإنجاز في الأعمال لتعلم أنَّ كثرةَ الإنجازِ في حياتك بمثابة الجرعة التي تداوي بها نفسيتك من العطب والتآكل والاكتئاب واليأس.

ويمكن أن تتخذ من رمضان منطلقًا تحفظ فيه قدرًا جيدًا ثم تبقى سائر السنة تراجعه، فتكون كثير التلاوة في رمضان بكثرة الحفظ والمراجعة.

ولا يُشترط أن تحفظ القرآن كله؛ بل لست أدري من الذي رَوَّجَ في الناس وفي حلقات تحفيظ القرآن الكريم فكرة تَأَكُّدِ حفظِ القرآن كله؛ إذ صارت تَصُدُّ الطلبةَ عن ضبط القرآن وترسيخه، وتشغل المحفظين عن العناية بتربية الجيل وتوريثه الأدب والفهم وتحصينه من ركام الشبهات وسعار الشهوات وما إلى ذلك.

ولهذا أرى الرشادَ في حفظ الأجزاء الأخيرة الخمسة مثلًا، إلى جوار العناية بالأدب والتربية وتقديم جرعةٍ علميةٍ مناسبة يتحقق بها قدرٌ ما من فهمِ مهماتِ المطلوبات

الشرعية، وإدراكِ الخطوط العامة للأحداث في الواقع، بالإضافة إلى ضبطِ التلاوة من جهة الأداء عبر دورات أحكام التلاوة والتجويد مع تغليب جانب التطبيق في الدرس، وضبطِ المحفوظ ليكون على جهة الرسوخ، بحيث يكون التكرارُ هو الحالَ الشَّائِعَ في الحلقات.

ومن يُنجِزُ ذلك ويتمكن فيه؛ فإنه يتجاوز الأجزاء الخمسة ويواصل الحفظ.

وعلى هذا؛ فيمكنك أن تكتفي بحفظ الأجزاء الخمسة وما تيسر من القرآن كسورة الكهف والبقرة وآل عمران، وتجعل ذلك على جهة الضبط والرسوخ.

وإني لأشتهي أن تَعُمَّ ثقافةُ حفظِ سُوَرِ المُفَصَّلِ بين الناس كبارهم وصغارهم رجالهم ونسائهم، وذلك من سورة الحجرات أو ق إلى الناس، وكان السلف يتواصون بها، فهي وفيرةُ العظات، كثيرةُ الآيات، غزيرةُ المعاني، حتى كان شيخنا الدكتور يونس الأسطل وفقه الله يُسَمِّيهَا مناجم القرآن.

وهذا الذي يحفظ قدرًا كبيرًا من الآيات إذا كان حفظه على جهة الضبط والرسوخ ففي انتظاره مشهدُ احتفاءٍ وتكريمٍ يوم القيامة سينسى معه كل تعبٍ في الحفظ في الدنيا.

روى أبو **داود والترمذي** عَنْ **عَبْدِ الله بْنِ عَمْرو** رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا**»(١).

الفرع الثاني: الأذكار

تقدَّم أنَّ الذِّكْرَ أحدُ أعمدة بناء الإيمان، كما وتقدَّم التحريض عليه ببيان فضله ومركزيته والدعوة إلى تدبره والتفكر في معانيه قياسًا على قراءة القرآن.

وهنا أضيف أنَّ المتعبد ينبغي أن تكون له عنايةٌ وافرةٌ بحفظ الأذكار، خاصة ما تكرَّر منها؛ ليسهل له أداؤها أيًّا كان حاله ومكانه، وهذا أعون على تدبرها والتفكر في رسائلها وعظاتها.

(١) سنن أبي داود، رقم الحديث: (١٤٦٦)، سنن الترمذي، رقم الحديث: (٢٩١٤) واللفظ لأبي داود.

ولـو تعسَّر عليه ذلك فيمكن أن يُثَبِّتَ تطبيقًا من تطبيقات الأذكار على هاتفه فتكون سهلة الوصول.

أما مادة الأذكار فهي متشعبةٌ جدًّا، ويمكن الرجوع للكتب التي جمعتها على شاكلة كتاب «**حصن المسلم**» والإفادة منها، وكذا الكتب التي تناولتها بالبيان والفقه وما إلى ذلك ككتاب «**الأذكار**» للإمام **النووي** رحمه الله، وكتاب «**فقه الأدعية والأذكار**» للشيخ **عبد الرزاق البدر** وفقه الله.

ويمكن رد الأذكار إلى خمس مجموعات: أذكار الصباح والمساء، وأذكار النوم، والتسابيح، وأذكار الصلاة، والأذكار التي ترتبط بأفعالٍ وأسباب؛ كالذكر عند ركوب الدابة ودعاء السفر والاستخارة وقبل الوضوء وبعده، وقبل الدخول لبيت الخلاء وبعده، وقبل الدخول للمسجد وبعده، وما يقال عند الهم والحزن أو عند نزول وجعٍ به وما إلى ذلك.

أما أذكار الصباح والمساء وكذا أذكار النوم فأحيل فيها على المنشورات والتطبيقات الهاتفية التي تتناولها، فهي كثيرةٌ ومشهورةٌ ولا حاجةَ لزيادة حجم الكتاب بسردها.

وأما الأذكار المرتبطة بأفعالٍ وأسبابٍ فهي كثيرةٌ جدًّا وقد تناولها كتبٌ مفردة من مثل الأذكار للنووي وحصن المسلم **للقحطاني** فأحيل عليها، وأجعل التذكير هنا بعددٍ من التسابيح ثم بسرد أذكار الصلاة؛ إعانةً على جمعها في موضعٍ واحد.

أولًا: **التسابيح**:

منها هذه السبعة:

١ - «سبحان الله وبحمده»:

روى الشيخان عن **أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ قَالَ: «سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ» فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ.. حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ**»[1].

---

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٦٤٠٥)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٧٠١٨).

قال **ابن عبد البر**: هذا من أحسن ما يُروى عن النبي ﷺ في فضائل الذكر، ورحم الله الشعبيَّ حيثُ قال: كنا نستعينُ على حفظِ الحديث بالعمل به[١].

وروى **الطبرانيُّ** عَنْ **أَبِي أُمَامَةَ** رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ هَالَهُ اللَّيْلُ أَنْ يُكَابِدَهُ، وبَخِلَ بِالْمَالِ أَنْ يُنْفِقَهُ، وجَبُنَ عَنِ الْعَدُوِّ أَنْ يُقَاتِلَهُ.. فَلْيُكْثِرْ مِنْ «سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ»؛ فَإِنَّهَا أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ جَبَلِ ذَهَبٍ يُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»**[٢] صححه الألباني.

وروى **مسلمٌ** عَنْ **أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِي: «سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ» مِائَةَ مَرَّةٍ لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلاَّ أَحَدٌ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ أَوْ زَادَ عَلَيْهِ»**[٣].

وروى أيضًا عَنْ **أَبِي ذَرٍّ** رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ أَيُّ الْكَلامِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: **«مَا اصْطَفَى اللهُ لِمَلائِكَتِهِ أَوْ لِعِبَادِهِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ»**[٤].

٢- «سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»:

روى الشيخان عَنْ **أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ»**[٥].

٣- «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»:

روى **مسلمٌ** في صحيحه عَنْ **سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ** رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«أَحَبُّ الْكَلامِ إِلَى اللهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ»**[٦].

وعنده أيضًا عَنْ **أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«لأَنْ أَقُولَ: سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ.. أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ»**[٧].

---

(١) التمهيد (٢٢/ ١٨).
(٢) مسند الشاميين للطبراني، رقم الحديث: (١٧٤).
(٣) صحيح مسلم، رقم الحديث: (٧٠١٩).
(٤) صحيح مسلم، رقم الحديث: (٧١٠١).
(٥) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٦٦٨٢)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٧٠٢١).
(٦) صحيح مسلم، رقم الحديث: (٥٧٢٤).
(٧) صحيح مسلم، رقم الحديث: (٧٠٢٢).

٤- الصلاة على النبيِّ ﷺ:

روى **النسائي** في سننه من حديثِ **أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ** رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً وَاحِدَةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ عَشْرَ صَلَوَاتٍ، وَحُطَّتْ عَنْهُ عَشْرُ خَطِيئَاتٍ، وَرُفِعَتْ لَهُ عَشْرُ دَرَجَاتٍ**»[١].

فلو صلَّيْتَ على نبيك ﷺ في دقيقتين أو ثلاث خمسين مرة صَلَّى الله عليْكَ خمسمائة مَرَّة وَحطَّ عَنْكَ خمسمائة خطيئة وَرَفعَكَ خمسمائة درجة!

٥- «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كلِّ شيءٍ قدير»:

أخرج **البخاري** في صحيحه عَنْ **أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**» **فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ.. كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ**»[٢].

وقوله: «**عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ**» معناه: أنَّ ثوابَهَا يَعْدِلُ ثوابَ عِتق عشر رقاب[٣].

وهذا خيرٌ كثير، وقيمته تظهر باستحضار حديث الصحيحين عَنْ **أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُسْلِمَةً أَعْتَقَ اللهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنَ النَّارِ، حَتَّى فَرْجَهُ بِفَرْجِهِ**»[٤].

وقوله: «**وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ**» فيه تنبيهٌ على أنَّ قائلَ هذا الذِّكْر قد بلغ الغايةَ في بابه؛ إذ المائة غايةٌ قلَّ أن يُزادَ عليها، ويحتمل أنه يريد أنه لا يأتي أحدٌ من سائر أبواب البر بأفضل مما جاء به إلا رجلٌ عمل من هذا الباب أكثرَ من عمله[٥].

---

(١) سنن النسائي، رقم الحديث: (١٢٩٦).
(٢) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٣٢٩٣)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٧٠١٨).
(٣) المنتقى شرح الموطأ (١/ ٤٩٠).
(٤) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٦٧١٥)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٣٨٦٩).
(٥) المنتقى شرح الموطأ (١/ ٤٩٠)، شرح الزرقاني على الموطأ (٢/ ٣٦).

وعلى هذا فيمثِّلُ هذا الذِّكرُ فَرَجًا لمن كثرت أعباؤه، وضاقت أوقاته عن أوراد العبادات، يستدرك به كثيرًا مما يفوته منها.

والإتيان به سهل، يمكن أن تقوله وأنت تنتظر صلاة الفجر أو في طريقك إليها أو بعد طلوع الفجر أو غير ذلك بما يتيسر لك[١].

٦- «أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه»:

روى **أبو داود والترمذي** عن **زيد** مَوْلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: **«مَنْ قَالَ: «أَسْتَغْفِرُ الله الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيَّ الْقَيُّومَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ».. غُفِرَ لَهُ وَإِنْ كَانَ فَرَّ مِنَ الزَّحْفِ»**[٢] صححه الألباني.

ولا يخفى أنَّ الفرارَ من الزَّحفِ من كبائر الكبائر؛ فقد جاء في الصحيحين أنه من السبع الموبقات[٣].

قال **العيني**: فإذا غُفِرَ لصاحبِ الكبيرة بقول هذا الدُّعاء.. فلصاحب الصغيرة أولى وأجدر[٤].

وهذا الذكر يُمثِّل فرصةً لمن كثرت ذنوبه، أو فرَّ من الزحف حقًّا، فتحصل له المغفرة برحمة الله وفضله.

٧- «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»:

روى أصحاب السنن إلا **النسائي** عن **ابن عُمَرَ** رضي الله عنهما قَالَ: إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّ لِرَسُولِ الله ﷺ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةَ مَرَّةٍ: **«رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»**[٥] صححه الألباني.

---

(١) شرح رياض الصالحين لابن عثيمين (١/ ١٦١٦).
(٢) سنن أبي داود، رقم الحديث: (١٥١٩)، سنن الترمذي، رقم الحديث: (٣٥٧٧).
(٣) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٢٧٦٦)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٢٧٢).
(٤) شرح أبي داود للعيني (٥/ ٤٢٩).
(٥) سنن أبي داود، رقم الحديث: (١٥١٨)، سنن الترمذي، رقم الحديث: (٣٤٣٤)، سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٣٨١٤) واللفظ لأبي داود.

ثانيًا: أذكار الصلاة:

أدعية الاستفتاح:

١- «سُبْحَانَكَ اللهمَّ وَبِحَمْدِكَ وَتَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَى جَدُّكَ وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ»[١].

٢- «اللهمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، اللهمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، اللهمَّ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالثَّلْجِ وَالْمَاءِ وَالْبَرَدِ»[٢].

٣- «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، اللهمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ[٣]، أَنْتَ رَبِّي وأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»[٤].

٤- «اللهمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»[٥]. كان النبي ﷺ يستفتح به إذا قام من الليل.

---

(١) سنن أبي داود، رقم الحديث: (٧٧٦)، سنن الترمذي، رقم الحديث: (٢٤٣)، سنن النسائي، رقم الحديث: (٨٩٨)، سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٨٠٤)، وجاء عند مسلم برقم: (٩١٨) أن عمر رضي الله عنه كان يجهر بها.

(٢) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٧٤٤)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٣٨٢) واللفظ لمسلم.

(٣) في رواية أبي داود: «لَا إِلَهَ لِي إِلَّا أَنْتَ».

(٤) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٨٤٨).

(٥) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٨٤٧).

٥- «اللهمَّ لكَ الحمْدُ أنتَ نورُ السَّمواتِ والأرْضِ ومَنْ فِيهِنَّ، ولكَ الحمْدُ أنْتَ قيِّمُ السَّمواتِ والأرْضِ ومَنْ فِيهِنَّ، ولكَ الحمْدُ أنْتَ الحقُّ ووعْدُكَ حقٌّ وقوْلُكَ حقٌّ ولقاؤُكَ حقٌّ والجنَّةُ حقٌّ والنَّارُ حقٌّ والسَّاعةُ حقٌّ والنَّبِيُّونَ حقٌّ ومُحمَّدٌ حقٌّ، اللهمَّ لكَ أسْلَمْتُ وعليْكَ توكَّلْتُ وبِكَ آمَنْتُ وإليْكَ أنَبْتُ وبكَ خاصَمْتُ وإليْكَ حاكَمْتُ فاغْفِرْ لي ما قدَّمْتُ وما أخَّرْتُ وما أسْرَرْتُ وما أعْلَنْتُ، أنْتَ المُقدِّمُ وأنْتَ المؤخِّرُ، لا إلهَ إلَّا أنْتَ أوْ لا إلهَ غيْرُكَ»[١]. كان النبيُّ ﷺ إذا قام من الليل يتهجد استفتح به.

أدعية الركوع:

١- «سُبْحانَ ذِي الجَبَرُوتِ والمَلَكُوتِ والكِبْرِياءِ والعَظَمَةِ»[٢].

٢- «اللهمَّ لكَ ركَعْتُ وبِكَ آمَنْتُ ولكَ أسْلَمْتُ، خَشَعَ لكَ سَمْعِي وبَصَرِي ومُخِّي وعَظْمِي وعَصَبِي»[٣].

٣- «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ ربُّ الملائكةِ والرُّوحِ»[٤]. كان النبي ﷺ يقوله في ركوعه وسجوده.

٤- «سُبْحانَكَ اللهمَّ ربَّنا وبِحَمْدِكَ اللهمَّ اغْفِرْ لِي»[٥]. كان النبيُّ ﷺ يكثر أن يقوله في ركوعه وسجوده.

أدعية الرفع من الركوع:

١- «ربَّنا ولكَ الحمْدُ حمْدًا كثيرًا طيِّبًا مُبارَكًا فِيهِ»[٦].

والحديث بسياقه: روى **البخاري** عَنْ **رِفاعَةَ بْنِ رافِعٍ الزُّرَقِيِّ** رضي الله عنه قالَ: كُنَّا يوْمًا نُصَلِّي وراءَ النَّبِيِّ ﷺ فلَمَّا رفعَ رأْسَهُ مِنَ الرَّكْعةِ قالَ: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ» قالَ رجُلٌ وراءَهُ: «ربَّنا ولكَ الحمْدُ حمْدًا كثيرًا طيِّبًا مُبارَكًا فِيهِ»، فلمَّا انْصرَفَ قالَ مَنِ المُتكلِّمُ؟ قالَ: أنا، قالَ:

---

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٦٣١٧).
(٢) سنن أبي داود، رقم الحديث: (٨٧٣)، سنن النسائي، رقم الحديث: (١٠٤٨). صححه الألباني.
(٣) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٨٤٨).
(٤) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١١١٩).
(٥) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٨١٧)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (١١١٣).
(٦) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٧٩٩).

«رَأَيْتُ بِضْعَةً وَثَلَاثِينَ مَلَكًا يَبْتَدِرُونَهَا أَيُّهُمْ يَكْتُبُهَا أَوَّلُ».

قال بعض العلماء: إنما كانوا بضعة وثلاثين ملكًا لأنَّ الكلمة بضعةٌ وثلاثون حرفًا، فمن شرف هذا الذكر عند الله أنه أرسل لكلِّ حرفٍ ملكًا[1]، أو أنه أرسل بعدد حروف الكلمة ملائكة.

٢- «رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ، اللهمَّ لاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ وَلاَ يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ»[2].

أدعية السجود:

١- «اللهمَّ لَكَ سَجَدْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَلَكَ أَسْلَمْتُ، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، تَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ»[3].

٢- «اللهمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، دِقَّهُ وَجِلَّهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، وَعَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ»[4].

٣- «اللهمَّ اغْفِرْ لِي مَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ»[5].

٤- «اللهمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»[6].

٥- «سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ»[7].

٦- «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ»[8] كان النبي ﷺ يقوله في ركوعه وسجوده.

---

(١) كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي (١/ ١١١٩).
(٢) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٠٩٩).
(٣) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٨٤٨).
(٤) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١١١٢).
(٥) سنن النسائي، رقم الحديث: (١١٢٣) صححه الألباني.
(٦) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١١١٨).
(٧) سنن أبي داود، رقم الحديث: (٨٧٣)، سنن النسائي، رقم الحديث: (١١٣١). صححه الألباني.
(٨) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١١١٩).

٧- «سُبْحَانَكَ اللهمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللهمَّ اغْفِرْ لِي»[١] كان النبيُّ ﷺ يكثر أن يقوله في ركوعه وسجوده.

أدعية الجلوس بين السجدتين:

١- «رَبِّ اغْفِرْ لِي، رَبِّ اغْفِرْ لِي»[٢].

٢- «اللهمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَاجْبُرْنِي وَاهْدِنِي وَارْزُقْنِي»[٣].

أدعية بعد التشهد وقبل التسليم:

١- «اللهمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَسْرَفْتُ وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ»[٤].

٢- «اللهمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ»[٥].

٣- «اللهمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»[٦].

وصدر الحديث أنَّ **أبا بكر الصديق** رضي الله عنه قال للرسول ﷺ: عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي، فعلمه هذا، وقوله ليس فيه تعيينٌ لمحله، والأولى أن يكون في أحد موضعين:

إما السجود؛ لقوله ﷺ: «وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ؛ فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ»[٧].

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٨١٧)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (١١١٣).
(٢) سنن أبي داود، رقم الحديث: (٨٧٤)، سنن النسائي، رقم الحديث: (١١٤٤)، سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٨٩٧).
(٣) سنن أبي داود، رقم الحديث: (٨٥٠)، سنن الترمذي، رقم الحديث: (٢٨٤)، سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٨٩٨) ورواية ابن ماجه فيها أنه ﷺ كان يقول ذلك بين السجدتين في صلاة الليل.
(٤) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٨٤٨).
(٥) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٣٥٢).
(٦) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٨٣٤)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٧٠٤٤).
(٧) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١١٠٢).

وإما بعد التشهد وقبل التسليم؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ لَمَّا عَلَّمَ أصحابه رضي الله عنهم التشهد قال لهم بعد أن ذكر لهم لفظها: «ثُمَّ يَتَخَيَّرُ مِنَ الدُّعَاءِ أَعْجَبَهُ إِلَيْهِ فَيَدْعُو»، هذا لفظ **البخاري**، ولفظ **مسلم**: «ثُمَّ يَتَخَيَّرُ مِنَ الْمَسْأَلَةِ مَا شَاءَ»(١).

قال **ابن دقيق العيد**: ولعله يترجح كونه فيما بعد التشهد لظهور العناية بتعليم دعاءٍ مخصوصٍ في هذا المحل(٢).

أما أذكار ما بعد الصلاة فهي مشهورةٌ في الجملة، فلا أُطَوِّلُ بذكرها محيلًا على الكتب التي تتناولها مثل «حصن المسلم»، وأكتفي هنا بالتنبيه على تَعَدُّدِ العَدَدِ الواردِ في التسبيحات؛ فإنَّه ورد على كيفيات منها هذه الأربع:

الأولى: ما روى **مسلم** عن **أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قال: «مَنْ سَبَّحَ الله فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ ثَلاثًا وَثَلاثِينَ، وَحَمِدَ الله ثَلاثًا وَثَلاثِينَ، وَكَبَّرَ الله ثَلاثًا وَثَلاثِينَ فَتِلْكَ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ وَقَالَ تَمَامَ الْمِائَةِ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.. غُفِرَتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ»(٣).

وهذه هي الكيفية المشهورة.

الثانية: كالأولى ولكن يكبر أربعًا وثلاثين.

روى **مسلم** عَنْ **كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ** رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «مُعَقِّبَاتٌ لاَ يَخِيبُ قَائِلُهُنَّ - أَوْ فَاعِلُهُنَّ - ثَلاَثٌ وَثَلاثُونَ تَسْبِيحَةً وَثَلاَثٌ وَثَلاثُونَ تَحْمِيدَةً وَأَرْبَعٌ وَثَلاثُونَ تَكْبِيرَةً فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ»(٤).

وقوله: «مُعَقِّبَاتٌ»؛ أي أنها تسبيحات تفعل أعقاب الصلاة، أو لأنها تُفعل مرة بعد أخرى، أو يقال: المعقبات هي التي يعقب بعضها بعضًا؛ أي يأتي بعضهن في عقب بعض(٥).

---

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٨٣٥)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٩٢٤).
(٢) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام لابن دقيق العيد ص (٢٠٨).
(٣) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٣٨٠).
(٤) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٣٧٨).
(٥) شرح النووي على مسلم (٥/ ٩٥)، شرح السيوطي لسنن النسائي (٣/ ٧٥)، كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي (١/ ٤٨٥).

الثالثة: أن تسبح الله خمسًا وعشرين، وتحمد الله خمسًا وعشرين، وتكبر الله خمسًا وعشرين، وتهلله بقولك: «لا إله إلا الله» خمسًا وعشرين، فهذه مائة.

روى **النسائي** في سننه عَنْ **ابْنِ عُمَرَ** رضي الله عنهما أَنَّ رَجُلًا رَأَى فِيمَا يَرَى النَّائِمُ قِيلَ لَهُ: بِأَيِّ شَيْءٍ أَمَرَكُمْ نَبِيُّكُمْ ﷺ؟ قَالَ: أَمَرَنَا أَنْ نُسَبِّحَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَنَحْمَدَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَنُكَبِّرَ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ فَتِلْكَ مِائَةٌ، قَالَ: سَبِّحُوا خَمْسًا وَعِشْرِينَ وَاحْمَدُوا خَمْسًا وَعِشْرِينَ وَكَبِّرُوا خَمْسًا وَعِشْرِينَ وَهَلِّلُوا خَمْسًا وَعِشْرِينَ فَتِلْكَ مِائَةٌ.

فَلَمَّا أَصْبَحَ ذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**افْعَلُوا كَمَا قَالَ الْأَنْصَارِيُّ**»(١).

الرابعة: أن تسبح الله عشرًا وتحمده عشرًا وتكبره عشرًا.

روى **أبو داود** عَنْ **عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو** رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**خَصْلَتَانِ أَوْ خَلَّتَانِ لَا يُحَافِظُ عَلَيْهِمَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ هُمَا يَسِيرٌ وَمَنْ يَعْمَلُ بِهِمَا قَلِيلٌ:**

يُسَبِّحُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ عَشْرًا وَيَحْمَدُ عَشْرًا وَيُكَبِّرُ عَشْرًا، فَذَلِكَ خَمْسُونَ وَمِائَةٌ بِاللِّسَانِ وَأَلْفٌ وَخَمْسُمِائَةٍ فِي الْمِيزَانِ.

وَيُكَبِّرُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ وَيَحْمَدُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَيُسَبِّحُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فَذَلِكَ مِائَةٌ بِاللِّسَانِ وَأَلْفٌ فِي الْمِيزَانِ».

فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَعْقِدُهَا بِيَدِهِ.

قَالُوا: يَا رَسُولَ الله كَيْفَ هُمَا يَسِيرٌ وَمَنْ يَعْمَلُ بِهِمَا قَلِيلٌ؟

قَالَ: «**يَأْتِي أَحَدَكُمْ** -يَعْنِي الشَّيْطَانَ- **فِي مَنَامِهِ فَيُنَوِّمُهُ قَبْلَ أَنْ يَقُولَهُ، وَيَأْتِيهِ فِي صَلَاتِهِ فَيُذَكِّرُهُ حَاجَةً قَبْلَ أَنْ يَقُولَهَا**»(٢) صححه الألباني.

هذه كيفياتٌ أربع، ولو نوَّعْتَ بينها لأُعِنتَ على تدبرها واستحضار معانيها، وكنت أبعد عن السرحان فيها، ومن السُّنَّةِ أن تقتفيَ أثرَ النبيِّ ﷺ في فعله وصفة فعله، فما ورد على أكثر من هيئة تفعله كذلك.

---

(١) سنن النسائي، رقم الحديث: (١٣٥٠) وقال الألباني: حسن صحيح.
(٢) سنن أبي داود، رقم الحديث: (٥٠٦٧)، سنن النسائي، رقم الحديث: (١٣٤٧)، سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٩٢٦) واللفظ لأبي داود.

ولا يلزم المصلي في أذكار الصلاة أن يأتي بها في ركعةٍ واحدةٍ أو في صلاةٍ واحدة، بل يمكن أن يوزعها على الركعات أو الصلوات أو بحسب ما تيسَّر له، ومن تتمة الانتفاع بها الإلمامُ بشرحِها، وقد شرحت عددًا منها في كتاب: «**دليل المعتكف**» فانظره إن شئت.

وأذكارُ الصَّلاةِ زينةُ الصلاة، وهي وجبةٌ تربويةٌ مستقلة لمن عقل معانيها، والتقط رسائلها، تَصْلُحُ بها النفوس، وتُهذَّبُ بها الطباع، ولو افترضنا خُلُوَّهَا من الأجر فإنَّ جمالَ معانيها باعثٌ على ترطيبِ الألسنةِ بها.

الفرع الثالث: الدعاء

الدعاءُ عمودُ الاستعانةِ بالله الذي هو أحد أعمدة بناء الإيمان كما مرَّ، وهو أنيس المتعبد وسلوى المتهجد وأمان الخائف ومأوى ذي الحاجة.

والدعاء من المحطات التي استحضرها أهل الجنة وهم يحمدون ربهم على ما صاروا عليهم من النعيم والنجاة من الجحيم كما قال سبحانه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٦ - ٢٨].

وأجعل الكلام هنا في عنصرين: الأول أتناول فيه أقسام الدعاء، والثاني أسطر فيه منهجيةَ الوصول إلى دعاءٍ مجاب، ودونك البيان والتبيان:

العنصر الأول: أقسام الدعاء:

الدعاء أربعة أقسام: دعاءُ مسألةٍ، ودعاءُ خبر، ودعاءٌ مطلق، ودعاءٌ قلبي.

أما دعاءُ المسألة.. فهو أن تسأل الله حاجتك مباشرة؛ كأن تدعوه أن ييسر لك السفر أو يقضي عنك الدين أو يشفي لك الولد، أو ينجيك من القوم الظالمين، وأضراب ذلك.

فهذا الدعاء واضح، وهو الذي عليه أكثر الناس.

وأما دعاءُ الخبر.. فأنت تذكر ربك بما هو عليه من الكمال وما هو أهله، وتذكر نفسك بما أنت عليه من النقص وما أنت أهله، فليس فيه تصريحٌ مباشرٌ بالحاجة.

ومثال ذلك: قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

فأيوب عليه السلام ابتلاه الله بفقد أولاده وأمواله وصحبة الناس وبأمراضٍ نالت منه، لكنه عليه السلام لم يذكر شيئًا من تفاصيل ما ابتُلِي به في دعائه، وإنما اكتفى بهذا القول: ربِّ إني مسني الضر، وأنت أرحم الراحمين.

وهذا الدعاء أسرع إجابة؛ لأنه أكثر إظهارًا للعبودية، ويجمع بين الثناء والدعاء، ولهذا جاء بعده قوله سبحانه مصدرًا بفاء التعقيب: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

ومن الأمثلة كذلك: قوله تعالى عن **يونس** عليه السلام: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

فلم يُصَرِّحْ نبيُّ الله **يونس** عليه السلام بحاله في بطن الحوت في جوف البحر، وهو في ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت، وإنما ذكر كمال ربِّه ونقص نفسه.

لقد لجأ إلى الشهادة بالتوحيد، واعترف بأنَّه من الظالمين لأنفسهم، ووَسَّطَ ذلك بتنزيه ربه عن كل سوء بقوله: «سبحانك»، فكأنه يقول: يا رب إنَّ ما أنا فيه فإنَّك مُنَزَّهٌ عن غياب العدل فيه، فأنت ذو العدل المطلق وذو الحكمة البالغة لكني أنا المتسبب فيه، وأنا الظالم لنفسي، فجاءه الفرج سريعًا: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

وصار مقاله سُنَّةً لمن بعده؛ روى **الترمذي** في سننه عَنْ **سَعْدٍ** رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ**»[1] صححه الألباني.

وهذا قول الله في الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) سنن الترمذي، رقم الحديث: (٣٥٠٥).

وجرَّبتُها مرةً في موطن خوفٍ فأمَّنني الله من القوم الظالمين.

ومن الأمثلة كذلك: ما ذكره الله عن عبده **موسى** عليه السلام من ذهابه إلى مدين فارًّا بنفسه من القوم الظالمين، وهناك في مدين لم يكن على شيءٍ من ترتيب أمر المعيشة؛ فإنه يحتاج لمأكلٍ ومشربٍ ومسكنٍ، وحين يجد ذلك فإنه بحاجةٍ إلى عملٍ يقتات منه ثم إلى زواج.

فلما سقى للفتاتين أغنامهما دعا بدعاءٍ خبريٍّ كما قال سبحانه: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ [القصص: ٢٤].

فذكر ربوبية ربه وفقر نفسه، فجاءه الفرج عن قريب كما قال سبحانه: ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ﴾ [القصص: ٢٥].

وكان في هذا المجيء المطعمُ والمشربُ والمسكنُ والوظيفةُ والزواجُ والأمانُ من المخاوفِ والتشتتِ في الغربة عشر سنين.

فدعاءُ الخبر إذن يقوم على ساقين: أن تذكر كمال ربك وما هو أهله، ونقص نفسك وما أنت أهله، **فالله يعاملك بأوصافه حين تعترف بأوصافك**، وهذا ما جادت **قريحةُ ابن عطاء السكندري** ببيانه حين قال:

«تحقق بأوصافك يمدَّك بأوصافه؛ تحقق بذُلِّك يمدَّك بعزه، تحقق بعجزك يمدَّك بقدرته، تحقق بضعفك يمدَّك بحوله وقوته».

فإذا جلست على بساط الذل وقلت: يا عزيز من للذليل سواك، وعلى بساط العجز وقلت: يا قادر من للعاجز سواك، وعلى بساط الضعف وقلت: يا قوي من للضعيف سواك، وعلى بساط الفقر والفاقة وقلت: يا غني من للفقير سواك.. وجدت الإجابة كأنها طوع يدك، فتصير عزيزًا بالله قادرًا بالله قويًّا بالله غنيًّا بالله إلى غير ذلك[1].

وأما الدعاء المطلق.. فتقوم فكرته على أنك تُفَوِّضُ أمرَ حاجتك إلى الله تعالى، فهو أعلم بك من نفسك، تسأله أن يمن عليك بخير الدنيا والآخرة.

---

(١) شرح الحكم العطائية لعبد المجيد الأزهري ص (١٢٤).

ومن أمثلته في القرآن قوله سبحانه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١].

قال الإمام **الطبري**: إن الله تعالى لم يُخصِّصْ بقوله -مخبرًا عن قائل ذلك- من معاني الحسنة شيئًا، ولا نصَّب ما يدل على تخصيصه بشيءٍ دون شيء، فيبقى على عمومه يشمل العافية في الجسم والمعاش والرزق والعلم والعبادة وغير ذلك مما فيه صلاح الدنيا.

وهذه حسنة الدنيا، أما حسنة الآخرة فلا شك أنها الجنة؛ لأنَّ من لم ينلها فقد حُرِم جميع الحسنات، وفارق جميع معاني العافية[١].

وأما الدعاءُ القلبيُّ.. فأن تقوم الحاجة بنفسك، ثم لا تنطق بها نطقَ مسألةٍ ولا خبرٍ ولا إطلاق، بل لا تتحرك شفتاك بشيءٍ، غير أنَّ الله تعالى يجيب ما يتردد في صدرك من غير أن تطلب؛ إكرامًا لك وتفضلًا منه عليك لما أنت عليه من الصدق وسرعة الاستجابة لأمره سبحانه.

ومن أمثلة ذلك في القرآن: قوله سبحانه عن نبيِّنا ﷺ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٤٤].

وذلك حين كان يحب تحويل القبلة للكعبة بعد أن كانت لبيت المقدس لمصلحةٍ دعويةٍ بسطت القول فيها في مقالةٍ بعنوان: «**حادث تحويل القبلة.. رسائل سياسية وتقريراتٌ عقديةٌ تربوية**»، وهي منشورة على الشبكة، وقد تقدَّمت الإشارة لذلك على وجهٍ موجزٍ فيما مرَّ[٢].

فكان ﷺ يقلب وجهه في السماء دون أن يتكلم تأدبًا مع الله تعالى، واستجاب الله لما كان يعتمل في نفسه دون أن يتكلم.

---

(١) تفسير الطبري (٤/ ٢٠٦) بتصرف.

(٢) انظر البند الثاني عشر من هديه ﷺ في التعبد، وهو المطلب الأول من هذا المبحث.

العنصر الثاني: منهجية الوصول إلى دعاءٍ مجاب:

ذكرت هذا من قبل في كتاب «**دليل المعتكف**» بما لا حاجةَ للزيادة عليه، وقمت بوضع المنهجية كما هي في صدر رسالةٍ بعنوان: «**مختار الأدعية مما تشتد الحاجةُ إليه في المواسم الفاضلة**» لتكون عونًا لمن أراد أن يدعو، خاصة في المواسم الفاضلة كرمضان وذي الحجة وعرفة وغير ذلك.

وأعيدها هنا مع شيءٍ من الحذف والتصرف طلبًا للإيجاز فأقول:

إنَّ المتعبدَ حتى يكون في أدنى موضعٍ من الإجابة فأمامه ثلاث مراحل في الدعاء، هذا بيانُها وتفصيلُ ما يندرج تحتها:

المرحلة الأولى: ما قبل الدعاء:

ينبغي للداعي أن يتأدب بآداب الدعاء وشروطه من مثل السلامة من حرمة المطعم والمشرب والملبس، أو كونه يتضمن إثمًا.

ويستحب له أن يتوضأ قبله ويلتمس أوقات الإجابة؛ كالسَّحَرِ وبين الأذان والإقامة وغير ذلك.

المرحلة الثانية: مرحلة الدعاء نفسه:

نجتهد هنا أن نبدأ الدعاءَ بكلماتٍ مقبولةٍ وأن نختمه بكلماتٍ مقبولةٍ كذلك؛ رجاء أن يكون ما بينهما مقبولًا بإذنه سبحانه وفضله.

وسبيلُ ذلك: أن نبدأ الدعاء بالثناء على الله تعالى والصلاة والسلام على نبيه ﷺ وأن نختمه بذلك، وقد جاء عن **أبي سليمان الداراني** أنه قال: «من أراد أن يسأل الله حاجته فليبدأ بالصلاة على النبي ﷺ، وليسأل حاجته، وليختم بالصلاة على النبي ﷺ؛ فإنَّ الصلاةَ على النبي ﷺ مقبولةٌ، والله أكرمُ أن يردَّ ما بينهما»[1].

(١) فقه الأدعية والأذكار لعبد الرزاق البدر (٢/ ٢٠٦-٢٠٧).

وإليك تفصيل ذلك وزيادةً عليه في الخطوات الخمس الآتية:

أولًا: الثناء على الله تعالى[١]:

ويكون بذكر المُنعم والنعمة، ومثاله: سورة الفاتحة؛ فشطرها الأول ثناء والآخر دعاء.

وقد مرَّ بنا قول النبيِّ ﷺ: «خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يوم عَرَفَة، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»[٢].

فهذا الدعاء ثناء، وعُدَّ خيرَ الأدعية، وفي الجواب عن ذلك أقوالٌ كثيرة منها: أنَّ الثناء على الكريم تعريضٌ بالدعاء والسؤال، ومنها: أنَّ الثناء يجلب العطاء أكثر مما يجلبه الدعاء فأطلق عليه لفظ الدعاء لحصول مقصوده[٣].

وقوله: «لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» يؤذن بأنَّ من بيده ملك السماوات والأرض وخزائنها والقدرة يعطيك مطلبك وحاجتك، فخزائنه ملأى وفضله عظيم.

ثانيًا: الصلاة على النبي ﷺ:

أخرج **الترمذيُّ** عن **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه قال: «إِنَّ الدُّعَاءَ مَوْقُوفٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يَصْعَدُ مِنْهُ شَيْءٌ حَتَّى تُصَلِّيَ عَلَى نَبِيِّكَ ﷺ»[٤] صححه الألباني.

وهذا ما عبَّر عنه **ابنُ القيِّم** بقوله: إنَّ مِفتاحَ الدُّعاءِ الصَّلاةُ على النبي ﷺ كما أنَّ مِفتاحَ الصَّلاةِ الطهور[٥].

وكم من داعٍ يغفل عن هذا!

وأخرج **الترمذي والنسائي** من حديثِ **فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ** رضي الله عنه قال: «بَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَاعِدٌ إِذْ دَخَلَ رَجُلٌ فَصَلَّى، فَقَالَ: اللهمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «عَجِلْتَ أَيُّهَا الْمُصَلِّي، إِذَا صَلَّيْتَ فَقَعَدْتَ فَاحمد اللهَ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، وَصَلِّ عَلَيَّ، ثُمَّ ادْعُهُ».

---

(١) سيأتي الدليل على كونه أحد أسباب الإجابة في البند التالي؛ لأن الدليل ذَكَرَهُما معًا.
(٢) سنن الترمذي، رقم الحديث: (٣٥٨٥).
(٣) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للرحماني المباركفوري (٩/ ١٤١).
(٤) سنن الترمذي، رقم الحديث: (٤٨٦).
(٥) جلاء الأفهام ص (٣٧٧).

قَالَ: ثُمَّ صَلَّى رَجُلٌ آخَرُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَحَمِدَ الله، وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَيُّهَا المُصَلِّي ادْعُ تُجَبْ»[1] صححه الألباني.

وقوله: «عجِلت»: بكسر الجيم، ويجوز بالفتح والتشديد[2]؛ أيْ حَصَلَ منك تعجُّلٌ حين تركت الترتيب في الدعاء، وعرض السؤال قبل الوسيلة.

وفي الحديث دلالةٌ على أن من حقِّ السَّائِلِ أن يتقربَ إلى المسئول منه بالوسائل قبل طلب الحاجة بما يُوجِبُ الزلفى عنده، ويتوسل بشفيعٍ له بين يديه؛ ليكون أرجى في حصول الإجابة، ولهذا قال مرشدًا: «إذا صليت فقعدت..»؛ أي إذا صلى أحدكم وفرغ وقعد للدعاء فليبدأ بتمجيد ربِّه والثناء عليه، ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يسأل حاجته[3].

ثالثًا: الإكثار من الدعاء بالأدعية المأثورة:

تضمَّنت الأدعيةُ المأثورة في الكتاب والسنة ما يجلب للعبد المصالح ويدرأ عنه المفاسد، ومعلومٌ أنَّ الدعاءَ وعاءٌ كريمٌ لحوائج الإنسان، ولن يجد العبد أحسن من أدعية الكتاب والسنة التي تُبلِّغه مقصوده وتعطيه حاجته.

ولا تحسبن الأدعية المأثورة نصوصًا عامةً فحسب؛ فالذي يُفتِّش فيها قد يتفاجأ من استيعابها لحوائج الإنسان إلى مستوى التفاصيل، وبألفاظٍ رصينةٍ ومعانٍ عميقةٍ، وبها يسلم من الاعتداء في الدعاء.

وهذا ما أشار إليه **الغزالي** حين نصح بها فقال: والأَوْلَى أن لا يُجاوِزَ الدعواتِ المأثورة؛ فإنه قد يعتدي في دعائه، فيسأل ما لا تقتضيه مصلحتُهُ، فما كلُّ أَحَدٍ يُحْسِنُ الدُّعَاء[4].

ولست أمنع من الدعاء مما فتح الله عليك، فهذا خير، وقد يكون العبدُ أكثر تفاعلًا معه، ولكن الكلام يتوجه هنا لمن هجر الأدعية المأثورة واعتمد غيرها بالكلية.

(١) سنن الترمذي، رقم الحديث: (٣٤٧٦)، سنن النسائي، رقم الحديث: (١٢٨٣) واللفظ للترمذي.
(٢) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للمباركفوري (٣/ ٢٨٠).
(٣) عون المعبود للعظيم آبادي (٤/ ٢٤٨-٢٤٩).
(٤) إحياء علوم الدين (١/ ٣٠٦).

رابعًا: الدعاء باسم الله الأعظم:

وهذه جملةٌ من الأحاديث التي تناولته:

أخرج أصحاب السنن إلا **النسائيَّ** عن **بُريدة** أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ سَمِعَ رَجُلاً يَقُولُ: «اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنِّي أَشْهدُ أَنَّكَ أَنْتَ الله، لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ، الأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ» فَقَالَ: «**لَقَدْ سَأَلْتَ الله بِالاِسْمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ**»[1] صححه الألباني.

وأخرج **ابن ماجه** من حديث **أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ** رضي الله عنه قَالَ: سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا يَقُولُ: «اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، الْمَنَّانُ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» فَقَالَ: «**لَقَدْ سَأَلَ الله بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ**»[2] صححه الألباني.

وأخرج أصحاب السنن إلا **النسائيَّ** عَنْ **أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ** قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**اسْمُ الله الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ وَفَاتِحَةِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: ﴿الم الله لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾**»[3] حسنه الألباني.

وعند **ابن ماجه**: «**اسْمُ الله الْأَعْظَمُ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ فِي سُوَرٍ ثَلَاثٍ: الْبَقَرَةِ، وَآلِ عِمْرَانَ، وَطه**»[4] حسنه الألباني.

خامسًا: الدُّعاء لأخيك بظهر الغيب:

ودليل ذلك: ما روى **مسلمٌ** في صحيحه عن **صفوانَ** رضي الله عنه قَالَ: قَدِمْتُ الشَّامَ فَأَتَيْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ فِي مَنْزِلِهِ فَلَمْ أَجِدْهُ، وَوَجَدْتُ **أُمَّ الدَّرْدَاءِ** فَقَالَتْ: أَتُرِيدُ الْحَجَّ الْعَامَ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ، قَالَتْ: فَادْعُ الله لَنَا بِخَيْرٍ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «**دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ**

---

(١) سنن أبي داود، رقم الحديث: (١٤٩٥)، سنن الترمذي، رقم الحديث: (٣٤٧٥)، سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٣٨٥٧).

(٢) سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٣٨٥٨).

(٣) سنن أبي داود، رقم الحديث: (١٤٩٨)، سنن الترمذي، رقم الحديث: (٣٤٧٨)، سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٣٨٥٥).

(٤) سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٣٨٥٦).

مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِخَيْرٍ قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلٍ»[١].

وتستفيد أنت بذلك دعاء الملائكة؛ فإنه أرجى في القبول والاستجابة.

المرحلة الثالثة: ما بعد الدعاء:

إذا يسَّر الله لك الدعاء وفتح لك بابه فأعطك بثلاث طاعاتٍ بعده:

١- أن تشكر ربك على الدعاء وعلى الإجابة حين تحصل؛ فإنَّ الشكرَ مؤذنٌ بالإجابة والزيادة كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧].

٢- أن تحسن الظن بربك أنه مجيبُك؛ روى **الترمذي** عَن **أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**ادْعُوا الله وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الله لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ**»[٢] حسنه الألباني.

وفي المسند عن **أبي هريرة** رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله عز وجل قال: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي؛ إِنْ ظَنَّ بِي خَيْرًا فَلَهُ وَإِنْ ظَنَّ شَرًّا فَلَهُ**»[٣] صححه الألباني.

٣- ألا تتعجل الإجابة لو تأخرت؛ روى الشيخان عَنْ **أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قَالَ: «**يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي**»[٤].

فوقت الإجابة إنما هو بمقتضى حكمة الله، فقد يعجل الإجابة حتى لكأنها مقترنةٌ بالدعاء، وقد تتأخر قليلًا، وقد لا تستجاب في سنين، وكلُّ ذلك يراه العبد في نفسه.

والرجاء لمن عظمت استجابته لأوامر ربه وسارع فيها وأحسن المسألة أن يستجيب الله أدعيته عن قريب؛ فقد أماط القرآن الكريم اللثام عن السرِّ في سرعة استجابة الله لأدعية الأنبياء؛ وذلك أنَّ الله تعالى لما ذكر أدعية عددٍ منهم وهم **أيوب ويونس وزكريا** عليهم السلام وذكر

---

(١) صحيح مسلم، رقم الحديث: (٧١٠٥).
(٢) سنن الترمذي، رقم الحديث: (٣٤٧٩).
(٣) مسند أحمد، رقم الحديث: (٩٠٧٦).
(٤) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٦٣٤٠)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٧١١١).

إجابته لهم عقَّب على ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ومع ذلك؛ فإنَّ أدعية الأنبياء نفسها تخضع للحكمة الإلهية؛ **فزكريا** عليه السلام لما دعا بالولد أجيب عن قريب، أما **إبراهيم** عليه السلام حين دعا ربه: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩] تأخرت الإجابة لآلاف السنين!

لكن الله استجاب له بعد موته بآجالٍ لا يعلمها إلا هو سبحانه، ليكون النبي محل الإجابة خيرًا من الداعي نفسه، وبدلًا من أن يكون مرسلًا لقومه خاصة كان مرسلًا للناس كافة.

والعبدُ الموفقُ يدرك أنَّ الدعاءَ له وجهان: وجه عبادة ووجه إجابة، والأول أمر الرب، والثاني حظُّ العبد، فلو غابت الإجابة بقيت العبادة، وقد تكون حسناته المستفادة من ديمةِ الدعاء خيرًا له من الإجابة لو عُجِّلَت.

الفرع الرابع: الخلق الحسن

الخلق الحسن من العمل الذي يشترك فيه الباطنُ والظاهر، ويتوزَّعُ على الأعمال بمختلف جهاتها كما مرَّ، لكنني آثرت جانب القول باعتباره مظهرًا لحركة الباطن، وهذا من حيث العموم وإلا فإنَّ الأخلاق تختلف من خُلُقٍ إلى آخر في ذلك، والخطبُ في التقسيم يسير.

وقد تقدَّم طرفٌ من الحديثِ عن الأخلاق والقِيَمِ في مطلب **«الأصول التربوية»**، فالمسار الخامس منها تم تخصيصه لقواعد السلوك، وأجعل هذا الفرع تتميمًا لما تَسَطَّرَ هناك، وأتناول فيه أمرين:

الأول: مركزية التعاملات الاجتماعية في الإسلام:

فقد يتوهم المُتَعَبِّدُ أنَّ المدارَ في الإسلام على الأوراد التعبدية ذات الشعائر الواضحة كالصلاة والصيام والتلاوة والذكر، لكن الدين يجعل الأخلاق معتبرةً، بل ويجعلها في مرتبةٍ بالغة الفضل والأهمية.

ومن الأدلة على ذلك:

ما روى **البخاري** في الأدب المفرد عن **أبي الدرداء** ﵁ عن النبي ﷺ قال: «**أَثْقَلُ شَيْءٍ فِي مِيزانِ المُؤمنِ يومَ القيامَةِ حُسنُ الخُلُقِ، وإنَّ اللهَ ليبغضُ الفاحشَ البذي**»[1] صححه الألباني.

وروى **أبو داود** عن **عبد الله بن عَبَّاسٍ** ﵄ أَنَّ نَبِيَّ الله ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الْهَدْيَ الصَّالِحَ وَالسَّمْتَ الصَّالِحَ وَالِاقْتِصَادَ جُزْءٌ مِنْ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ**»[2] حسنه الألباني.

والهَديُ الصَّالح: الطريقة الصالحة، والسَّمتُ الصالح: حسن الهيئة والمنظر في الدين والصفات والشمائل، والاقتصاد: ترك الغلو والسَّرَفِ وسلوك الوسط في الأمور القولية والفعلية والدخول فيها برفق على سبيلٍ يمكن الدوام عليه، بلا إفراطٍ ولا تفريط، فالقصد في النفقة مثلًا البعد عن الإسراف وعن البخل[3].

ويُستفاد من الحديث أنَّ المتحلي بالشمائل الحسنة متبعٌ لسبيل الأنبياء ساعٍ في التخلُّقِ بحِليتهم وأخلاقهم.

وروى **أبو داود** عَنْ **عَائِشَةَ** ﵂ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ**»[4] صححه الألباني.

وروى **الترمذيُّ** عَنْ **جَابِرٍ** ﵁ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيْهِقُونَ**».

قَالُوا: يَا رَسُولَ الله قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ؟

قَالَ: «**الْمُتَكَبِّرُونَ**»[5] صححه الألباني.

---

(١) الأدب المفرد للبخاري، رقم الحديث: (٤٦٤).
(٢) سنن أبي داود، رقم الحديث: (٤٧٧٨).
(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود للعظيم آبادي (١٣/ ٩٤)، المنتقى شرح الموطأ للباجي (٤/ ٣٨٣).
(٤) سنن أبي داود، رقم الحديث: (٤٨٠٠).
(٥) سنن الترمذي، رقم الحديث: (٢٠١٨).

والثَّرْثَارُونَ هم المكثارون من الكلام تكلفًا وخروجًا عن الحق، والثرثرة: كثرةُ الكلام وترديده.

والمُتَشَدِّقُونَ هم الذين يتكلفون في الكلام فيلوون به أشداقهم حرصًا على التفصح، والشدق: هو جانب الفم مما تحت الخد[1]، فالمتشدق هو المتكلم بملء شدقه تفاصحًا وتعظيمًا لكلامه.

والمُتَفَيْهِقُونَ هم الذين يتوسعون في الكلام ويتنطعون فيه، يقال: فلان متفيهقٌ في كلامه إذا توسَّع فيه وتنطَّع، وأصله من الفهق وهو والامتلاء كأنَّه ملأ به فمه، وهذه علامة الكبر، ولهذا فسَّره النبيُّ ﷺ بذلك[2].

ومن هذه النصوص وما على شاكلتها التقط الفقيهُ الحنبليُّ رويم بن أحمد البغدادي مركزيةَ الأخلاقِ والقِيَمِ والآدابِ فنقلت إلينا الأقلام وصيته لولده التي صارت عَلَمًا في الباب إذ قال له: «**يا بني اجعل عملك مِلحًا وأدبك دقيقًا**».

أي: استكثر من الأدب حتى تكون نسبتُه في الكثرة نسبةَ الدقيق إلى الملح، وكثيرٌ من الأدب مع قليلٍ من العمل الصالح خيرٌ من كثيرٍ من العمل مع قلةِ الأدب[3].

الأمر الثاني: اختلاف حال الأخلاق بين التيسر والتعسر:

يمكن القول على جهة الإجمال: إنَّ تحصيلَ الأخلاق شيءٌ صعب، لا سيما إذا تعارض بعضُها مع الطبائع التي ابتلاك الله بها؛ فإنَّ الإنسان كما هو مكلَّفٌ بامتثال الشرائع فإنَّه مكلَّفٌ بمغالبة الطبائع.

فلو كان الإنسانُ حادَّ المزاجِ والمعاملةِ مثلًا فهذا يحتاج إلى جهادٍ وأي جهادٍ حتى يصبح حليمًا رفيقًا هادئ المزاج.

---

(١) المعجم الوسيط لإبراهيم مصطفى وآخرين (١/ ٤٧٦).
(٢) تحفة الأحوذي للمباركفوري (٦/ ١٣٦)، التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي (٢/ ١٤٧)، مقاييس اللغة لابن فارس (٤/ ٤٥٦)، الصحاح في اللغة للجوهري (٢/ ٥٣).
(٣) الفروق للقرافي (٣/ ١٦٧).

وبعد هذا الإجمال فإنَّ الأمر يختلف بحسب الخلق والطبع والحال:

أما الخُلُق.. فثمة أخلاقٌ تحتاج إلى تربيةٍ ومجاهدةٍ في العادة؛ كالتعفف بالقدر الذي لا تسأل معه أحدًا من الناس شيئًا.

وأما الطبع.. فيختلف الأمر من شخصٍ لآخر، فالشخص الذي طُبِع على الحلم والأناة يمارسهما كالتنفس لا يجد مشقةً فيهما بخلاف الذي طُبِع على الحدة والغضب.

والغالب أنَّ كلَّ إنسان يُبتلى بطبعٍ أو طبعين يحتاج فيهما إلى تربيةٍ شرعيةٍ ومجاهدةٍ جادة، ثم هو معافى في بقية الطبائع، والناس مختلفون في الطبع الذي يحصل الابتلاء فيه كما هم مختلفون في الابتلاء الذي ينزل عليهم في المال والصحة وغير ذلك.

وأما الحال.. فالوفاءُ مثلًا خُلُقٌ سهل، لكن حين تقوم خصومةٌ بينك وبين من أحسن إليك.. فإنَّ اعتبارَ الإحسان القديم يجعل التحلي بالوفاء ذا كلفةٍ ومجاهدة، والأمانة في المال سهلة، ولكن حين تقوم شدةٌ وضيقٌ ويكون قدر المال مغريًا ويتيسر أخذه بطريقٍ لا يخلو من شبهةٍ إلا أنَّ تمريره في المجتمع ممكن، خاصة إذا تقوَّى بسلطةٍ أو سطوةٍ تمنع من اكتشاف أمره أو مؤاخذته.. فإنه يحتاج لتربيةٍ ومجاهدة.

ومن الحال: أنَّ إعمالَ الأخلاقِ مع أقرانك ومن هم فوقك أمرٌ متيسر، لكنه يزداد شدةً وكُلْفَةً مع من لا كلفةَ بينك وبينهم، ومن لك ولاية عليهم؛ كالوالدين في الأول، والأولاد والزوجة والجنود والموظفين في الثاني.

وتكمن الشدة في أنَّ الإنسان يتخفف عادةً مع الدائرة الأولى، في الوقت الذي أمرت الشريعة بتقديمها في حسن الخلق والصحبة.

روى الإمام **مسلمٌ** في صحيحه عَنْ **أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ أَحَقُّ بِحُسْنِ الصُّحْبَةِ؟ قَالَ: «**أُمُّكَ ثُمَّ أُمُّكَ ثُمَّ أُمُّكَ ثُمَّ أَبُوكَ ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ**»[1].

فالنبيُّ ﷺ يرسم سُلَّمَ الأدبِ ومراتبه في هذا الحديث، ليقرر أنَّ مركز اللطف في البر والتعامل والذوق إنما يبلغ ذروته حين تُعامِلُ الأم، ثم الأب، وكلما ابتعد الإنسان عن

---

(١) صحيح مسلم، رقم الحديث: (٦٦٦٥).

المركز أمكن التخفف بهما لا يخرم خُلُقًا أو يخدش أدبًا.

فمن عكس السُّلَّمَ فالغالب أنه يباشر الأخلاق عادةً لا عبادة.

والمقصود: أنَّ المتعبد ينبغي أن تكون عنايته بالأخلاق موازيةً لعناية الشريعة بها، ومن ثم يخلو بنفسه لترتيب خطة عنايته بها، ويُفتِّش عن حاله وسلوكه مع كلِّ خلقٍ ليكون متعبدًا لله بكلِّ ما أمر، فيكون ذا عدلٍ وإنصافٍ وعفةٍ وتواضعٍ ورحمةٍ ووفاءٍ وأمانةٍ وحياءٍ وبذلٍ وعطاءٍ وعفوٍ وصفحٍ وتغافلٍ وإحسانٍ وحلمٍ وأناةٍ ولطفٍ وعزةٍ وشجاعةٍ وحكمةٍ ورفقٍ وكرمٍ ووقارٍ...، إلى آخر قائمة الأخلاق.

ويمكن أن تجعل عنايتك في كلِّ عامٍ أو في نصفِه بخُلُقين مثلًا تركز عليهما وتقرأ عنهما وتأخذ بالأسباب التي توصلك لهما، والله يتولاك وهو يتولى الصالحين.

وأختم القول بتحريضٍ عقليٍّ على الأخلاق سمعته من مقطعٍ للداعية المصري علاء حامد وفقه الله تعالى يقول ما مفاده:

إننا نرجو أن ندخل الجنة، وأن نرتقي في درجاتها العلا، لكننا لسنا كالسلف؛ ليس لنا كثرةُ عبادةٍ، ليس لنا كثرةُ صلاةٍ وصيام، ليس لنا هجرةٌ وغزوٌ وصحبةٌ للنبيِّ ﷺ وارتحالٌ لأجل نشر الدين في الآفاق، فلو دخلنا في منافسةٍ معهم فإنَّ الأمر علينا شديدٌ شديد.

لقد صرنا على حالٍ من يقوم الليل فيه نصف ساعةٍ يكون بطلًا وقد كان السلف لا ينامون إلا قليلًا اشتغالًا بالقيام، فإذا جاء السَّحر فإذا هم يستغفرون.

أمام هذا كله فإنَّ الحل في حسن الخلق.

لقد أخبر النبيُّ ﷺ أنَّ الرجل ليبلغ بحسن خلقه درجة الصائم القائم، وأنَّ أقرب الناس منه مجلسًا يوم القيامة أحاسنهم أخلاقًا.

فالعجز الذي عندنا في صنوف العبادات يمكن أن يُعوَّض بمكارم الأخلاق.

وحسنُ الخُلُقِ لا يُكلِّف وقتًا ولا مالًا؛ وجهٌ طَلِق، وكلمةٌ طيبة، وكفٌ للأذى، وتحملٌ للأذى، وبذلٌ للمعروف ما أمكن.

ولعله اليوم أعظم أجرًا؛ فحسن الخلق في زمنٍ ساءَ فيه الخلق أعظم أجرًا من حسن الخلق في زمانٍ حَسُنَ فيه الخلق؛ لأنَّ العمل يزيد فضله في وقت الغفلة وحال المشقة، وكثيرةٌ هي الأمورُ التي تستفزُّ الإنسانَ في زماننا لسوء الخلق.

انتهى كلامه وفقه الله.

اللهم أكرمنا بحسن الأخلاق، وسعة الأرزاق، وفهِّمنا دِينَكَ وسُنَنَك في الأنفس والآفاق، واغفر لنا يوم التلاق.

الفرع الخامس: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

لم أعُبِّر عنهما بالدعوةِ إلى الله لئلا يُظَنَّ أنَّ النطاقَ منحصرٌ في منبر الجمعة وما على شاكلته، وليس التضييق من مصطلح الدعوة نفسه؛ وإنما من المعتاد في استعماله.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من آكد أعمال المتعبد وأكثرها أجرًا وفضلًا ودلالةً على قوة علاقته بالله وانتمائه للدين ووفور رحمته بالمسلمين.

وأهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تتجاوز خصوص الفرد لتعم الأسرة والمجتمع والدولة والأمة، ولقد بلغا في المنزلةِ والمكانةِ أنهما شعارُ هذه الأمة، والخاصية الكبرى التي تميزها مع الإيمان كما قال سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وحتى تستبين أثرَ ذلك وقيمتَه فما عليك إلا أن تستحضر أننا اليوم أمةٌ بدون رأس؛ فقد سقطت الخلافة الإسلامية من نحو مائة سنة، وبقي الفراغ السياسي قائمًا، وتسلط الأعداء على العباد والبلاد، وتمكنوا من القرار والمال، فبتنا أُمَّةً منزوعةَ الكلمة، منهوبةَ الثروات، يتولى أمرها الظلمة، وليس هناك أيُّ دولةٍ حتى هذه اللحظة تُمَثِّل المسلمين؛ بحيث تتولى أمرهم وتدافع عنهم وتعلن الحرب على من يعتدي عليهم.

ومع ذلك كله؛ فلو جاء جمعٌ من علماء السلاطين يسوغون للحكام الظلمة أفعالهم، ويُطوِّعون الناس تلبيةً لمصالحهم.. فإنَّهم يَسقُطُون بقوة الكلمة التي ما زالت محفوظةً في أفراد الأمة وعلمائها ودعاتها، ولو بلغ الضعف بالمسلمين ما بلغ.

وهذا من بركة تماسك المنهج الأصولي، وتكامل المنهج الفقهي، والذي تمثَّلت ذروتُهُ في المذاهب الفقهية الأربعة وما سار في فلكها، فالدينُ بما بلغنا من تراثٍ عظيمٍ عصيٌّ على التطويع لأهواء الظلمة والمنتفعين.

وهذا يُبرز عظمةَ الآمرين بالمعروف والناهين المنكر، الذين يحفظون الدين، ويصلحون أمر المسلمين، ومن فضل الله على العباد ورحمته بهم أنَّ الأرضَ لا تنقطع منهم؛ روى **ابن ماجه** من حديث **أبي عِنبَةَ الخَوْلَانِيِّ** رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «لَا يَزَالُ اللهُ يَغْرِسُ فِي هَذَا الدِّينِ غَرْسًا يَسْتَعْمِلُهُمْ فِي طَاعَتِهِ»[١] حسنه الألباني.

والمادة التي تتوجه إلى المتعبد هنا أنَّ هذا الخيرَ الذي وصلك، والنورَ الذي بلغك ينبغي أن يتجاوزك، ومن هنا تأكد الأمر بالمعروف.

ثم ما يكون من منكرٍ فإنَّ المجتمعَ يأخذ على يد بعضه لتحصل الاستقامة بأتباع الرسل، فليس بعد **محمدٍ** ﷺ من نبي، ولكن أتباعه يقومون بالمهمة التي كان يحملها، والعلماء ورثة الأنبياء، فهم بمثابة رسل الرسل.

وعلى هذا؛ فإنَّ المسلم إذا رأى منكرًا وجب عليه أن يُنكر؛ استجابةً لأمر النبي ﷺ الذي لا ضبابيَّة فيه: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ»[٢].

أمَّا ما يمكن أن يَتْبَعَ ذلك من أذىً فهو من الضريبة التي يدفعها المُسلِمُ في ذات الله تعالى، ولكثرة ترتب الأذى على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جمع بينهما لقمان في وصيته لولده إذ قال له -كما حكى عنه القرآن-: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

وقد يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مُكلفًا يحتاج إلى جرأةٍ ورضا بالتبعات التي تعقبه، وقد يحصل من الظروف من لا يقدر معها على الصدح بكلمة الحق إلا أفذاذ

---

(١) سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٨).
(٢) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٨٦).

الناس، فكلمة الحق ليست قريبةً من كل أحد.

وكثيرٌ من الناس ترتبط أحوالُهم بمصالح قد تتضرر فعلًا لو نطقوا بكلمة الحق، وقد لا يحتملون ما ينتج عن ذلك من شِدَّةٍ ولأواء، وربما لم يتضرروا في خاصَّةِ أنفسهم لكنهم لا يحتملون التعرض لشدة المجتمع وسطوته عليهم لو خالفوا المعتاد ولو كان منكرًا.

التقط هذا المعنى بحسن التأمل في جواب **أويس القرني** حين جاءه رجلٌ من قبيلة **مراد** يسأله عن حاله، فتسلسل الحوار بينهما حتى قال له:

«يَا أَخَا مُرَادٍ إِنَّ الْمَوْتَ لَمْ يُبْقِ لِمُؤْمِنٍ فَرَحًا.

يَا أَخَا مُرَادٍ إِنَّ عِرْفَانَ الْمُؤْمِنِ بِحُقُوقِ الله لَمْ تُبْقِ لَهُ فِضَّةً وَلَا ذَهَبًا.

يَا أَخَا مُرَادٍ إِنَّ قِيَامَ الْمُؤْمِنِ بِأَمْرِ الله لَمْ يُبْقِ لَهُ صَدِيقًا، وَالله إِنَّا لَنَأْمُرَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ فَيَتَّخِذُونَنَا أَعْدَاءً، وَيَجِدُونَ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْفَاسِقِينَ أَعْوَانًا، حَتَّى وَالله لَقَدْ يَقْذِفُونَنَا بِالْعَظَائِمِ، وَوَالله لَا يَمْنَعُنِي ذَلِكَ أَنْ أَقُولَ بِالْحَقِّ»[(١)].

والأهمُّ من هذا القول الشخصيةُ التي صدر عنها.

إن أويسًا هذا هو التابعي الذي نال أعظم تزكيةٍ نبوية.

روى الإمام **مسلم** في صحيحه عَنْ **عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ** رضي الله عنه قَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم يَقُولُ: «إِنَّ خَيْرَ التَّابِعِينَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: أُوَيْسٌ، وَلَهُ وَالِدَةٌ، وَكَانَ بِهِ بَيَاضٌ فَمُرُوهُ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ»[(٢)].

ولعلك أدركت الآن عظمةَ الواقفِ بثغر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى إنَّه لمعدودٌ من المجاهدين في سبيل الله في خير جهادٍ لو كان ذلك في حضرة سلطانٍ جائر؛ روى **النسائي** عَنْ **طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ** أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله وسلم -وَقَدْ وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْغَرْزِ[(٣)]-: أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»[(٤)] صححه الألباني.

---

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم، رقم الحديث: (٥٧٤٧).
(٢) صحيح مسلم، رقم الحديث: (٦٦٥٥).
(٣) هو ركاب البعير إذا كان من جلدٍ أو خشب. انظر: شرح النووي على مسلم (٨/ ٩٧).
(٤) سنن النسائي، رقم الحديث: (٤٢٢٠).

وجاء عند **ابن ماجه** من حديث **أبي سعيد الخدري** رضي الله عنه بلفظ: «**أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ**»(١).

فلو قُتِل في ذلك فإنه شهيدٌ بمنزلة سيد الشهداء **حمزة** رضي الله عنه؛ روى **الحاكم** في مستدركه عَنْ **جَابِرٍ** رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَرَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ فَقَتَلَهُ**»(٢) صححه الألباني.

ومن منافع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ألا ينقطع المعروفُ بين الناس، وأن تبقى ثمة قدوات في سلامةٍ من الغبش، يحفظون المجتمع من الانحراف ولو كان قليلًا، فهم مشتغلون بعبادةٍ عامَّةٍ يرجع فضلها على المجتمع بأسره.

ومع ذلك فإنَّ الأذى إنما هو في أول الطريق في الغالب؛ فآخر المشهد يشهد رفعةَ الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر كما بَشَّر بذلك نبيُّنا ﷺ بقوله: «**من التمسَ رضا الله بسَخَطِ النَّاسِ رضي الله تعالى عنه وأرضى الناس عنه، ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس**»(٣).

واعلم أنه لا بد من الجهر بالحق ولو عَلِمْتَ أنَّ الناسَ لا يستجيبون لك أو لا يعملون بما تقول، وذلك أنَّ تركَ إنكارِ المنكرِ يجعله يكتسب مشروعيةً مع الزمن تحت وطأة شبهة الإقرار، بحيث لو أُنكِر على الفاعل فيما بعدُ لقال: ما سمعت من يمنع هذا من قبل، وربما اتُّهِم المُنكِر بالتشدد.

وأشار الشيخ **عبد العزيز الطريفي** فرَّج الله كربه إلى ذلك بقوله: «**لا بد من إظهار الحق ولو لم يتبعه الناس؛ حتى يبقى حاضرًا في الأذهان؛ لأنَّ أخطر الحجج أن يأتي جيلٌ يقول: ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين**».

ومن جهةٍ أخرى؛ فإنَّ كثيرًا من الناس يفعل الذنب بضغط الشهوة والنفس الأمارة بالسوء ووساوس الشيطان، فعقله يأمره بالإقلاع ونفسه تحمله على الاندفاع، فلو سكت

---

(١) سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٤٠١١).
(٢) المستدرك على الصحيحين للحاكم، رقم الحديث: (٤٨٧٢).
(٣) صحيح ابن حبان، رقم الحديث: (٢٧٦) والحديث إسناده حسن.

الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر.. لضعف يقين العقل بالحرمة، وحينئذٍ ينقاد العقل لضغط النفس فيأخذ في الاستدلال على صحة أفعالها بدلًا من التوبة إلى الله تعالى والأوبة إلى الرشاد، ومن ثم تستبد النفس بالعقل حتى ينتقل من الشهوة إلى الشبهة.

وهذا ما تفطَّن له الإمام **الحريري** في مقاماته إذ عبَّرَ عن هذا المعنى بأوجز لفظٍ وأبلغه فقال داعيًا: **«ونسْتغْفِرُك منْ سَوْقِ الشَّهَواتِ إلى سوقِ الشُّبُهاتِ»**[١].

والمقصود في هذا المقام أنَّ المتعبِّدَ ليس مقتصرًا في اهتماماته على أوراد التعبد المعروفة؛ وإنما هو مشحونٌ بالغيرة على دين الله أن يُنتهك، وعلى عباد الله أن يقعوا في الشر.

وحيث أمر ونهى.. فإنه ينبغي أن يكون مستوثقًا من صحة الذي يقول، وأن يمارس الأمر والنهي على قاعدة الحكمة والموعظة الحسنة، ليجمع بين العلم والرحمة على سَنَنِ أهلِ الحق، وقد تناول شيخ الإسلام **ابن تيمية** هذا بكلامٍ رصينٍ فقال: **«وأهل السنة والعلم والإيمان يعلمون الحق ويرحمون الخلق»**[٢].

وما تسطَّر إنما هو القدر الذي يتوجه لكلِّ مسلم، أما التَّصَدِّي لبثِّ العلمِ والدعوةِ والفتوى فيحتاج لمؤهلاتٍ من زيادةِ علمٍ وفقه ووعيٍ لتقع الدعوةُ على بصيرة.

واقتحامُ ساحة التعليم والدعوة من غير عُدَّةٍ كافيةٍ مُوقِعٌ في تبعاتٍ قاسيةٍ على الداعي نفسه، وهذا ما فصَّلته في كتاب **«معارج العلوم»** في موضوعين أولهما بعنوان: **«التصدر قبل التأهل»**، والثاني: **«التعجل في بناء المفاهيم»**.

وفيما تَسَطَّرَ فيه كلماتٌ في فقهِ التَّصَدُّرِ وما الذي يفعله الذي تصدر بقدر الله، وما الذي يعتمده من لم يتصدر بعدُ؟، فارجع إليه إن شئت، والله يتولاك وهو يتولى الصالحين.

---

(١) مقامات الحريري ص (٢).
(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٦/ ٩٦).

المطلب الرابع

الأعمال العقلية

هذا المطلب يتولى الكلامَ عن الأعمال التي يتغلب فيها جانب العقل من جهة إعمال الفكر والتأمل والتيقظ الذهني وما إلى ذلك.

وقد تقدَّم أنَّ الأعمالَ متداخلةٌ بين الظَّاهرِ والباطن، ولكن مصلحة التدوين هي التي تحمل على مثل هذا التقسيم.

كما وتقدَّم أنَّ من هدي النبيِّ ﷺ في التعبد العنايةَ بالأعمالِ العقلية وكذلك القلبية.

وأتناول في هذا المطلب خمسة أعمال: الخشوع في الصلاة، وتدبر القرآن الكريم، والقراءة، ومحاسبة النفس، والتفكر وهو يشمل تدبير أمر الشخصية وما يقع في نطاق عنايتها على صعيد الأهل والمجتمع والبلد وما هو أوسع من ذلك.

ودونك بيان هذه الأعمال، كل عمل في فرعٍ كما يلي:

الفرع الأول: الخشوع في الصلاة

بدأت بهذا العمل لأنه روحُ الصَّلاةِ التي هي أحد أعمدة بناء الإيمان.

ومن ثمرات الخشوع: أنه يأخذ بالإنسان إلى تربية القرآن آيةً آية، وإلى تربية أركان الصلاة ركنًا ركنًا، كما أنَّ الخاشعَ يُرزَقُ بقلبٍ مطمئن وسكينةٍ ويقينٍ يهون عليه مصائب الدنيا، ويعينه على كمالات التربية والأخلاق والقيم.

ولو أن رجلًا كان يحرص على الدنيا أشد الحرص؛ بحيث يجزع عند البلاء ويبخل عند الرخاء.. فإنَّه لا يصلي على التمام؛ فالصلاة تربي وتُهذِّبُ كما يُرشد لذلك قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ٢٢ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٣].

وهذا صدق من قال: «**إذا كانت أمورك لا تسير جيدًا فاعلم أنك لا تصلي جيدًا**».

واختلالُ الخُشُوعِ من الشكاوى الذائعة، وإن لم يجلس المتعبد ليفكِّر في علاجٍ جادٍّ لهذه المشكلة.. فإنَّ دوَّامةَ الحياة ستطحنه بلا شك.

وأنصحُ في علاجِ هذه المشكلة بالنَّصائح الأربع الآتية:

أ- التبكير إلى الصلاة عند الأذان، فإذا ذهبت إلى المسجد وصلَّيت ما تيسَّر لك وقرأت شيئًا من القرآن ثم دخلت الصلاة.. فإنَّ هذا أعونُ على استجلابِ الخشوع؛ لأنَّ الإنسانَ يسرح ذهنه عادةً فيما كان مشتغلًا به، فهذه التوطئة تُوجِّه فكرَه ليقع في الصلاة.

ب- أن تحفظ أدعية الصلاة المتقدمة حفظًا جيدًا، وتعتاد قراءتها، مع الحرص على التنويع؛ فأدعية الاستفتاح مثلًا خمسة، وأدعية الركوع أربعة، وأدعية السجود سبعة.

فإذا ذكرت في كلِّ ركعةٍ من الذِّكر ما لا تذكره في الركعات الأخرى صرت على إقبالٍ وتفاعل وحيويةٍ تمنع السرحان أو تخففه؛ لأنَّ ذهنك مشتغلٌ بالذي تؤديه مما لا يجري به لسانك عادة؛ إذ جريان اللسان على ألفاظٍ بعينها من السور والأدعية والأذكار يُضعف من حضور الذهن، وربما بدأ بالعمل وانتهى من غير أن يشعر.

ج- أن تجلس بين الفينة والفينة تنظر حالك وتفكر فيما ترى فيه صلاحَ أمرك، مع الاستعانة بالله والتوسل إليه بحسن الدعاء أن يهبك حسن الوقوف بين يديه، وإذا رآك الله مهمومًا بذلك مجتهدًا في تحصيل الخشوع بالتفكير والتخطيط والتدبير والدعاء.. فالظن الكريم أن يعطيك ويكرمك.

د- أن تقرأ الكتابات التي تُنَظِّرُ للخشوع بشكلٍ عملي؛ من خلال تناول أركان الصلاةِ وأفعالها وأذكارها وأدعيتها بالشرح والبيان وكشف المقاصد والأسرار.

وأفضل المواد التي وقفت عليها في ذلك رسالة: «**ذوق الصلاة عند ابن القيم**» للدكتور **عادل عبد الشكور الزرقي**، وقد جمعها من موضعين من كتب ابن القيم.

ثم جاء الشيخ **خالد أبو شادي** فرَّج الله كربه فنظر في هذه الرسالة وأضاف إليها أشياء مأخوذة من كلام **ابن القيم**، وقرَّبها بأسلوبٍ سهل، وزاد عليها حتى خرجت في كتابٍ سمَّاه: «**أول مرة أصلي وكان للصلاة طعمٌ آخر**».

وللشيخ **إبراهيم السكران** فرَّج الله كربه مقالةٌ تناولت موضوع الخشوع في الصلاة بطرحٍ بديعٍ يأخذ بمجامع القلوب عنوانها: «**صفاء الأنبجانية**»، وذلك في كتابه «**مسلكيات**»، فاجتهد أن تقرأها وتحسن التقاط رسائلها، ولا تكسل عن ذلك.

ومن السلاسل المرئيَّةِ التي أرجو أن يكون فيها نفعٌ سلسلة «**كيف تتلذذ بصلاتك؟**» للشيخ مشاري الخرَّاز وفقه الله.

هذا وبالله التوفيق.

الفرع الثاني: تدبر القرآن الكريم

تَقَدَّمَ الحديثُ عن التِّلاوةِ في الأعمال القولية، وهنا الحديث عن التدبر في الأعمال العقلية.

والتدبر تدور معانيه عند أهل اللغة حول النظر في عواقب الأمور والتفكر في أدبارها وما تؤول إليه[1]، وعلى هذا يمكن القول: إنَّ التدبرَ هو التفكرُ الشاملُ الموصلُ إلى دلالات الكلام وإدراك مراميه البعيدة.

وهذا يعني أنَّ عمليةَ التدبرِ بمثابة اكتشاف ما بالنصِّ القرآني من معانٍ مستكنَّةٍ فيه، وإخراج ما فيه من مختلف الدلالات التي لا تظهرُ باديَ الرَّأي.

وهو أمرٌ مطلوبٌ شرعًا، وتولَّى القرآن نفسه بيان قيمته، وذلك في قوله سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

ومن كلام **ابن القيم** في التحريض على التدبر قوله: «فلا شيءَ أنفعُ للقلبِ من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر؛ فإنَّهُ جامعٌ لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين، وهو الذي يُورِثُ المحبَّةَ والشوقَ والخوفَ والرجاءَ والإنابةَ والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر وسائر الأحوال التي بها حياةُ القلبِ وكمالُهُ، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة والتي بها فسادُ القلبِ وهلاكُهُ.

فلو علم الناسُ ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كلِّ ما سواها، فإذا قرأه

---

(١) تاج العروس للزبيدي (١١/ ٢٦٥)، التعريفات للجرجاني ص (٧٦) بتصرف.

بتفكرٍ حتى مرَّ بآيةٍ وهو محتاجٌ إليها في شفاءِ قلبِهِ كررها ولو مائة مرة ولو ليلة؛ فقراءةُ آيةٍ بتفكرٍ وتفهُّمٍ خيرٌ من قراءةِ ختمةٍ بغيرِ تدبرٍ وتفهمٍ، وأنفعُ للقلبِ وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن.

وهذه كانت عادةُ السَّلَفِ يُرَدِّدُ أحدُهم الآيةَ إلى الصباح، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنَّهُ قام بآيةٍ يرددها حتى الصباح، وهي قوله سبحانه: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

فقراءة القرآن بالتفكر هي أصلُ صلاحِ القلب، ولهذا قال **ابن مسعود** رضي الله عنه: «**لا تهذوا القرآن هَذَّ الشعر ولا تنثروه نثر الدَّقَل**[١]، **وقفوا عند عجائبه وحرِّكوا به القلوب، لا يكن همُّ أحدكم آخر السورة**».

وروى **أبو أيوب** عن **أبي جمرة** قال: قلت **لابن عباس**: إني سريعُ القراءة؛ إني أقرأ القرآن في ثلاثٍ قال: «لأن أقرأ سورةً من القرآن في ليلةٍ فأتدبرها وأرتلها أحب إلي من أن أقرأ القرآن كما تقرأ»[٢].

وقد أحسن الشيخ **عبد الحميد بن باديس** رائد النهضة الجزائرية عليه رحمةُ الله حين اتَّخذ القرآن الكريم ركيزةً أساسيةً اتَّكأ عليها في مشروعه النهضوي الذي كان يهدف من ورائه إلى إعادة بعث الشعب الجزائري، وإحياء أمة أشرفت على الاندثار تحت ضربات المحتل الفرنسي الذي استهدف دينها ولغتها وتاريخها وثقافتها بالمسخ والمحو والسَّحْقِ والتشويه.

وقد كانت له خطةٌ كريمةٌ في ذلك دوَّنها الأستاذ الدكتور **محمد زرمان** في رسالةٍ لطيفةٍ بعنوان: «**استراتيجية ابن باديس في تدبر القرآن وأثرها في نهضة الأمة**»، وقمت بمدارستها والتعقيب عليها في ثمانية دروس، وهي منشورة على الشبكة.

ومن كلامه في ذلك: «**إنَّ القرآن الذي كوَّن رجالَ السلف لا يَكثُرُ عليه أن يُكَوِّنَ**

(١) الدَّقَل: أردأ التمر. انظر: المعجم الوسيط لإبراهيم مصطفى وآخرين (١/ ٢٩١).
(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ١٨٧).

رجالًا في الخلف لو أُحسِنَ فهمُهُ وتدبُّرُه، وحُمِلَت الأنفسُ على منهاجِه».

وحاصلُ ما تقدَّم: أنَّ المتعبدَ ينبغي أن تكون عنايته أوفر ما يكون بتدبر القرآن الكريم؛ لأنه ينبوع الهداية ومنجم الثقافة والمعرفة والعلم، ولا تحسبن الذي يزيد عنك في قدر التلاوة بأزيد منك في الأجر؛ فإنَّ ثوابَ قراءةِ الترتيلِ أعظمُ من ثواب قراءة الكثير بغيره.

جاء في كتب الشَّافعية أنَّ حرفَ الترتيل أفضلُ من حَرْفَي غيره؛ فجزءٌ به أفضل من جزءين بدونه، وصرَّحوا بأنَّ إفراطَ الإسراعِ في التلاوة مكروه(١).

وقال **ابن القيم**: ثواب قراءة الترتيل والتدبر أجلُّ وأرفع قدرًا، وثواب كثرة القراءة أكثر عددًا، فالأول كمن تصدَّق بجوهرةٍ عظيمة، والثاني كمن تصدَّق بعددٍ كثيرٍ من الدراهم(٢).

والسببُ في ذلك: أنَّ الترتيلَ في التلاوة والتأني فيها أعونُ على التدبر، وأقربُ إلى توقير العبد لكلام ربه، اللهم إلا لمن تيسَّر له التدبر مع السرعة؛ فهذا يمضي على سجيته ولا يخالف طبعه، وقليلٌ ما هم.

والدعوة للتدبر تنبعث كلَّ عامٍ مطلع شهر رمضان؛ لتوافر الهمم على القراءة، وتبدأ ثمة معارضة بين من يرى كثرة التلاوة ومن يرى إعمالَ التدبر ولو قلَّ المَتلُو.

والذي يظهر أنَّ التدبر المنشود في ختمات التلاوة في رمضان هو تأمل المعاني إجمالًا لا تفصيلًا، أما الإيغالُ في إدراك حِكَمِ القرآن ومقاصده ولطائفه وأسراره وتحليل ألفاظه فإنَّ كثرة التلاوة في رمضان أفضل منه لفضيلة الوقت كما نبَّه على ذلك الشيخ عبد العزيز الطريفي فرَّج الله كربه.

ويمكن استثمارُ رمضان في البدء بختمةٍ تدبريَّةٍ يستمر فيها بعد رمضان، يعيش من خلالها مع القرآن سورة سورة، وآية آية.

---

(١) نهاية المحتاج للرملي (١/ ٥٤٧)، إعانة الطالبين للدمياطي (١/ ١٨٣).
(٢) زاد المعاد (١/ ٣٣٩).

وأختم الكلام بأربعٍ من النصائح التي تعين في رحلة التدبر:

أولًا: مما يعينك على استثمار الختمة الشهرية في الخروج بأكبر مقدارٍ من الثراء المعرفي التدبري أن تستحضر قضيةً علميَّةً في كلِّ ختمة، تبقى كالهاجس في ذهنك، فعندئذٍ يتيسر لك أن ترى منهج القرآن في تقريرها، وتلتفت إلى فقهها وتدرك أسرارها.

وذلك كأن ترى منهج القرآن في عرض المنهج التربوي أو الفقه الاجتماعي أو الفكر السياسي أو الدعاء أو الأخلاق أو غير ذلك، والله يفتح على من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

ثانيًا: أن تطالع بعض الكتب في مفاتيح التدبر، ومن ذلك هذه الخمسة:

١) مفاتيح للتعامل مع القرآن الكريم للدكتور صلاح **الخالدي** رحمه الله.

٢) مفاتيح تدبر القرآن والنجاح في الحياة «عشرة مفاتيح لتحقيق التدبر الأمثل» للدكتور **خالد اللاحم**.

٣) أفلا يتدبرون القرآن.. معالم منهجية في التدبر والتدبير للدكتور **طه جابر العلواني** رحمه الله.

٤) منهج الاستنباط في القرآن الكريم للشيخ **فهد الوهبي**.

٥) الخارطة الذهنية للقرآن الكريم.. سورة البقرة أنموذجًا، الطريق الأسهل للحفظ والتدبر معًا للدكتور **إبراهيم الدويش** فرَّج الله كربه.

ولي محاضرةٌ مسجَّلَةٌ ذَكَرْتُ فيها عددًا من الطرائق العملية في التدبر مما لا يقع التركيز عليه عادةً في الكتابات التي تحرِّض على التدبر وتبين طريقه وهي بعنوان: «**منهجياتٌ في تدبر آيات الكتاب**» وهي منشورةٌ عبر الشبكة، وعسى أن تتهيأ الأسباب لتحريرها في رسالةٍ مكتوبة.

ثالثًا: أنَّ تجعل تلاوتك في صلاة الليل تدبرية، وقد رصد الصحابيُّ الجليل **عوفُ بن مالكٍ** رضي الله عنه سلوكَ النبيِّ ﷺ في هذا.

روى **أبو داود والنسائي** عن **عوفِ بن مالك** رضي الله عنه يقول: قُمْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَبَدَأَ فَاسْتَاكَ وَتَوَضَّأَ ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى فَبَدَأَ:

فَاسْتَفْتَحَ مِنْ الْبَقَرَةِ لَا يَمُرُّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ إِلَّا وَقَفَ وَسَأَلَ.

وَلَا يَمُرُّ بِآيَةِ عَذَابٍ إِلَّا وَقَفَ يَتَعَوَّذُ.

ثُمَّ رَكَعَ فَمَكَثَ رَاكِعًا بِقَدْرِ قِيَامِهِ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: «**سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ**».

ثُمَّ سَجَدَ بِقَدْرِ رُكُوعِهِ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: «**سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ**».

ثُمَّ قَرَأَ آلَ عِمْرَانَ ثُمَّ سُورَةً ثُمَّ سُورَةً فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ»[1] صححه الألباني.

وعند **ابن ماجه** عَنْ **حُذَيْفَةَ** رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى فَكَانَ:

إِذَا مَرَّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ سَأَلَ.

وَإِذَا مَرَّ بِآيَةِ عَذَابٍ اسْتَجَارَ.

وَإِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَنْزِيهٌ للهِ سَبَّحَ»[2] صححه الألباني.

ومما يعينك على هذا أن تجعل صلاتك بالليل زمنًا تلتزم به لا قدرًا تنتهي إليه؛ كأن تنوي ساعةً أو نصفها أو أكثر من ذلك، ولا يكن همك آخر الصفحة أو الجزء، ولو لم تُصَلِّ إلا ركعة، ولم تقرأ إلا آية، فالقصد هنا العيش مع الآيات والتفاعل معها والاستنباط منها والتربية من خلالها.

وقد تقدَّم تنظيرٌ لذلك وزيادةٌ عليه في الأصل الثالث من الأصول الكلية للتعبد والعمل ومتنه: «**لذة العبادة وجني ثمارها إنما هو في حُسنها لا في مجرد الإكثار منها**».

رابعًا: قراءة أحد التفاسير كاملًا:

وأعيد التنبيه على أنَّ التفاسيرَ المختصرةَ التي تقع عادةً على هامش المصحف لا يتحقق بها الغرض المطلوب من تربية النفس بالقرآن، ومن تثوير العلوم والمعارف، فهي مفتاحٌ ليس إلا، ويكاد أن يكون مِفتاحًا بلا أسنان، ومن الصعب أن تجعل القارئ يعيش في رحاب النصِّ ومقاصده ومراميه؛ لشدة اختصارها ولبُعدِنا عن الكلام العربي، فلا يُلتقط المقصود من الآيات على هذا الوجه بالغ الإيجاز.

---

(١) سنن أبي داود، رقم الحديث: (٨٧٣)، سنن النسائي، رقم الحديث: (١١٣١) واللفظ للنسائي.
(٢) سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (١٣٥١) وأصله عند مسلم بمزيد تفصيل برقم: (١٨٥٠).

وأكثر من يستفيد منها من ينتهي من قراءة تفسير مطولٍ أو أكثر ثم ينظر فيها؛ فإنها توجز له المعاني الكثيرة في ألفاظٍ قليلة، لكنه يكون واعيًا بمعانيها، متيقظًا لدلالاتها.

ولهذا فالوصية بالتفاسير المطولة لا غير، فلا مندوحةَ عنها لمن أراد أن يفهم المعاني على وجهٍ تامٍّ أو قريبٍ من التمام، ويمكن اختيار التفاسير ذات العبارة اليسيرة تقليلًا من الحواجز النفسية عن التفاسير المطولة.

وقد سمَّيتُ بعض التفاسير المقترحة في ذلك عند الحديث عن القرآن في مطلب **«أعمدة بناء الإيمان»**، وأعيد هنا التذكير بأنَّ أقربَ التفاسير التي أراها تحقق هذا الغرض **تفسير الوسيط** للشيخين **محمد سيد طنطاوي وأحمد الكومي** عليهما رحمةُ الله.

وهذا التفسير يقع في خمسة عشر مجلدًا، لكنه سهل العبارة، وقد استعرض أمهات التفاسير وأهمها ويسَّر المقصودَ على وجهٍ حسن.

ويقاربه لطلبة العلم **«تفسير الطبري.. تقريبٌ وتهذيب»** للشيخ د. **صلاح الخالدي** رحمه الله، ويقع في سبعة مجلدات من إصدار دار القلم والدار الشامية.

فإن كانت رغبة القارئ في كتبٍ مختصرة على ما مرَّ من الملاحظة.. فأنتخب له واحدًا من هذين التفسيرين:

١- **«المختصر في التفسير»**، ومن حسناته أنه مُرَكَّزُ العبارة، ومبنيٌّ على التفسير بالمأثور، وكُتِب بجهدٍ جماعي، وله عنايةٌ ما بمقاصد السور.

٢- **«المعين في تدبر الكتاب المبين»** للشيخ **مجد مكي** وفقه الله، ومن حسناته أنه تعمَّقَ شيئًا ما في دلالات النص، وله مسحةٌ بلاغيةٌ جيدة.

وهذان التفسيران يعرضان خلاصة المعنى من غير عنايةٍ بالأقوال والتفاصيل.

فإن علت همة القارئ درجة؛ بحيث أمكنه أن يقرأ كتابًا متوسطًا من عدة مجلدات فأنتخب له واحدًا من هذه التفاسير الثلاثة:

١- **«عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير»** للشيخ **أحمد شاكر** رحمه الله، وهو أحسن مختصرات تفسير **ابن كثير**، ويقع في ثلاثة مجلدات.

٢- «**تفسير السعدي**» وهو من التفاسير التي تعرض المعنى بشكلٍ إجمالي، ويقع في أربعة مجلدات في طبعة دار ابن الجوزي، وجاء مضغوطًا في مجلدٍ واحدٍ في طبعة مجلة البيان.

٣- «**صفوة التفاسير**» للشيخ **محمد علي الصابوني** رحمه الله.

فإذا كان القارئ متخصصًا في التفسير أو في العلوم الشرعية، ويريد أن يأخذ بحظٍّ حسنٍ منها.. فلا يخفى أنَّ كُتُبَ التفسيرِ على اتجاهاتٍ مختلفة، وأنَّ التفسير يجري مجرى الفتوح من الله تعالى؛ فقلَّما تجد تفسيرًا إلا وتجد فَتْحَ الله على صاحبه في جانبٍ أو جوانب، والمتخصص يدرك أنه لا يكاد يُغني كتابٌ عن كتاب، والكتب التي حظيت بقبول العلماء كثيرةٌ منها هذه الأربعة:

١- تفسير المحرر الوجيز **لابن عطية**.

٢- تفسير البحر المحيط **لأبي حيان الأندلسي**.

٣- التسهيل لعلوم التنزيل **لابن جُزَي**، وهذا التفسير مليءٌ بالكنوز وقد كُتِبَ على وجهٍ مختصر؛ فإنه يقع في مجلدين فقط.

٤- تفسير ابن كثير، ولأهميته كثرت عناية العلماء بتقريبه واختصاره.

وقائمة التفاسير تطول وتطول وتطول، لكن ثمة أربعة تفاسير لا ينبغي أن تخلو منها مكتبة طالب علم، وما قصدتُّها يومًا إلا وخرجت منها بغنيمة:

١- تفسير الطبري، وهو تفسير بالمأثور وبالرأي، وهو أعظم كتب التفسير على الإطلاق، ويمكن الاكتفاء بتهذيبه للشيخ د. **صلاح الخالدي** رحمه الله مع الرجوع للأصل عند الحاجة.

٢- تفسير الرازي، وهو من أعظم التفاسير العقلية، والقارئ فيه يتجاوز موضوعات الكلام وما لا حاجة إليه، وهو تفسيرٌ حسن الترتيب، وزاخرٌ بالفوائد والدقائق.

٣- تفسير التحرير والتنوير **للطاهر ابن عاشور**، وهو كتابٌ لغويٌّ بلاغيٌّ عظيم، ومن حسناته أنه معتنٍ بفك الإشكاليات التي تتبادر إلى الذهن، حتى لكأنك تشعر أنه يقرأ ما في عقلك من إشكالاتٍ ويجيب عنها على أبلغ وجهٍ.

٤- تفسير الظلال **لسيد قطب**، وهذا معتنٍ بالباب التربوي وتقرير الفكر العقدي،

ومن أعظم حسناته: أنه يُبرِزُ شخصيَّةَ كلِّ سورةٍ على حدة، وأنه يبدأ بالعرض الموضوعي قبل أن يبدأ بتناول الآيات آيةً آية، وأنه يُدخلك جو الحدث حتى لكأنك تعيش بين الصحابة رضي الله عنهم والقرآن يتنزل.

وأنصح أن يكون «**التحرير والتنوير**» هو التفسير المرجعي، وبقية التفاسير في خدمته.

والنصيحة في قراءة الكتب المطولة -سواء كانت في التفسير أو في غيره- أن تتخذ لك في قراءتها منهجًا؛ كأن تتجاوز في القراءة الأولى الخلافات الدقيقة خاصة اللغوية لمن لم يكن معتنيًا بها، فيركز القارئ على أصول المعاني، ثم يكتشف حوائجه العلمية من علوم الآلة كاللغة وأصول الفقه، فإذا عاد يقرأ من جديد كان متسلحًا بالعُدَّةِ التي ينال بها كنوز الكتاب وأسراره، بل ويقدر أن يُنتِجَ منه معرفةً على منوال ما فيه، وفضل الله واسع.

إذن المهم أن تدخل ساحة التفاسير المطولة ولا تتهيب، ولسوف تكتشف أنَّ الكُتُبَ المطولةَ أيسرُ من كثيرٍ من الكتب المختصرة؛ لأنَّها بُنِيَتْ على البسط والبيان، فتكتمل عندك المعاني دون عناء، أما المختصرات فهي تدور في فلك فكِّ العبارة بأوجز لفظ فلا يتحصل منها القارئ على المطلوب.

الفرع الثالث: القراءة

القراءة غذاءُ العقل، وهي سبيل تحصيل الأفكار وتثويرها وتنضيجها، ومن فضلها في سياق الحديث مع المتعبِّد أنَّها تقي من عبادة الله على جهل، فالبصيرة ركنٌ في التعبد، وقد لا يُؤْتَى المتعبد من جهة إخلاله باتِّباع السلف الصالح؛ ولكن من جهة غياب البصيرة في الأخذ عنهم؛ كاختلال الأولويات والخدش بواجب الوقت وغير ذلك.

وقد جاء الجمع بين الاتباع والبصيرة في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨].

وشريعتنا اعتنت بالقراءة من أول يوم في الإسلام حتى إنَّ أول كلمةٍ في التنزيل كانت ﴿ٱقْرَأْ﴾، وصارت هذه الكلمة علمًا على أمَّتنا فتُسمَّى: أمة اقرأ، وذلك في قوله سبحانه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ① خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ② ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ③ ٱلَّذِى عَلَّمَ

﴿بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١ - ٥].

فالقراءة هي أول فرضٍ افترضه الله على هذه الأمة؛ لأنَّ العلمَ مفتاح كل فضيلةٍ وعبادةٍ وقربةٍ ومسار.

ولعلك تلحظ أنَّ الآيةَ الثالثةَ قرنت بين كرم الله تعالى وبين القراءة؛ وكأنَّ هذا إشارةٌ إلى أنَّ فضلَ الله يتنزل على الأمة القارئة الآخذة بأسباب عمران الأرض ولو كانت كافرةً أو عاصية.

ونزلت سورة القلم بعدها مباشرة أو بسورٍ قليلة، وصَدْرُهَا قولُ الله: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١].

فسورة العلق أول السور مُصدَّرةٌ إذن بطلب القراءة عبارةً، وسورة القلم مُصدَّرةٌ بطلب الكتابة إشارةً، والقرآن نفسه أشهر أسمائه: القرآن والكتاب، والاسم الأول يرمز إلى القراءة والثاني إلى الكتابة.

فلا يليق بالمتعبد إذن أن يتكاسل عن القراءة وحمل القلم وهو يرى هذه المنزلة لهما في الشريعة.

وأحرِّضك على القراءة والتفقه في الدين بقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

ووجه التحريض: أنَّ الله تعالى ذكر التفقه بألفاظٍ عسكرية؛ فإنَّ النفيرَ والفرقةَ والإنذارَ والحذرَ من مفردات قاموس المعارك.

وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ المتفقهَ بمنزلة المجاهد في سبيل الله، وأنَّ هذه الأمة يحميها رجلان: فارسٌ بسيفه وعالمٌ بلسانه وقلمه، فإذا كان المجاهد حارس المسلمين بالسيف والسنان.. فإنَّ العالمَ حارسُ الدين بالدليل والبرهان[1].

---

(١) بدائع السلك في طبائع الملك لابن الأزرق ص (٣٦).

وثمة علاقةٌ بين حمل السلاح على الأمة وبين غشها في علمها وفكرها، وقد جمع النبي ﷺ بينهما فقال: «مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا، وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»(١)(٢).

ومن هنا قال الشيخ العالم المجاهد **عبد الله عزام** عليه رحمة الله: **إنَّ خَيرَ رِجَالِ الأمةِ من يَخُطُّونَ تاريخها بخطَّين: خَطٍّ أسود؛ وهو مِدَاد العلماء، وَخطٍّ أحمر؛ وَهُوَ مِدَاد الشهداء، ومَا أَجْمَلَ أن يكونَ الدم والمِدَادُ واحدًا، والرِّيشَةُ واحدة؛ لِتكونَ يَدُ العالمِ التِّي تَبْذِلُ المِدَادَ وتُحَرِّكُ القَلمَ هي اليدَ نفسها التي تبْذِلُ الدِّمَاءَ وَتُحَرِّكُ الأُمَمَ!**

وهذا الذي رجاه **ابن حزم الأندلسي** بأبياتٍ من روائع الشعر بقوله:

مُنَايَ مِنَ الدُّنْيَا علُومٌ أَبُثُّهَا ... وَأَنْشُرُهَا فِي كُلِّ بَادٍ وَحَاضِرِ

دُعَاءٌ إِلَى القُرْآنِ وَالسُّنَنِ الَّتِي ... تَنَاسَى رِجَالٌ ذِكْرُهَا فِي المَحَاضِرِ

وَأَلْزمُ أَطرَافَ الثُّغُورِ مُجَاهِدًا ... إِذَا هَيْعَةٌ ثَارَتْ فَأَوَّلُ نَافِرِ

لأَلْقَى حِمَامِي مُقْبِلاً غَيْرَ مُدْبِرٍ ... بِسُمْرِ العَوَالِي وَالرِّقَاقِ البَوَاتِرِ

كِفَاحًا مَعَ الكُفَّارِ فِي حَوْمَةِ الوَغَى ... وَأَكْرَمُ مَوْتٍ لِلْفتَى قَتْلُ كَافِرِ

فَيَا رَبِّ لاَ تَجْعَلْ حِمَامِي بِغَيْرِهَا ... وَلاَ تَجْعَلَنِّي مِنْ قَطِينِ المَقَابِرِ(٣)

أما إذا ذكرت أنك تجد ثقلًا في القراءة، وأنك أسرع ما تكون إلى النوم إذا أخذت في قراءةِ كتاب.. فهذا معلومٌ لمن أخذ يَدْرُج، ولكن حين يمضي عليك أسبوعان أو ثلاثة من الانتظام في وردٍ علميٍّ يوميٍّ يصبح أشق شيءٍ عليك أن تترك القراءة.

فالدواء قد يكون من جنس الداء؛ فمن كان يجد ضيقًا إذا قرأ فعلاجه أن يصابر نفسه على طاولة القراءة، ويقرأ الكتب التي تُثَوِّر الأفكار بحيث تجذبه إليها جذبًا شديدًا يعسر معه أن يترك هذا السبيل العظيم في تحصيل العلم والإيمان.

---

(١) صحيح مسلم، رقم الحديث: (٢٩٤).
(٢) سلسلة الثقافة لمحمد محمد أبو موسى، الحلقة (٣)، والسلسلة حوارية وهي منشورةٌ على الانترنت.
(٣) الأخلاق والسير لابن حزم الأندلسي ص (١٧).

هـذا فضـلًا عـما تُكَوِّنُهُ القراءةُ من عقلٍ يستطيع إدارة الذات في مختلف الجبهات، فتكون أكثر قـدرةً على إدارة علاقتك بأهلك وأرحامك وإخوانك وعملك ورسـالتك خارج البيت مـن دعـوةٍ وعلـمٍ وجهـادٍ وغير ذلـك، وتسـتطيع أن تتجـاوز العقبـات وتحل المشـكلات على قاعـدة الحكمة بشـكلٍ سـهلٍ بتوفيق الله.

ومن الكتب التي أرشحها لك لتجعلها بداية الرحلة:

كتـب الشـيخ **إبراهيـم السـكران** فـرَّج الله كربـه مثـل كتـاب: مسـلكيات، والطريـق إلى القـرآن، والماجريـات، وسـلطة الثقافـة الغالبـة.

ثـم تقـرأ كتاب فقه الاسـتدراك لكاتب هذه السـطور، وكتـاب الخطة البراقـة لذي النفس التواقة للدكتـور **صلاح الخالدي** رحمه الله.

وهذان الكتابان تقرؤهما قراءة تدوين وعمل بحيث تخرج منهما ببرنامجٍ عمليٍّ.

ثـم تقـرأ كتـاب النبـأ العظيـم للدكتـور **محمـد عبـد الله دراز**، وكتـاب مـاذا خسـر العـالم بانحطـاط المسـلمين **لأبي الحسـن النـدوي**.

والوجبة الأخيرة المقترحة هنا تقرأ فيها الكتب الأربعة الآتية:

١. صيد الخاطر لابن الجوزي.
٢. شبهات حول الإسلام للأستاذ محمد قطب.
٣. هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس للدكتور ماجد عرسان الكيلاني.
٤. الفصل بين النفس والعقل للشيخ **عبد العزيز الطريفي** فرَّج الله كربه.

وأثنـاء قـراءة هـذه الكتـب تُـدَوِّنُ مـا يعجبـك مـن الأفـكار والأقـوال في دفـترٍ خـاص مع عـزو مـا تلتقطـه منهـا إلى الكتـاب الـذي أُخِـذ منـه ورقـم الصفحـة.

أمـا مـا يكـون بعـد ذلـك مـن الكتـب المقترحـة فقـد دوَّنتـه في كتـاب «**معـارج العلـوم**» في الحقائـب التمهيديـة والتأسيسـية، فضـلًا عـن المعـراج العلمـي الخـاص بـكلِّ علـم، فتأخـذ مـا تحتاجـه مـن ذلـك، والله يكرمـك ويرعـاك ويتـولاك.

الفرع الرابع: محاسبة النفس

إنَّ الإنسانَ محاطٌ بما يثيرُ الشبهات والشهوات، وفيه ميلٌ إلى الراحة، ثم إنَّه ملتصقٌ بالذنب لا ينفكَّ عنه، وهذا كله يدفعه لمحاسبة نفسه؛ من أجل أن يرى خطأه وصوابه، وتقدُّمَه وتأخره، وأين ينبغي أن يزيد وأين ينبغي أن يُحجم؟.

فالمحاسبةُ عمليةُ تربيةٍ وتهذيبٍ، وهي قسمان:

محاسبةٌ قبل العمل، فلا يُبادرُ إلى عملٍ حتى يتبيَّنَ له حكمه، ورجحانه على غيره.

ومحاسبةٌ بعد العمل، فينظر لأمر الإخلاص فيه، وإيقاعه على الوجه المطلوب، ومن ثم يعالج مواطن الخلل فيه، ولو كان من المباحات ربَّى نفسه على استحضار النية الصالحة فيه وعدم الإسراف فيه.

وطريقةُ المحاسبة لها عدة جوانب لعلَّ أهمَّها تمييزُ النعمةِ من الفتنة؛ فيميز بين النعمة التي أكرمه الله بها، والفتنة التي يكون مستدرجًا من خلالها، ويُميز كذلك بين النعمة والحجة، فكم تلتبس إحداهما بالأخرى!

فمثلًا:

كلُّ علمٍ صحبه عملٌ يُرضي الله سبحانه فهو منةٌ عليه وإلا.. فهو حجة.

وكلُّ مالٍ اقترن به إنفاقٌ في سبيل الله وطاعته فهو منة وإلا.. فهو حجة.

وكل فراغ اقترن به اشتغال بمراد الرب وما لا يخالف أمره فهو منةٌ عليه وإلا.. فهو حجة.

وكل قبولٍ في الناس وتعظيمٌ ومحبةٌ له اتصل به خضوعٌ للرب وذلٌّ له وانكسارٌ بين يديه ومعرفةٌ بعيب النفس فهو منةٌ عليه وإلا.. فهو حجة.

وعلى هذا فقس[(١)][(٢)].

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ١٧٠-١٧٦).

(٢) أجملت القول هنا في مادة المحاسبة طلبًا للإيجاز، وبسطت القول في ذلك في كتاب «**دليل المعتكف**» فانظره إن شئت.

فالمحاسبة -كما ترى- تحتاج لإعمالِ عقلٍ وكدِّ ذهن، هذا فضلًا عن تعدد المسارات من مكابدة طاعةٍ وترك معصيةٍ، والطاعةُ علمٌ وتعبدٌ ودعوةٌ وأخلاق وسلوك، والتعبد منه عمل الجوارح وعمل القلوب.

والقيام بالمطلوب إزاء هذا كله مما يحتاج لجلساتٍ هادئةٍ يتولى فيها الإنسان تقويمَ نفسه ومعالجة أدوائها وعيوبها، والتربية عادةً لا تحصل في ضجيج.

ثم إنَّ المتعبدَ يحتاج إلى طلب العلم في بعض المساحات التي تواجهه أو السؤال عنها، بالإضافة لإصغائه لتربية المربين ونصح الناصحين ولو كانوا من الخصوم أو المخالفين.

ومن حاسب نفسه في الدنيا هُوِّن عليه الحساب في الآخرة، أسأل الله أن يدخلني وإياك الجنة بغير حسابٍ ولا عقابٍ ولا عذابٍ ولا عتاب.

الفرع الخامس: التفكر

تقدَّم أنَّ التفكرَ أحدُ أعمدةِ بناء الإيمان، وقد سبق الحديث عنه والتحريض عليه وبيان مجالاته في مطلب **«أعمدة بناء الإيمان»** بما يغني عن إعادة ما تسطَّر هناك هنا.

وقد ذكرت هناك تسعةَ مجالاتٍ للتفكر، وأضيف هنا عاشرًا؛ وهو تدبير أمر الشخصية وما يقع في نطاق عنايتها سواء على صعيد النفس أو الأهل أو المجتمع أو البلد وما هو أوسع من ذلك.

خذ هذه العناوين التي يحتاج الإنسان لجلساتٍ هادئةٍ يُعمل فيها عقله لإنجازها:

أ- ترتيب الخطة الشخصية بما تشمله من نواحٍ علميةٍ وتعبديةٍ واجتماعيةٍ وماليةٍ وصحيةٍ وترفيهية وغير ذلك.

ب- تكوين الحوائج الأساسية للذات من مثل البيت والزواج والعمل الوظيفي.

ت- متابعة ما يعرض من حوائج وأزمات من مثل المرض والدَّيْن والمشاكل الأسرية والاجتماعية.

ث- سبل التعايش مع أفراد الأسرة باختلاف أذواقهم وآرائهم وتعاملهم وطرائق تفكيرهم.

ج- تربية الأبناء وتنميتهم ومعالجة الصفات الردية فيهم.

ح- التفكير في مسار الدراسة بمختلف درجاتها وحسن التعامل مع التخصص الجامعي بدءًا من اختياره مرورًا بضبطه وانتهاءً بالتقدم فيه حدَّ الإمامة، وما يلزم لذلك من أمور.

خ- التفكر في أحوال الناس وهمومهم ومشاكلهم والسبيل في المشاركة بسهمٍ في علاج ما تقدر عليه من ذلك، سواء كنت داعيةً على المنبر أو متحركًا بين الناس في المجتمع بين أصدقائك ومعارفك.

د- فلو كنت محفظًا أو مربيًا أو داعيةً مثلًا فإنك تفكر: كيف تُحفِّظ أبناء المسلمين القرآن الكريم؟ وكيف تحصن الجيل من غبار الشبهات وسعار الشهوات؟ وكيف تَبُثُّ الوعي بأنوار الوحي؟

وهذا وغيره مما لا يكاد يُحصى يحتاج إلى إعمالِ عقلٍ وكدِّ ذهنٍ على النحو الذي تراه في وُرَشِ العمل التي تتولى البحث في موضوعٍ محددٍ أو أشد من ذلك.

وعناء العقل في ذلك أشد من عناء البدن إذا عمل وتعب، بل ربما جاع الذي يُفكِّر من أثر العبادات العقلية ما لا يشعر بمثله في إثر الأعمال البدنية، وأشار الأمام الغزالي إلى ذلك بقوله: «وتَجَشُّمُ القلب بالفكر لا يتقاعد عن تَجَشُّمِ البدن بالعبادات»[1].

ونطاق التفكير قد لا يقف عند حد، وهذا يجعل الأعمال العقلية لا تقل أحيانًا عن الأعمال البدنية.

والشخصية بما تسطِّر بمثابة المؤسسة التي تتعدد مساراتها وتكثر ملفاتها، لكن الشخصية مؤسسةٌ متحركة، ولو رحت تفتح مسارًا من حياتك وأمسكت القلم وأخذت تدوِّن كلَّ ما يتعلق به.. فالظنُّ أنك تجد أرشيفًا ضخمًا يحتاج لمتابعةٍ وتدبيرٍ وسياسة.

وهذا يُحتِّم عليك -فيما لو كنت طموحًا ذا همٍّ وهمَّةٍ ورسالة- أن تجعل الخلوة لأجل التفكر في هذه المساحات وردًا ثابتًا في حياتك، وأن تكون حَسَنَ التخطيطِ الإداري، وهو ما تناولت بيان طريقته حدَّ التفصيل في كتاب «فقه الاستدراك» فانظره إن شئت.

(١) المستصفى ص (٢٨٣).

والمقصود أن يكون المتعبد مرتَّبَ الشخصية، بعيدًا عن التشتت والتشويش والعشوائية، منظَّمًا في أمر دينه ودنياه.

وإني لأسأل الله رب العالمين أن يفتح لك من خزائن فضله فتحًا لا إغلاق بعده، وأن يجمع فيك من الفضائل ما تفرَّق في غيرك من الأفاضل، وأن يتولى أمرك ويبارك عملك ويتقبل منك، إنه سبحانه رؤوفٌ رحيمٌ كريمٌ وهاب.



المطلب الخامس

الأعمال القلبية

يتناول هذا المطلب الأعمال القلبية، وهي الأعمال التي محلُّها القلب، وتقدَّم الحديث عن مركزيتها في مطلب: «**الأصول التربوية**»، وذلك في الأصل الثاني من الأصول الكلية للتعبد والعمل، ومتنه:

«مدارُ العملِ على القلب، ولهذا فأعمال القلوب أصل، وهي من الإيمان، والناس متفاضلون فيها، وهي أفرض من عمل الجوارح لكن لا تتم إلا بها، وأعمال القلوب المجردة أفضل من أعمال الجوارح المجردة».

ودليل ذلك: ما روى **مسلمٌ** في صحيحه عن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ؛ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»**[1].

وما روى الشيخان عن **النعمان بن بشير** رضي الله عنه أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«.. أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»**[2].

والأعمال القلبية كثيرة ولعلَّ أهمها: الإخلاص واليقين والتفكر والخشوع والمراقبة والورع والتوكل والمحبة والرجاء والخوف والخضوع والتعظيم والحياء والغيرة والتوبة والصبر والرضا والشكر.

وقد تقدَّم الحديثُ عن بعضها إما مستقلًّا أو تبعًا، وأتكلم هنا عن جزءٍ منها يدلُّ على غيره بطرحٍ موجزٍ؛ وذلك أنِّي بنيتُ هذا الكتابَ على الاختصارِ ليكون قريبَ التناول، والأعمالُ القلبيَّةُ تحتاجُ إلى كتبٍ مفردة، تتناولُ الكلامَ عن كلِّ عملٍ قلبيٍّ وأدلتِهِ وفقهِهِ وثمراته وتطبيقاته وطرق التحلي به، وطرفٍ من أخبارِ أهله وأربابه لمصلحة التحريض عليه.

---

(١) صحيح مسلم، رقم الحديث: (٦٧٠٨).

(٢) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٥٢)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٤١٧٨).

وهذا وغيره مما لا يتسع له المقام في مثل هذا الكتاب المبني على الاختصار، ولكني أقوم هنا بمهمة التنظير، وأحيل على عددٍ من الكتب المفردة في الأعمال القلبية أو التي أحسنت العناية بها لمن أراد أن يقوم بواجب الباب، وهي كما يلي:

١- «التحفة العراقية في الأعمال القلبية» لشيخ الإسلام **ابن تيمية**.

٢- «مدارج السالكين» **لابن القيم**، وقد اعتنى بأعمال القلوب كذلك في كتابيه: «الوابل الصيب» و «الداء والدواء».

٣- «المهذب من إحياء علوم الدين» للشيخ **صالح الشامي** فرَّج الله كربه، ويقع في مجلدين من إصدار دار القلم، ففيه مادةٌ متناثرةٌ جيدةٌ تتعلق بأعمال القلوب.

٤- «أعمال القلوب» للشيخ **خالد السبت** وفقه الله، وهو يقع في مجلدين من طباعة دار ابن الجوزي، وأصله دروسٌ ألقيت ثم فرِّغت وحُرِّرت تحرير الكتب.

وهذا الكتاب أوسع الكتب المفردة التي وقفت عليها في العناية بأعمال القلوب، وقد أطال مؤلفه النَّفس في الكلام عن كل عمل أحسن الله إليه وجزاه خيرًا.

وآن الآن أوانُ الشروعِ في المقصود، فأبدأ على بركة الله جاعلًا كلَّ عملٍ قلبيٍّ في فرعٍ مستقل، وعِدَّةُ الأعمالِ التي أتناولها سبعة كما يلي:

الفرع الأول: الإخلاص

عرَّف **ابن القيم** الإخلاص بأنَّه تصفيةُ العمل من كلِّ شائبة.

ثم بيَّن هذا المعنى بقوله: أي لا يمازج عمله ما يشوبه من شوائب إرادات النفس؛ إما طلب التزين في قلوب الخلق، وإما طلب مدحهم والهرب من ذمهم، أو طلب تعظيمهم أو طلب أموالهم أو خدمتهم ومحبتهم وقضائهم حوائجه أو طلب محبتهم له أو غير ذلك من العلل والشوائب التي عَقْدُ متفرقاتها: إرادة ما سوى الله بعمله كائنًا ما كان[1].

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٩٢).

وهو من أشدِّ الأعمال التي تحتاج إلى تربيةٍ ومعالجة؛ لأنَّ النفس مجبولةٌ على حبِّ الثناء والموافقة، والإخلاص لا يساير هواها.

ويدلك على شراسة النفس في طلب المدح وخطر غياب الإخلاص: ما حدَّثنا به النبيُّ ﷺ عن رجلٍ دخل المعركة وقاتل واستبسل حتى جاد بنفسه التي هي أغلى ما عنده في الدنيا؛ وذلك من أجل كلمةٍ واحدةٍ من الثناء بأن يُقال: «إنه جريء»، ثم آل به الأمر يوم القيامة ليكون أحد الثلاثة الذين هم أول من تُسَعَّرُ بهم النار يوم القيامة!

روى **النسائي والترمذي** عن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أَوَّلُ النَّاسِ يُقْضَى لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ:**

رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ: «فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا»؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: «كَذَبْتَ»؛ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِيُقَالَ: فُلَانٌ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ.

وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ: «فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟» قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ قَالَ: «كَذَبْتَ»؛ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ.

وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا فَقَالَ: «مَا عَمِلْتَ فِيهَا؟» قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ قَالَ: «كَذَبْتَ»؛ وَلَكِنْ لِيُقَالَ: إِنَّهُ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ فَأُلْقِيَ فِي النَّارِ»[1] صححه الألباني.

والعجيب في المقاتل أنه رضي أن يُقتل في سبيل كلمة الثناء وهو لن يسمعها في حياته؛ فإنَّها تُقال بعد مقتله، لكنه تلذذ في حياته بظنِّ قولها بعد مماته، وربما لم يقلها الناس، بل ربما قالوا: فلانٌ متهور، وهذا كله يدفع لتربية النفس والتحكم بها.

---

(١) سنن الترمذي، رقم الحديث: (٢٣٨١)، سنن النسائي، رقم الحديث: (٣١٣٧).

ومن النصائح في ذلك هذه الثلاث:

أولًا: أن يستحضر الإنسان أنَّ الله طيبٌ لا يقبل إلا طيبًا، وأنه عدلٌ إذ لم يقبل الشرك والرياء؛ فلو أنَّ عاملًا صرف العمل لغير من تعاقد معه فلن يؤجر من الأول كما أنَّه لن ينتفع بثناء الثاني.

وكذلك العبد حين يصرف العمل لغير الله؛ فإنَّه يخسر ثواب الله ولا ينتفع بثناء الناس، ويزيد الطين بلة أنه يعرض عمله للحبوط بما يفضي به إلى العقاب يوم القيامة، أسأل الله لي ولك النجاة والسلامة.

ثانيًا: أن تجعل عملك في السر أكثر من عملك في العلانية، فلو افترضنا حبوط ما ظهر.. فينجيك ما بطن بإذنه سبحانه.

وفي هذا يقول الإمام **مالك**: **«من أحب أن يفتح له فرجة في قلبه وينجو من غمرات الموت وأهوال يوم القيامة.. فليكن في عمله في السر أكثر منه في العلانية»**[(١)].

وهذا ضابطٌ نفيس.

ويُشعِرُ به قول النبيِّ ﷺ: **«من استطاع منكم أن يكون له خِبْءٌ من عملٍ صالح فَلْيَفْعل»**[(٢)] صححه الألباني.

ويمكن أن نلتقط تحريض الشريعة على الإخلاص حين نرى أنَّ أجر الصلاة التي لا يطَّلع عليها الناس يضاهي أجر صلاة الجماعة في المسجد؛ جاء عند **البوصيري** عَنْ **صُهَيْبٍ** رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«صَلاَةُ الرَّجُلِ تَطَوُّعًا حَيْثُ لاَ يَرَاهُ النَّاسُ تَعْدِلُ صَلاَتَه عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ خَمْسًا وَعِشْرِينَ درجة»**[(٣)] صححه الألباني.

فالعمل الخفي من أعمال السر يعد بمثابة حبل النجاة للمتعبد، فيجتهد فيه، وليس خاصًّا بأعمالٍ محددة؛ **فكلُّ عملٍ يمكن أن تفعله بعيدًا عن أعين الناس فهو عبادة سر**، من

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض (١/ ٥٤).
(٢) جامع الأحاديث، رقم الحديث: (٤٥٦٨٣).
(٣) إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، رقم الحديث: (١٦٤٨).

صلاةٍ أو تسبيحٍ أو صدقةٍ أو تلاوةٍ أو غير ذلك.

ثالثًا: إذا سمعت من يثني عليك.. فحرِّك شفتيك بدعاء **الصديق** رضي الله عنه حيث كان يقول إذا مُدِح: «**اللهم أنت أعلم مني بنفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلني خيرًا مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون**».

وروى **البخاري** في الأدب المفرد عن **عدي بن أرطأة** قال: كان الرجل من أصحاب النبي ﷺ إذا زُكِّيَ قال: «**اللهمَّ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ، وَاغْفِرْ لِي مَا لاَ يَعْلَمُونَ**»(١) صححه الألباني.

الفرع الثاني: الرجاء

الرجاء هو الطمع في رحمة الله وتَرَتُّبُ آثارِها من الخير المُعجَّلِ في الدنيا والأجر المُدَّخر في الآخرة.

فالرَّجاءُ عبادةٌ قلبيَّةٌ تبعث على العمل والجد والنشاط والبذل، وتُبقِي بابَ الأمل مفتوحًا لا يُغلَق، ولولا الرجاء لنزل اليأس بالقلوب وعمَّ الإحباط وترك الناس العمل.

وهذا ما صرَّح به **ابن القيم** بقوله: ولولا روحُ الرَّجاء لعُطِّلت عبودية القلب والجوارح، وهُدِّمت صوامع وبِيَعٌ وصلوات ومساجد يُذكر فيها اسم الله كثيرًا، بل لولا روح الرجاء لما تحركت الجوارح بالطاعة، ولولا ريحه الطيبة لما جرت سفن الأعمال في بحر الإرادات.

إلى أن قال: فالرجاء ضروريٌّ للسالك، ولو أنَّه فارقه لحظةً لتلف أو كاد؛ فإنَّه دائرٌ بين ذنبٍ يرجو غفرانه، وعيبٍ يرجو إصلاحه، وعملٍ صالحٍ يرجو قبوله، واستقامةٍ يرجو حصولها ودوامها، وقربٍ من الله ومنزلةٍ عنده يرجو وصوله إليها(٢).

ويدل على فرط الحاجة إليه وفرةُ النصوص التي تقرره وتدل عليه:

فنجد القرآن يُسكِّن النفوس بأنَّ الأعمال لا تضيع؛ كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]، وقوله سبحانه: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

---

(١) الأدب المفرد، رقم الأثر: (٧٦١).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٤٢-٤٣).

ويعلن بوضوح أنَّ باب المغفرة والرحمة مفتوحٌ؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وإذا فتحت المصحف فأول آيةٍ تواجهك فيه: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١].

وإذا كانت شاكلة العبد هي العصيان.. فإنَّ شاكلة الرب هي الغفران، والله تعالى يقول: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤].

وهذه هي الآية التي عدَّها **أبو بكر الصديق** رضي الله عنه أرجى آيةٍ في كتاب الله[١]، وقال: «لا يشاكل بالعبد إلا العصيان ولا يشاكل بالربِّ إلا الغفران»[٢].

والرجاء يقطع الطريق على الشيطان الذي يريد أن يغرز في قلب العاصي أنَّه بعيدٌ عن رحمة الله، وأنَّ تكرر الذنب منه يُفقده فرصة توبة الله عليه، ويتسلل من هذه الثغرة إلى إنزال معاني اليأس والقنوط وعدم قبول العمل به.

ولهذا من **فقه التعامل مع الذنب** أن تبقى على تفعيلٍ جيدٍ لقطار الحسنات حتى لو استمرَّ قطار السيئات، بمعنى أنك تصنع لنفسك مسارًا ثابتًا للطاعة لا يتأثر بوقوعك في الذنب.

وأما أنَّ الذنب يأتي بمثله والسيئة تقول: أُختي أختي.. فليس بأمرٍ لازم، بل يمكن قطع النزيف الآثم بالحسنات الماحية، وهذه وصيةُ النبيِّ ﷺ إذ قال بلفظٍ واضحٍ بيِّنٍ يحمل البشرى: «**وأتبعِ السَّيِّئةَ الحَسَنةَ تمحُها**»[٣].

وهذا تأويل قول الله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤][٤].

ولا ذنب يقف في وجه رحمة الله وعفوه وكرمه وفضله.

---

(١) لي مقالٌ منشور عنوانه: «**أرجى آيةٍ في القرآن**» ذكرت فيه ثلاث عشرة آية قيل عنها إنهَّا أرجى آيةٍ في القرآن، مع بيان وجه قول صاحبها القائل بها، وهي تمثل تُحفةً في دقة النظر وحسن التفاعل مع كتاب الله تعالى.

(٢) تفسير الألوسي (١١/ ٧١).

(٣) سنن الترمذي، رقم الحديث: (١٩٨٧). وقد حسنه الألباني.

(٤) بسطت القول في «**فقه التعامل مع الذنب**» في كتاب «**تحصيل المرام في علاج مشكلة الشهوات والنظر الحرام**»، وذكرت هناك ستة معالم، وما ذكرته هنا هو خلاصة المعلم الثاني.

وما دمت تعمل وتجاهد نفسك وأنت صادق مع ربِّك في هذا، من غير أن يكون عندك استهانة بالمعصية.. فأبشر برحمته سبحانه فإنَّه القائل: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

إنَّ هذا الرب الرحيم هو الذي غفر لامرأة بغيٍّ بسقاية كلبٍ شربة ماء، ولرجل بإماطة غصن شوكٍ عن الطريق، ولمن قتل مائة نفس ثم قرر أن يتوب، فاقصد باب الله ولا تيأس، فإنَّه القائل سبحانه: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

لكن الرجاء لا يتم إلا مع ما يقابله من الخوف والخشية من الله سبحانه؛ ليكون العبد على حالٍ من القصد والاعتدال في سيره إلى ربِّه ومولاه، دون أن يغلب عليه الرجاء فيطول أمله ويسوء عمله، أو يطغى عليه الخوف فيقنط وييأس من روح الله(١).

وهذا ما نبَّه عليه **الحافظ ابن حجر** بقوله في جمع الرجاء مع الخوف: لا يقطع النظر في الرجاء عن الخوف ولا في الخوف عن الرجاء؛ لئلا يُفضي إلى المكر في الأول وإلى القنوط في الثاني، وكلٌّ منهما مذموم.

ثم بَيَّنَ المفهومَ القويمَ للرجاء الذي لا يُبقِي لذوي الرغبات الفاسدة سبيلًا فقال: «**والمقصود من الرجاء أنَّ من وقع منه تقصيرٌ فليحسن ظنَّه بالله ويرجو أن يمحو عنه ذنبه، وكذا من وقع منه طاعةٌ يرجو قبولها، وأما من انهمك في المعصية راجيًا عدم المؤاخذة بغير ندمٍ ولا إقلاعٍ.. فهذا في غرور**»(٢).

ولأجل ذلك نرى اقتران الخوف بالرجاء في عديدٍ من المواضع في القرآن كما في قوله سبحانه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩].

(١) أعمال القلوب لخالد السبت (٢/ ٥٤).
(٢) فتح الباري لابن حجر (١١/ ٣٠١).

وقوله سبحانه:

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

الفرع الثالث: الخوف

عَلِمتَ أنَّ الخوفَ يصنع التوازن بضمِّه للرجاء، فإذا كان الله قد غفر لامرأة بغيٍّ بسقاية كلب شربة ماء فإنَّ امرأة دخلت النار في هرة حبستها حتى ماتت جوعًا لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض.

فنصوص الرجاء يقابلها نصوص الخوف، ولن يذهب الخوف حتى تضع قدميك في الجنة بإذن الله تعالى وفضله، لكنه الخوف الذي يدفع للعمل، ولذا تَذَكَّرَهُ أهلُ الجنَّةِ كما أخبرنا الله عنهم بقوله: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٦، ٢٧].

وكيف يمكن للإنسان أن يأمن وهو يقرأ الآيات التي تجعله خائفًا وَجِلًا لا يدري ما يصنع الله به! خذ هذه القبضة من الآيات:

قال سبحانه: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

وقال سبحانه: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وقال سبحانه:

﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

وكيف لنا أن نأمن ونحن نرى كثرةَ من تقلَّب وانتكس وارتكس!

كيف لنا أن نأمن ونحن نرى أن أبانا آدم عليه السلام عوقب لما عصى الله بالأكل من الشجرة برزمةٍ من العقوباتٍ؛ فقد كُشِفت عورتُه، وأُخرِج من الجنة، وفُرِّق بينه وبين حواء في موضع الهبوط، وكان نزوله لدار الشقاء، وجُعِلت الدنيا سجنًا له ولذريته، وسُلِّط الشيطان عليه وعليهم، وجعل الله بعضهم لبعضٍ عدوًّا، وقُرِن

اسمُه بوصف المعصية في قوله سبحانه: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]، وعوتب عتابًا شديدًا على النفس، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [الأعراف: ٢٢][1]!

والقصد من الخوف ليس ذات الخوف؛ وإنما الإقبال على العمل كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧، ٦١].

وذلك أنَّ الوَجِلَ الخائف كلما عمل عملًا خشي ألا يقبل منه، وربما كانت نجاته من النار واستحقاق درجته في الجنة في العمل الذي لم يعمله بعد، فيبقى في مسارعةٍ في العمل حتى يلقى الله على ذلك.

ولهذا لا يجوز تغليب مقام الخوف عند الموت، فليس عندئذٍ إلا الرجاء وحسن الظن بالله؛ لأنَّ الخوف غيرُ مقصودٍ في نفسه؛ وإنما يُراد لما يثمره من العمل، فإذا جاء الموت انقطع العمل، فيغلب الرجاء.

وأرشد النبيُّ ﷺ إلى ذلك؛ روى **مسلمٌ** عَنْ **جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله الأَنْصَارِيِّ** رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ يَقُولُ: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِالله عَزَّ وَجَلَّ**»[2].

والخوف في الدنيا ثمن الأمن في الآخرة؛ روى **الطبراني** عن **شداد بن أوس** رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلالِي لا أَجْمَعُ لِعَبْدِي أَبَدًا أَمْنَينِ وَلا خَوفَينِ إِنْ هو أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَومَ أَجْمَعُ فِيهِ عِبَادِي، وَإِن هُوَ خَافَنِي فِي الدُّنيا أَمَّنْتُهُ يَوم أَجْمَعُ فِيهِ عِبَادِي**»[3] حسنه الألباني.

---

(١) قصص القرآن لسعد يوسف أبو عزيز ص (٢٤-٢٥).
(٢) صحيح مسلم، رقم الحديث: (٧٤١٢).
(٣) مسند الشاميين للطبراني، رقم الحديث: (٣٤٩٥).

وهذا ما جاء واضحًا في كلام أهل الجنة كما تقدَّم آنفًا.

والروحُ بمجرد أن تفارق الجسد فإنَّ البُشْرَى بالأمان تَحِل، وهذا ما كشفه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

وعقب الذي تقرر تدرك أنَّ المؤمنَ يُحَلِّقُ بجناحي الخوف والرجاء، فكلاهما يعتدل بالآخر، وبعض الآيات تُبرز هذا المعنى كما في قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، وقوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠].

والرجاء والخوف كلاهما كالدواء يُوضع في موضعه وبالقدر المُحتاج إليه؛ فالذي تعاظم عنده طول الأمل ورتع في المعصية أو دروب الغفلة.. فإنَّ دواءَه في الخوف؛ إذ الرجاء يصير جسرًا له للمعصية لا للتوبة، أما الذي أسرف على نفسه بالمعاصي حتى ظنَّ أنه هالكٌ لا محالة، وأنَّه لا توبة له فإنَّ دواءه في الرجاء؛ إذ الخوف يصير جسرًا له لليأس والإحباط لا للعمل، بل ربما ترك العمل لما أصابه من يأسٍ وقنوط.

وضابط ذلك وما دار في فلكه: **ألا تقنط من رحمة الله وألا تتجرأ على محارم الله**، فما دمت سالمًا من هذين.. فأنت بخيرٍ وعافيةٍ وفضل، والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم.

الفرع الرابع: الحياء

يُعرَّفُ الحياءُ بأنَّه: انقباضُ النَّفسِ من شيءٍ وتركُهُ حذرًا من اللوم فيه[1].

فهو عملٌ قلبيٌّ يحمل صاحبه على فعل المحاسن وترك القبائح، وما هو مظنة أن يُعاب به ويذم، فالحياء بهذا هو كسوة الإيمان وجماله وبهاؤه، فهو الذي يتحكم في صورة التصرفات من الأفعال والأقوال بحيث تقع على أحسن المواقع.

(١) التعريفات للجرجاني ص (١٢٦).

والحياء من الله تعالى يدفع الإنسان لطلب الكمالات، بحيث يصبح المتعبد ذا حساسيةٍ من أيِّ تقصيرٍ أو نزولٍ عن مرتبةِ الإحسان.

فتجد العبد الحَيِيَّ يستحيي من الله تعالى إذا أعطاه مالًا ألا ينفق منه، وإذا رزقه طعامًا ألا يطعم منه أهله وجيرانه ومن ينظر إليه.

وإذا منحه عافيةً في بدنه يستحيي أن يُصبح عليه الصبح دون حظٍّ من صلاة الليل، أو أن يمضي عليه الشهر دون أن يصوم ما تيسَّر له إذا كان مطيقًا له.

وإذا أسكنه الله أرض الثغور يستحيي من الله ألا يجاهد ويرابط ويكون سيفًا على أعداء الله.

وإذا أعطاه الله جوارح سليمة يستحيي من الله أن يراه يسمع الحرام أو يبصر الحرام أو يسب أحدًا بلسانه أو يهينه أو يزدريه أو يغتابه أو يشهد زورًا.

وإذا يسَّر الله له خلوةً استحيى من الله أن ينتهك فيها حرمةً له، بل استثمرها في عبادة السر ومناجاة الرب سبحانه.

وإذا سهَّل الله له طريقًا إلى العلم استحيى من الله ألا يتعلم ويضبط العلم ويعمل به، وألا يدافع به عن دينه ويرد المعتدين الذين يذيعون الشبهات ويشيعون الشهوات.

وإذا أعطاه الله قوةً وولايةً يستحيي من الله أن يظلم أحدًا أو يهين زوجةً أو ولدًا أو جنديًّا عنده أو موظفًا.

وإذا فتح الله له بابَ خيرٍ استحيى ألا يدخل منه وألا يُرِيَ الله منه خيرًا إذا لم يكن ثمة مانع معتبر.

وبالجملة؛ فإنَّ الحياء عملٌ قلبيٌّ فعَّال في حمل النفس على المروءة والكمالات، وتوقي السيئات، والاستكثار من الحسنات.

وقد بلغ هذا الخلق **بالفضيل بن عياض** أن يقول حين كان واقفًا بعرفة: واسوأتاه منك وإن غفرت![1]؛ وذلك بتحققه بعلم الله فيه ونظره إليه.

---

(١) عيوب النفس لمحمد السلمي ص (٩).

ومن ثمرة هذا العمل: أنَّ صاحبه معافىً من كثيرٍ من الأدواء التي يعاني منها أهل الزمان.

فالعبدُ الحييُّ يستحيي من الله أن يسخط أو يضجر بسبب ما ينزل عليه من البلاء وهو يعلم أنَّ الله هو أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين سبحانه لا إله إلا هو، فكيف لو كان يغدق على عبده بألوان العطاء والنعم التي لا تعد ولا تحصى!

ولو رحت تقول للعبد الحيي: هل أنت راضٍ عن الله؟ فلربما انتفض من سؤالك هذا، وقال: أنا! أنا العبد الفقير الكسير المقيم على الذنب والتقصير أرضى عن الله!، وكأنَّ هناك احتمالًا لجوابٍ آخر، أعوذ بالله!

إنَّ العبدَ الحَيِيَّ يستحيي أن يراه الله لاعبًا، يُقَصِّرُ في ورده من القرآن، وفي تبكيره إلى الصلاة، وفي صلاته للضحى وفي موقعه من قيام الليل ومواطن الثغور.

إنَّ العبدَ الحَيِيَّ يستحيي أن يراه الله يكثر من النظر في الهاتف ثم هو مُقِلٌّ من النظر في المصحف، لا يحسن التلاوة ولا يحفظ حظًّا جيدًا من كتاب ربه سبحانه.

فاللهم أكرمني وإخواني القراء بخلق الحياء، واجعلنا جميعًا من الصلحاء الأتقياء الأنقياء، سبحانك لك الملك ولك الحمد وأنت على كلِّ شيءٍ قدير.

الفرع الخامس: المحبة والشوق

تُعرَّفُ المحبةُ بأنَّها: ميلُ القلبِ إلى المحبوب، وهذا يقتضي إيثاره وتقديمه على غيره.

ومحبةُ الله لا تخرج عن ذلك؛ فهي ميلُ القلب إليه، وهذا يقتضي إيثار محبوبات الله على محبوبات النفس، وتقديم طاعته على طاعة غيره من النفس والهوى والشيطان وطاعة المخلوقين[1].

ويرى شيخ الإسلام **ابن تيمية** أنَّ المحبةَ هي أقوى محركات القلوب إلى الله تعالى، وهذا نص كلامه بلفظه: «**لا بد من التنبيه على قاعدةٍ تُحرِّك القلوب إلى الله** ﷻ فتعتصم به فتقل آفاتها أو تذهب عنها بالكلية بحول الله وقوته، فنقول: اعلم أنَّ محركات القلوب إلى الله ﷻ ثلاثة: المحبة والخوف والرجاء.

(١) أعمال القلوب لخالد السبت (٢/ ٨-٩).

وأقواها المحبة، وهي مقصودةٌ تراد لِذَاتِهَا؛ لأنها تراد في الدنيا والآخرة بخلاف الخوف؛ فإنَّه يزول في الآخرة؛ قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، والخوف المقصود منه الزجر والمنع من الخروج عن الطريق.

فالمحبة تلقي العبد في السير إلى محبوبه، وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه، والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب، والرجاء يقوده.

فهذا أصلٌ عظيمٌ يجب على كل عبدٍ أن ينتبه له؛ فإنَّه لا تحصل له العبودية بدونه، وكل أحد يجب أن يكون عبدًا لله لا لغيره»[١].

ومن هنا نرى قلم **ابن القيم** يحتد على من آثر حب المخلوق على حب الخالق فنراه يكتب: «ومتى رأيت القلب قد ترحل عنه حبُّ الله والاستعداد للقائه، وحل فيه حب المخلوق والرضا بالحياة الدنيا والطمأنينة بها.. فاعلم أنه قد خسف به»[٢].

وجاء الوعيد لمن وقع في هذا الاختلال في قوله سبحانه: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

أما المتعبد فحبُّ الله هو أنيسه، وهو الذي يقويه ويمنحه الإقبال والحيوية والعزم والإرادة، وما أجمل أن تأتي العبادة حبًّا لا قهرًا، تقربًا لا تهربًا، إخلاصًا لا تخلصًا، فتشعر بلذاذة العلاقة مع الله تعالى، حتى إنَّ العين قد تفيض من الدمع من آيات الوعد والجنة كما تبكى من آيات الوعيد والنار أو أشد.

فالواحد من الناس مثلًا لو قرأ حديث النبيِّ ﷺ: «**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ**»[٣] فأحسبه يحرص على التسبيح بالكلمتين لخفتهما على اللسان وثقلهما في الميزان.

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٩٥).
(٢) بدائع الفوائد (٣/ ٧٤٣).
(٣) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٦٦٨٢)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٧٠٢١).

أما العبدُ الموفقُ المحبُّ لربه المشتاق إليه فإنه يُكثر منهما جدًّا، حتى لو كانتا فَرْضًا ثقيلتين على اللسان خفيفتين في الميزان؛ لأنَّ المدارَ الأعظمَ عنده وموضعَ النَّظَرِ لديه أنهما حبيبتان إلى الرحمن.

إنَّ للمحبين شأنًا آخر، إنهم يفعلون الطاعة حبًّا فيها، وعلامة الحب عندهم أنهم يستكثرون من النوافل ما استطاعوا وليست مفروضةً عليهم، ومن هنا جوزي المحب بحب الله له ليكون الجزاء من جنس العمل.

روى **البخاري** في صحيحه عَنْ **أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ..**»(١).

فالنوافل تجلب حبَّ الله تعالى للعبد، وليس الشأن أن تُحِب؛ بل الشأن أن تُحَب، والقرآن حافلٌ بالآيات التي تخبر بما يجلب حبَّ الله تعالى، ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤].

---

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٦٥٠٢).

وقوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

وقوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

الفرع السادس: الذل

وهذا عملٌ قلبيٌّ عظيم؛ فإنَّه مرتبطٌ ارتباطًا مباشرًا بالتعبد.

وقد تولى **ابن القيم** بيان هذه العلاقة فقال: «حقيقةُ التعبد: الذل والخضوع للمحبوب، ومنه قولهم: طريقٌ مُعبَّد؛ أي مُذلَّلٌ قد ذللته الأقدام.

فالعبد هو الذي ذلَّله الحبُّ والخضوعُ لمحبوبه.

ولهذا كانت أشرف أحوال العبد ومقاماته في العبودية، فلا منزل له أشرف منها، وقد ذكر الله سبحانه أكرمَ الخلق عليه وأحبهم إليه بالعبودية في أشرف مقاماته؛ وهي مقام الدعوة إليه ومقام التحدي بالنبوة ومقام الإسراء.

فقال سبحانه: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩].

وقال سبحانه:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

وقال سبحانه:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]»[1].

وهذا الباب يقل فيه الزحام، وقد مرَّ بنا كلامُ **ابن القيم** في هذا، وأعيده بنصِّه لقوة الداعي لاستحضاره من جديد.

(١) الجواب الكافي ص (١٣٢).

يقول رحمه الله: يحكى عن بعض العارفين أنه قال: دخلتُ على الله من أبواب الطاعات كلها، فما دخلت من بابٍ إلا رأيت عليه الزحام، فلم أتمكن من الدخول حتى جئت باب الذل والافتقار فإذا هو أقرب باب إليه وأوسعه ولا مزاحم فيه ولا معوق، فما هو إلا أن وضعت قدمي في عتبته فإذا هو سبحانه أخذ بيدي وأدخلني عليه.

وكان شيخ الإسلام **ابن تيمية** يقول: «من أراد السعادة الأبدية فليلزم عتبة العبودية».

والقصد أنَّ هذه الذلة والكسرة الخاصة تدخله على الله وترميه على طريق المحبة فيفتح له منها بابٌ لا يفتح له من غير هذه الطريق، وإن كانت طرق سائر الأعمال والطاعات تفتح للعبد أبوابًا من المحبة، لكن الذي يُفتح منها من طريق الذل والانكسار والافتقار وازدراء النفس ورؤيتها بعين الضعف والعجز والعيب والنقص والذم نوعٌ آخر وفتحٌ آخر.

والسالك بهذه الطريق غريبٌ في الناس، هم في واد وهو في واد، وهي تُسمَّى طريق الطير؛ إذ يسبق النائم فيها على فراشه السُّعَاةَ فيصبح وقد قطع الطريق وسبق الركب والله المستعان وهو خير الغافرين[1].

ولأجل هذا فقد صدق من قال: **على قدر التذلل يكون التلذذ.**

فالأعمال القلبية تُمثِّل النكهةَ العجيبةَ التي تُجوِّدُ طعمَ العبادة، فتنفخ فيها الروح، ومقام الذل يقع منها في الصَّدر؛ لأنَّه يجعل العبد سهل الحركة والتحريك، ليِّنًا هيِّنًا، إذا بلغه أمر ربِّه أقبل عليه، ولو كان في اتجاهٍ آخر ثم ذُكِّر بالله فإنه يستدير بسهولةٍ امتثالًا لأمر الله.

وهذه هي تربيةُ النبيِّ ﷺ لأصحابه؛ روى **البزار** في مسنده من حديث **أبي هريرة** رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**إذا ذُكِّرتُم بالله فانتهُوا**»[2] حسنه الألباني.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٣١-٤٣٢) بتصرف يسير.
(٢) مسند البزار، رقم الحديث: (٨٥٤١).

ومن هنا؛ فإنَّ المتعبد الذي يتحلى بحِلية التعبد، فيكون متذللًا لله مفتقرًا له منكسرًا بين يديه قد انتظم في سلك الموفقين بحسب ما بثَّه **أبو طالب المكي** بقوله:

«**يقال من علامات التوفيق ثلاث: دخول أعمال البرِّ عليك من غير قصدٍ لها، وصرف المعاصي عنك مع الطلب لها، وفتح باب اللجأ والافتقار إلى الله ﷻ في الشدة والرخاء.**

ويقال من علامات الخِذلان ثلاث: تَعَسُّر الخيرات عليك مع الطلبِ لها، وتيسر المعاصي لك مع الرهب منها، وغلق باب اللجأ والافتقار إلى الله ﷻ»[1].

وعلى قدر تمريغ الأنف في الأرض في السجود تبقى في صعود؛ روى **مسلم** في صحيحه عن **ربيعة بن كَعْبِ الأَسْلَمِيِّ** قَالَ: كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ فَقَالَ لِي: «**سَلْ**» فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ.

قَالَ: «**أَوَغَيْرَ ذَلِكَ**»؟

قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ.

قَالَ: «**فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ**»[2].

وفي آي التنزيل قوله سبحانه: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩].

وإجابة الدعاء أقرب من المفتقر وأدنى من المنكسر، وهذا ما يجده الإنسان في نفسه حين تنزل به حاجةٌ تشتد، وينكسر بين يدي ربه يطلب حاجته.

ومن الأخبار في ذلك: ما جاء عن **طاووسٍ التابعيِّ** قال: إنِّي لفي الحِجْرِ ذات ليلة إذ دخل **علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب** فقلت: رجلٌ صالحٌ من أهل بيت الخير، لأستمعن إلى دعائه الليلة فصلى إلى السَّحَر فأصغيت سمعي إليه فسمعته يقول في سجوده:

«**عُبَيدُكَ بِفِنائك، مسكينك بفنائك، فقيرك بفنائك، سائلك بفنائك**»[3].

---

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/ ١١٥).

(٢) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١١٢٢).

(٣) وجدت من أخذ هذا الدعاء وأعاد عرضه بلفظٍ مقاربٍ فقال: «**عُبَيدُكَ بين يديك، مسكينك بين يديك، فقيرك بين يديك، سائلك بين يديك**».

قال **طاووس**: فحفظتهن، فما دعوتُ بِهِنَّ في كلِّ كربٍ إلا فُرِّجَ عنِّي[1].

وكلمةُ السرِّ إنما هي في الحال لا في مجرد المقال؛ فقد ينطق بها من لم يتحلَّ بحال التذلل والافتقار المنتشر في جنباتها فلا يُجاب.

ومن ذات المشكاة ما جادت به قريحةُ الإمامِ **الغزالي** رحمه الله حين كان يتكلم عن الكِبْر وآثاره فقال: «والعالم هو الذي فهم أنَّ الله تعالى قال له: **إنَّ لك عندنا قدرًا ما لم تر لنفسك قدرًا**»[2].

الفرع السابع: التعظيم

على قدر معرفة العبد بربه يكون تعظيمه له في قلبه، فأعرف الناس بالله أشدُّهم له تعظيمًا وإجلالًا.

وقد ذمَّ الله تعالى من لم يعظمه حقَّ عظمته ولا عرفه حق معرفته ولا وصفه حق صفته فقال سبحانه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣].

قال **ابن عباس** رضي الله عنهما: أي ما لكم لا تُعَظِّمُون الله حقَّ عظمته، وقال: أي ما لكم لا ترجون لله عظمة، وقال **مجاهد**: كانوا لا يبالون عظمةَ الله[3].

ومن عظَّم الآمر عظَّم الأوامر، ومن ضعف في قلبه تعظيمُ الآمر رأيته يحتال للتفلت من الأوامر.

يقول **ابن القيم**: أول مراتب تعظيم الحق سبحانه: تعظيمُ أمرِه ونهيه، وذلك أنَّ المؤمنَ يعرف ربه عز وجل برسالته التي أرسل بها رسوله صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة، ومقتضاها: الانقياد لأمره ونهيه، وإنما يكون ذلك بتعظيم أمر الله عز وجل واتباعه، وتعظيم نهيه واجتنابه.

فيكون تعظيم المؤمن لأمر الله تعالى ونهيه دالًّا على تعظيمه لصاحب الأمر والنهي، ويكون بحسب هذا التعظيم من الأبرار المشهود لهم بالإيمان والصدق وصحة العقيدة والبراءة من النفاق الأكبر.

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٤١/ ٣٨٠).
(٢) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٥١).
(٣) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٤٩٥)، تفسير الطبري (٢٣/ ٦٣٤).

فإنَّ الرجلَ قد يتعاطى فعلَ الأمر لنظر الخلق وطلب المنزلة والجاه عندهم، ويتقي المناهي خشية سقوطه من أعينهم، وخشية العقوبات الدنيوية من الحدود التي رتَّبها الشَّارعُ على المناهي، فهذا ليس فعله وتركه صادرًا عن تعظيم الأمر والنهي، ولا تعظيم الآمر والناهي.

فعلامةُ التعظيمِ للأوامر في الصلاة مثلًا: رعايةُ أوقاتِها وحدودِها، والتفتيشُ عن أركانها وواجباتها وكمالها، والحرصُ على تحيُّنِها في أوقاتها، والمسارعةُ إليها عند وجوبها، والحزنُ والكآبةُ والأسفُ عند فوت حقٍّ من حقوقها؛ كمن يحزن على فوت الجماعة ويعلم أنه وإن تُقبلت منه صلاته منفردًا إلا أنه قد فاته التضعيف إلى سبع وعشرين درجة.

ولو أنَّ رجلًا يعاني البيعَ والشراء تفوته صفقةٌ واحدةٌ في بلده من غير سفرٍ ولا مشقةٍ قيمتها سبعةٌ وعشرون دينارًا[١].. لأكل يديه ندمًا وأسفًا، فكيف وكلُّ ضِعفٍ مما تُضاعَف به صلاة الجماعة خيرٌ من ألفٍ وألفِ ألفٍ وما شاء الله تعالى من الدراهم والدنانير.

فمن كان باردَ القلب إزاء هذا، فارغًا من هذه المصيبة، غيرَ مرتاعٍ لها.. فإنه قد ضعف تعظيم الله تعالى في قلبه، وكذلك إذا فاته أول وقت الصلاة، أو فاته الصف الأول الذي يُصلي الله وملائكته على ميامنه، ولو يعلم العبد فضيلته لجَالَدَ عليه ولكانت قرعة[٢].

فالتعظيم إذن يُثمر رعايةَ الإخلاص وحسنَ العنايةِ والإقبال وشدة المسارعة في الخيرات وسط حالةٍ من الإجلال والمهابة والوقار.

ولهذا جاءت التربية الشرعية بتقريره والتحريض عليه؛ فأمر الله تعالى عباده بتعظيم أمره، فقال في جانب السيئات: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠]، وقال في جانب الحسنات: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

وقد تلقى الصحابة رضي الله عنهم دروس التعظيم من سلوك النبيِّ ﷺ كما تلقوها من قوله؛ فالركوع في الصلاة مثلًا هو الركن الذي بُنِي على تعظيم الربِّ جل جلاله بحيث

(١) ما يعادل ١١٤,٧٥ جرامًا من الذهب الخالص.
(٢) الوابل الصيب ص (١٥) بتصرفٍ يسير.

يتركز فيه هذا المعنى ما لا يتركز في غيره، ومع أنه يمكن أن يتأدَّى بأقل ممكن من التسبيح إلا أنَّ النبيَّ ﷺ كان يعطيه من العناية أوفر الحظ، ورصد الصحابة رضي الله عنهم ذلك منه ولاحظوه.

فقد روى مسلمٌ عَنِ **الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ** رضي الله عنه قَالَ: «رَمَقْتُ الصَّلَاةَ مَعَ مُحَمَّدٍ ﷺ فَوَجَدْتُ قِيَامَهُ فَرَكْعَتَهُ فَاعْتِدَالَهُ بَعْدَ رُكُوعِهِ فَسَجْدَتَهُ فَجَلْسَتَهُ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ فَسَجْدَتَهُ فَجَلْسَتَهُ مَا بَيْنَ التَّسْلِيمِ وَالِانْصِرَافِ قَرِيبًا مِنَ السَّوَاءِ»[1].

قارن بين هذا وبين بعض الأئمة الذين قد لا تتم خلفهم ثلاث تسبيحات!

ولكن عناية كل امرئ بالركوع بقدر تعظيمه له.

بل كان أحيانًا يطيل فيه طولًا لا يستطاع في العادة؛ فقد روى **أبو داود والترمذي** عن **عوف بن مالك** رضي الله عنه قال: قُمْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةً فَلَمَّا رَكَعَ مَكَثَ قَدْرَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: «سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ»[2] صححه الألباني.

وما نحن فيه من صَدَدٍ لا يبحث فيه عن فرضٍ وسنة، فالمتعبد السالك في هذه السبيل يتوغل بعيدًا بعيدًا في العلاقة مع الله تعالى، فهو على حالةٍ قلبيةٍ من التعظيم يُقبل بها على العبادة محبةً لله وإجلالًا له ولأمره، يفعل التكاليف طوعًا لا كرهًا، ينجذب إليها انجذاب المحب إلى حبيبه، يحب ما يحبُّ ربُّه وإن لم يكن من طبعه أن يُقبِل عليه، ويترك ما لا يحبُّ ربُّه وإن كان يهوى أن يقبل عليه.

وقد قلت لك في صدر الكلام: **من عظَّم الآمر عظَّم الأوامر، ومن ضعف في قلبه تعظيمُ الآمر رأيته يحتال للتفلت من الأوامر.**

وتعظيم الأوامر هذا يأخذ بنا إلى تحَلِّي الْمُتَعَبِّدِ بعبوديةٍ سمعتُ لفظَها من فضيلة الشيخ كريم حلمي وفقه الله هي **«عبودية الاكتراث»**.

---

(١) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٠٨٥) وعند البخاري بلفظ يستثني القيام والقعود كما في الحديث رقم: (٧٩٢).

(٢) سنن أبي داود، رقم الحديث: (٨٧٣)، سنن النسائي، رقم الحديث: (١٠٤٨)، واللفظ للنسائي.

فإذا كان كثيرٌ من الناس لا يبالون بالأعمال الصالحة ولا يكترثون بالمواسم الفاضلة.. فإنَّ العبدَ المُوَفَّقَ مكترثٌ بها متفاعلٌ معها، فالاكتراث معناه الاعتناء(١).

فالمتعبد الذي ارتشف من رحيق التعظيم وغيره من الأعمال القلبية تجده معظِّمًا للعبادات والأوامر، معتنيًا بها، متفاعلًا معها، مكترثًا بها وبأحوالها وما يُطلب شرعًا لها؛ لأنَّ الاكتراث بذلك من محبوبات الله تعالى.

والكلام هنا قد لا يتعلق بخصوصِ عملٍ ولكن بعمومِ حال؛ فلو جاء موسم العشر الأوائل من ذي الحجة مثلًا.. فإنك ترى العبد المكترث في شهر ذي القعدة قد بدأ يفكر ويدبر ويخطط ويرتب للذي يعمله فيها.

وإذا احتاج كتابًا يستعين به على حسن استثمارها بحث عنه وقرأه ودوَّن ما يحتاج إليه منه.

وإذا عرض له سؤالٌ فقهيٌّ سأل عنه وتحصل على جوابه حتى استوثق.

وربما رأيتَ أدعيةِ يوم عرفة قد تم تجهيزها من أول يومٍ في العشر وربما قبل أن تدخل أصلًا.

وربما رأيته يشتري من الأطعمة والمشروبات ما يستعين به في التهجد وغيره كالقهوة والتمر مثلًا.

فإذا دخلت الأيام العشر رأيته قد أجَّلَ ما يقبل التأجيل من المصالح واحتشد للعبادة فيها بكل ما أوتي من مكنة واهتمامٍ وهمة.

ولو أنَّ أحدًا رصد حركته تلك الأيام وما يسبقها بقليلٍ لوجده على حالةٍ تشبه الاستنفار لأمرٍ عظيم، فالحال ناطقٌ باكتراث هذا العبد، وأنَّ أمر الآخرة منه على بال، لا يغفل عنه ولا يذهل.

ومن الآيات التي تربيك على هذه العبودية قوله سبحانه: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾[ص:٤٥-٤٧].

(١) تاج العروس (٥/ ٣٣٣).

والمعنى: إنا جعلنا هؤلاء العباد -وهم **إبراهيم وإسحاق ويعقوب**- خالصين لطاعتنا وعبادتنا، متبعين لأوامرنا ونواهينا، وقد منَّ الله عليهم بخاصية ذكرى الدار؛ أي أخلصهم بعملهم للآخرة وذكرهم لها.

جاء عن **مجاهد** في قوله: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ أنه قال: أي بذكر الآخرة فليس لهم همٌّ غيرها.

وهذا أحد التأويلين في الآية، والتأويل الآخر: أنهم كانوا يُذكِّرون الناس الدار الآخرة ويدعونهم إلى طاعة الله والعمل للدار الآخرة[1]، فهو نتيجةٌ للأول.

وهذا الصنف من العباد مُبشَّرٌ على لسان رسول الله ﷺ بثلاث نعم قلَّ من يتيقظ لها؛ روى **الترمذي** في سننه من حديث **أنس بن مالك** رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ الله غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ الله فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ»**[2] صححه الألباني.

وقوله: **«جَعَلَ الله غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ»** أي جعله قانعًا بالكفاف والكفاية كيلا يتعب في طلب الزيادة.

وقوله: **«وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ»** أي أموره المتفرقة؛ بأن جعله مجموع الخاطر بتهيئة أسباب ذلك من حيث لا يشعر به.

وقوله: **«وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ»** أي ما قُدِّر وقُسِم له منها من المال والجاه وغير ذلك، فتأتيه ذليلةً حقيرةً لا يحتاج في طلبها إلى سعيٍ كثير، بل تأتيه هينةً لينة على رغم أنفها وأنف أربابها.

فالله يحفظه في وجاهته بين الناس، ويجعل الدنيا تأتيه دون أن يذهب إليها ويستجدي فيها.

---

(١) تفسير الطبري (٢١/ ٢١٧-٢١٨).
(٢) سنن الترمذي، رقم الحديث: (٢٤٦٥).

أما من كانت الدنيا همة فهو بعكس ذلك[1].

وهذا كلامٌ موجزٌ غاية الإيجاز عن هذه العبودية، وكنت قد أفردت لها خطبةَ جمعةٍ يومًا، وعسى أن تتهيأ الأسباب لأكتب في ذلك مقالًا أو رسالة.

وقد أخَّرت الكلام عن عمل التعظيم ليكون آخر فروع مطلب **«الأعمال القلبية»** ليعود القول في **«عبودية الاكتراث»** عليه وعلى ما تقدمه من أعمالٍ قلبيةٍ وعقليةٍ وقوليةٍ وبدنية، فهي عبودية شاملةٌ لجميع الأعمال، لا تتقيد بعملٍ دون آخر.

وكلام ابن القيم المتقدم في علامة التعظيم للأوامر في الصلاة توصيفٌ كريمٌ لحال العبد المكترث في باب الصلاة فارجع إليه وتأمله والله يفتح عليك.

أقف عند هذا الحد من الأعمال القلبية لئلا يطول الكتاب، ولعلك عاينت بنفسك مركزية الأعمال القلبية من الأعمال التعبدية، ولهذا ينبغي رعايتها بأشد من رعاية الأعمال البدنية والقولية، ويتأكد ذلك في حقِّ الداعية والمحفظ والمربي والقائد والمصلح والعالم وطالب العلم.

والتقصير في ذلك يؤثر بالسلب على هذه الثغور نفسها، وهذا ما نبَّه عليه الشيخ الدكتور **فريد الأنصاري** رحمه الله فقال:

«إنَّ كثيرًا من طلبة العلوم الشرعية بما أعرضوا عن التربية الروحية؛ تخليةً وتحليةً ساءت أخلاقهم، وفسدت نياتهم، وانحرفت أعمالهم، فما صلحوا لا لأنفسهم ولا لغيرهم، وإنما الغاية من طلب العلم نيلُ رضا الله جل علاه، فإذا أخطأه العبدُ فقد خاب وخسر، وكفى بقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] ضابطًا لقصد الشارع من العلم والتعلم، وقد فسر أهل العلم ﴿ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ هنا بأنهم العلماء بالله وبأمره.

فما عالمٌ ليست له خلواتٌ بجوف الليل الآخر، يتبتل فيها إلى الله ويدعوه رغبًا ورهبًا.

وما عالمٌ ليست له أوقاتٌ مع ربه يذكره فيها ويستغفره ويُسَبِّحُه.

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للمباركفوري (٧/ ١٣٩-١٤٠) بتصرف يسير.

وما عالمٌ ليست له أشواقٌ ولا أذواق، ولا حياة لوجدانه بمسالك المحبة الإيمانية، ولا معرفة لقلبه بمدارج الخوف والرجاء.

ماذا يرجى من كان هذا حاله من ورائه لهذه الأمة!

وماذا يمكن أن يفيد في تربية الخلق! وفاقد الشيء لا يعطيه.

إنَّ العالم الذي ليس له عمقٌ روحي لا يمكن أن يفيد الأمة بشيء دعوةً وتربيةً؛ إذ الدعوة إلى الله إنما هي قائمةٌ على سقي ذَوبِ الروح للعطشى والمحرومين، ونشر مواجيد الرحمة والمحبة للحيارى والمحزونين.

فأنى لمن تخشَّب قلبه أن يجد ذلك بله أن يعطيه للناس!

ألا وإنَّ ذلك إنما يتأتى ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، وإنما الموفق من وفقه الله، فلا بد لطالب العالِمِيَّةِ إذن من حمل النفس على مقتضى الأدب في المعاملة مع الله والمعاملة مع خلقه وإلا كان من الهالكين[١].

والحمد لله رب العالمين.



(١) مفهوم العالِمية من الكتاب إلى الربانية ص (١٢١-١٢٢).

الخاتمــة

جرت العادة أن تكون الخاتمة لتسجيل بعض النتائج وما استيسر من التوصيات والتنبيهات، لكنني رأيت أن أخصص الخاتمة لجوابٍ عمَّا قد يقومُ بالأذهان من السؤال عن أفضلِ العبادات وأنفعها، خاصة بعد أن عشنا عبر صفحات هذا الكتاب مع قدرٍ كبيرٍ من الأعمال مع تنوعها واختلاف مساراتها.

والجواب كله من كلام **ابن القيم** عليه رحمة الله؛ فإنَّ له في هذه المسألة جوابًا يأخذ بالألباب، ويستولي على مجامع القلوب كلَّ استيلاء، وهو يَرْشَحُ فصاحةً وفقهًا، وهو من التُّحَف التي ينبغي معاودة النظر فيها المرة تلو المرة.

وقبل أن أورده أنبه على أنَّ التفاضل إنما يقع عند التزاحم الحقيقي بين الأعمال، بحيث يضيق الوقت عن فعلها جميعًا، فحينئذٍ يلجأ للترجيح بحسب مخرجات الموازنة والأولويات، وإلا فإنَّ الأصل أن يأتي بكلِّ الأعمال بحسب القدرة وواجب الوقت، فالأعمال تتكامل ولا تتنافر.

وقد نظَّرت للشمولية في ذلك في الأصل الخامس من **«الأصول الكلية للتعبد والعمل»**، ومتنه: **«الأبواب الموصلة إلى الله كثيرة فلا تدخلوا من بابٍ واحد»**.

ثم إنَّ المفاضلةَ إنما تكون بحسب لائحة فقه الموازنة بين التخصص فيما فُتِح للإنسان فيه والموسوعية التي يُكمِّل بها شخصيته ضمن الرؤية الشمولية على ما مرَّ بيانه في شرح الأصل المذكور.

والآن آتي إلى كلام الإمام **ابن القيم** عليه رحمة الله في كتابه الرائع المتين: **«مدارج السالكين»** فإنه قال:

فصل، ثم أهل مقام «إياك نعبد» لهم في أفضلِ العبادةِ وأنفعِها وأحقِّها بالإيثار والتخصيص أربعُ طرق، فهم في ذلك أربعة أصناف:

الصنف الأول:

عندهم أنفعُ العباداتِ وأفضلُها أشقُّهَا على النفوس وأصعبُها.

قالوا: لأنَّه أبعد الأشياء عن هواها، وهو حقيقة التعبد، والأجر على قدر المشقة، ورووا حديثًا لا أصل له: «أفضل الأعمال أحمرها»؛ أي أصعبها وأشقها.

وهؤلاء هم أهل المجاهدات والجَوْرِ على النفوس.

قالوا: إنما تستقيم النفوس بذلك؛ إذ طبعُها الكسل والمهانة والإخلاد إلى الأرض، فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمُّلِ المشاق.

الصنف الثاني:

قالوا: أفضلُ العبادات التجردُ والزهدُ في الدنيا والتقللُ منها غاية الإمكان، واطِّراح الاهتمام بها وعدم الاكتراث بكلِّ ما هو منها.

ثم هؤلاء قسمان:

فعوامُّهم ظنُّوا أنَّ هذا غايةٌ فشمَّروا إليه وعملوا عليه ودعوا الناس إليه وقالوا: هو أفضلُ من درجةِ العلم والعبادة، فرأوا الزهد في الدنيا غايةَ كلِّ عبادةٍ ورأسها.

وخواصُّهم رأوا هذا مقصودًا لغيره، وأنَّ المقصود به عكوفُ القلب على الله، وجمع الهمة عليه، وتفريغ القلب لمحبته والإنابة إليه والتوكل عليه والاشتغال بمرضاته، فرأوا أنَّ أفضلَ العبادات في الجمعية على الله ودوام ذكره بالقلب واللسان والاشتغال بمراقبته دون كل ما فيه تفريق للقلب وتشتيت له.

ثم هؤلاء قسمان:

فالعارفون المُتَّبعون منهم إذا جاء الأمر والنهي بادروا إليه ولو فرَّقَهُم وأذهب جمعيتهم.

والمنحرفون منهم يقولون: المقصود من العبادة جمعيةُ القلب على الله، فإذا جاء ما يفرقه عن الله لم يلتفت إليه وربما يقول قائلهم:

يُطَالَبُ بالأورادِ مَنْ كان غافلًا فكيف بقلبٍ كلُّ أوقاتِهِ وِرْدُ!

ثم هؤلاء قسمان:

منهم من يترك الواجبات والفرائض لجمعيته.

ومنهم من يقوم بها ويترك السنن والنوافل وتعلم العلم النافع لجمعيته.

وسأل بعضُ هؤلاء شيخًا عارفًا فقال: إذا أذَّن المؤذن وأنا في جمعيتي على الله فإن قمت وخرجتُ تفرقت، وإن بقيت على حالي بقيت على جمعيتي، فما الأفضل في حقي؟!

فقال: **إذا أذَّن المؤذن وأنت تحت العرش فقم وأجب داعي الله ثم عد إلى موضعك!**

وهذا لأنَّ الجمعيَّةَ على الله حظُّ الروح والقلب، وإجابة الداعي حقُّ الرب، ومن آثر حظَّ روحه على حقِّ ربِّه فليس من أهل إياك نعبد.

الصنف الثالث:

رأوا أنَّ أنفع العبادات وأفضلها ما كان فيه نفعٌ متعدٍ، فرأوه أفضل من ذي النفع القاصر، فرأوا خدمة الفقراء والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم ومساعدتهم بالمال والجاه والنفع أفضل فتصدوا له، وعملوا عليه، واحتجوا بقول النبي ﷺ: «**الخلق كلهم عيالُ الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله**» رواه أبو يعلى.

واحتجوا بأنَّ عملَ العابد قاصرٌ على نفسه وعمل النفاع متعدٍ إلى الغير، وأين أحدهما من الآخر!

قالوا: ولهذا كان فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب.

قالوا: وقد قال رسول الله ﷺ **لعلي بن أبي طالب** رضي الله عنه: «**فَوَاللهِ لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ**»[1]، وهذا التفضيل إنما هو للنفع المتعدي.

واحتجوا بقوله ﷺ: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا**»[2].

---

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٢٩٤٢).

(٢) صحيح مسلم، رقم الحديث: (٦٩٨٠).

وبقوله ﷺ: «إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرَضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ»[١].

وبقوله ﷺ: «إِنَّهُ لَيَسْتَغْفِرُ لِلْعَالِمِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانِ فِي الْبَحْرِ»[٢].

واحتجوا بأنَّ صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله، وصاحب النفع لا ينقطع عمله ما دام نفعه الذي نسب إليه.

واحتجوا بأنَّ الأنبياء إنما بُعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم ونفعهم في معاشهم ومعادهم، ولم يبعثوا بالخلوات والانقطاع عن الناس والترهب، ولهذا أنكر النبيُّ ﷺ على أولئك النفر الذين هموا بالانقطاع للتعبد وترك مخالطة الناس.

ورأى هؤلاء التفرق في أمر الله ونفع عباده والإحسان إليهم أفضل من الجمعية عليه بدون ذلك.

الصنف الرابع:

قالوا: **إنَّ أفضل العبادة العمل على مرضاة الرب في كلِّ وقتٍ بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته.**

فأفضل العبادات في وقت الجهادِ الجهادُ وإن آل إلى ترك الأوراد من صلاة الليل وصيام النهار، بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض كما في حالة الأمن.

والأفضل في وقت حضور الضيف مثلًا القيام بحقه والاشتغال به عن الورد المستحب، وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل.

والأفضل في أوقات السَّحَر الاشتغال بالصلاة والقرآن والدعاء والذكر والاستغفار.

والأفضل في وقت استرشاد الطالب وتعلم الجاهل الإقبالُ على تعليمه والاشتغال به.

---

(١) سنن الترمذي، رقم الحديث: (٢٦٨٥).
(٢) سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٢٣٨).

والأفضل في أوقات الأذان ترك ما هو فيه من وِرده والاشتغال بإجابةِ المؤذن.

والأفضل في أوقات الصلوات الخمس الجدُّ والنصحُ في إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرةُ إليها في أول الوقت والخروج إلى الجامع وإن بعد كان أفضل.

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه أو البدن أو المال الاشتغالُ بمساعدته وإغاثة لهفته وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك.

والأفضل في وقت قراءة القرآن جمعيةُ القلب والهمة على تدبره وتفهمه حتى كأنَّ الله يخاطبك به فتجمع قلبك على فهمه وتدبره والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتابٌ من السلطان على ذلك.

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة الاجتهادُ في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المُضْعِفِ عن ذلك.

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة الإكثارُ من التعبد لا سيما التكبير والتهليل والتحميد، فهو أفضل من الجهاد غير المتعين.

والأفضل في العشر الأخيرة من رمضان لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم، حتى إنَّه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم وإقرائهم القرآن عند كثيرٍ من العلماء.

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته عيادته وحضور جنازته وتشييعه وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك.

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم دون الهرب منهم؛ فإنَّ المؤمنَ الذي يُخَالِطُ النَّاسَ ليصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه.

والأفضل خلطتهم في الخير؛ فهي خيرٌ من اعتزالهم فيه، واعتزالهم في الشر؛ فهو أفضل من خلطتهم فيه.

فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله.. فخلطتهم حينئذٍ أفضل من اعتزالهم.

فالأفضلُ في كلِّ وقتٍ وحالٍ إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه.

وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق، والأصناف قبلهم أهل التعبد المُقَيَّد، فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلَّق به من العبادة وفارقه فإنه يرى نفسه كأنه قد نقص، وترك عبادته، فهو يعبد الله على وجهٍ واحدٍ، وصاحب التعبد المطلق ليس له غرضٌ في تعبُّدٍ بعينه يؤثره على غيره، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت.

فمدار تعبده عليها، فهو لا يزال متنقلًا في منازل العبودية كلما رُفِعت له منزلةٌ عَمِلَ على سَيْرِهِ إليها، واشتغل بها حتى تلوح له منزلةٌ أخرى، فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره.

فإن رأيت العلماء رأيته معهم.

وإن رأيتَ العُبَّاد رأيته معهم.

وإن رأيتَ المجاهدين رأيته معهم.

وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم.

وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم.

وإن رأيت أرباب الجمعية وعكوف القلب على الله رأيته معهم.

فهذا هو العبد المطلق الذي لم تملكه الرسوم، ولم تقيده القيود، ولم يكن عمله على مراد نفسه وما فيه لذَّتُها وراحتُها من العبادات؛ بل هو على مراد ربه ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه.

فهذا هو المتحقق بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حقًّا، القائم بهما صدقًا.

ملبسه ما تهيَّأ له، ومأكله ما تيسر، واشتغاله بما أمر الله به في كلِّ وقتٍ بوقته، ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خاليًا، لا تملكه إشارة، ولا يتعبده قيدٌ، ولا يستولي عليه رسم.

حرٌّ مجردٌ دائرٌ مع الأمر حيث دار، يدين بدين الآمر أنَّى توجهت ركائبه، ويدور معه

حيث استقلت مضاربه، يأنس به كلُّ محقٍّ، ويستوحش منه كلُّ مبطل، كالغيث حيث وقت نفع، وكالنخلة لا يسقط ورقها، وكلها منفعة حتى شوكها، وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله، والغضب إذا انتُهكت محارم الله.

فهو لله وبالله ومع الله، قد صحب الله بلا خَلْقٍ، وصحب الناس بلا نَفس، بل إذا كان مع الله عزل الخلائق عن البين وتخلى عنهم، وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلى عنها.

فواهًا له ما أغربه بين الناس!

وما أشد وحشته منهم!

وما أعظم أنسه بالله وفرحه به وطمأنينته وسكونه إليه!

والله المستعان وعليه التكلان[1].

أسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل هذا الصنف، وأن يفقهنا في الدين، ويدخلنا برحمته في عباده الصالحين.

تم الكتاب ومراجعته بحمد الله تعالى ومنِّه وكرمه

ليلة الأربعاء السابع عشر من ذي الحجة لعام ١٤٤٤ هـ، الموافق ٥-٧-٢٠٢٣م

سائلًا الله ﷻ أن يكرمني بسرٍّ يفوق العلانية عبوديةً وإخلاصًا وجودًا

وأن يجعل ثمرة كتابي هذا عملًا مقبولًا وأثرًا محمودًا

هذا، وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا المصطفى محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين وتابعيهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين

(١) مدارج السالكين (١/ ٨٥-٩٠) بتصرفٍ يسيرٍ جدًّا.

المراجع

هذه أبرز المراجع التي تم الرجوع إليها والاستفادة منها[1]:

القرآن الكريم.

أولًا: كتب الحديث:

١. صحيح البخاري.
٢. صحيح مسلم.
٣. سنن أبي داود.
٤. سنن الترمذي.
٥. سنن النسائي.
٦. سنن ابن ماجه.
٧. موطأ مالك.
٨. مسند أحمد بن حنبل.
٩. سنن الدارمي.
١٠. شعب الإيمان للبيهقي.
١١. السنن الكبرى للبيهقي.
١٢. المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري.
١٣. صحيح ابن حبان.
١٤. المعجم الأوسط للطبراني.
١٥. المعجم الكبير للطبراني.
١٦. مسند الشاميين للطبراني.

(١) لم أرغب في تكثير الصفحات بتفاصيل طبعة كل كتاب لكثرة الكتب؛ لأنَّ الاتكاء الأكبر لدى أكثر طلبة العلم صار بالرجوع إلى المكتبة الشاملة.

١٧. مسند البزار.

١٨. مسند إسحاق بن راهوية.

١٩. مصنف ابن أبي شيبة.

٢٠. الترغيب والترهيب لعبد العظيم المنذري.

٢١. إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة للبوصيري.

٢٢. الأدب المفرد للبخاري.

٢٣. رياض الصالحين للإمام النووي.

٢٤. جامع الأحاديث للسيوطي.

ثانيًا: كتب التفاسير:

٢٥. تفسير الطبري.

٢٦. تفسير الطبري.. تقريب وتهذيب للدكتور صلاح الخالدي.

٢٧. تفسير ابن أبي حاتم.

٢٨. تفسير ابن كثير.

٢٩. تفسير ابن عطية.

٣٠. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.

٣١. التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور.

٣٢. تفسير الألوسي.

٣٣. تفسير الثعالبي.

٣٤. في ظلال القرآن لسيد قطب.

٣٥. تفسير الوسيط لأحمد الكومي ومحمد سيد طنطاوي.

٣٦. المختصر في التفسير، صادر عن مركز تفسير للدراسات القرآنية.

ثالثًا: كتب الشروح وما يتصل بها:

٣٧. فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني.

٣٨. شرح صحيح البخاري لابن بطال.
٣٩. عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني.
٤٠. حاشية السندي على صحيح البخاري.
٤١. شرح النووي على مسلم.
٤٢. الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج للسيوطي.
٤٣. عون المعبود شرح سنن أبي داود للعظيم آبادي.
٤٤. شرح سنن أبي داود لبدر الدين العيني.
٤٥. شرح سنن أبي داود للشيخ عبد المحسن العباد.
٤٦. تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي لمحمد بن عبد الرحمن المباركفوري.
٤٧. شرح سنن النسائي للسيوطي.
٤٨. شرح سنن ابن ماجه لمغلطاي.
٤٩. حاشية السندي على ابن ماجه.
٥٠. فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي.
٥١. التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي.
٥٢. شرح بلوغ المرام للشيخ عطية محمد سالم.
٥٣. مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للرحماني المباركفوري.
٥٤. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للملا علي القاري.
٥٥. التمهيد لما في الموطَّأ من المعاني والأسانيد لابن عبد البر.
٥٦. شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك.
٥٧. المنتقى شرح الموطأ لأبي الوليد الباجي.
٥٨. شرح السنة للبغوي.
٥٩. إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام لابن دقيق العيد.
٦٠. دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لابن علان الشافعي.
٦١. شرح رياض الصالحين لابن عثيمين.

٦٢. تفسير غريب ما في الصحيحين للحميدي.

٦٣. المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للقرطبي.

٦٤. كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي.

٦٥. فقه الأدعية والأذكار لعبد الرزاق البدر.

٦٦. هدي النبيِّ ﷺ في التعبد.. دراسةٌ تأصيليةٌ لأحاديث السنة النبوية للدكتور عبده الكد.

رابعًا: كتب الحديث والسيرة والتاريخ والطبقات والتراجم:

٦٧. تذكرة الحفاظ للذهبي.

٦٨. تهذيب الكمال للمزي.

٦٩. السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون لابن برهان الدين الحلبي.

٧٠. الروض الأنف لأبي القاسم السهيلي.

٧١. الرحيق المختوم لصفي الرحمن المباركفوري.

٧٢. البداية والنهاية لابن كثير.

٧٣. تاريخ الطبري.

٧٤. تاريخ بغداد للخطيب البغدادي.

٧٥. تاريخ دمشق لابن عساكر.

٧٦. الكامل في التاريخ لابن الأثير.

٧٧. الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر.

٧٨. سير أعلام النبلاء للذهبي.

٧٩. حياة الصحابة للكاندهلوي.

٨٠. طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين ابن السبكي.

٨١. ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض.

خامسًا: كتب اللغة

٨٢. تهذيب اللغة للأزهري.

٨٣. تاج العروس للزبيدي.
٨٤. المحيط في اللغة لابن عباد.
٨٥. مقاييس اللغة لابن فارس.
٨٦. الصحاح في اللغة للجوهري.
٨٧. المعجم الوسيط لإبراهيم مصطفى وآخرين.
٨٨. التعريفات للجرجاني.
٨٩. معاني الأبنية في العربية للدكتور فاضل السامرائي.
٩٠. مقامات الحريري.

سادسًا: كتب الفقه وأصوله:

٩١. الاعتصام للشاطبي.
٩٢. المستصفى للغزالي.
٩٣. الفروق للقرافي.
٩٤. بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع لعلاء الدين الكاساني.
٩٥. حاشية الطحاوي على مراقي الفلاح.
٩٦. المبسوط للسرخسي.
٩٧. المدونة الكبرى للإمام مالك.
٩٨. مواهب الجليل لشرح مختصر خليل للحطاب الرعيني.
٩٩. الشرح الكبير للدردير.
١٠٠. حاشية الدسوقي.
١٠١. الأم للشافعي.
١٠٢. المجموع شرح المهذب للنووي.
١٠٣. الشرح الكبير للرافعي.
١٠٤. نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج لشمس الدين الرملي.
١٠٥. مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج للخطيب الشربيني.

١٠٦. أسنى المطالب في شرح روضة الطالب لزكريا الأنصاري.
١٠٧. حاشية البجيرمي على الخطيب.
١٠٨. إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين لشرح قرة العين بمهمات الدين لأبي بكر الدمياطي.
١٠٩. المغني لابن قدامة الحنبلي.
١١٠. الإنصاف للمرداوي.
١١١. شرح زاد المستقنع للشيخ محمد بن محمد المختار الشنقيطي، سلسلة صوتية مفرغة.
١١٢. زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم.
١١٣. المفصل في أحكام الهجرة لعلي الشحود.
١١٤. السير الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني.
١١٥. مسألة في المرابطة بالثغور أفضل أم المجاورة بمكة لابن تيمية.
١١٦. التفسير والبيان للشيخ عبد العزيز الطريفي فرَّج الله كربه.

سابعًا: كتب العقيدة والرقائق والتربية والآداب:

١١٧. مجموع الفتاوى لابن تيمية.
١١٨. الإيمان الأوسط لابن تيمية.
١١٩. أمراض القلوب لابن تيمية.
١٢٠. الفتاوى الكبرى لابن تيمية.
١٢١. مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية.
١٢٢. الزهد والورع والعبادة لابن تيمية.
١٢٣. مدارج السالكين لابن القيم.
١٢٤. الفوائد لابن القيم.
١٢٥. حادي الأرواح لابن القيم.
١٢٦. الداء والدواء لابن القيم.
١٢٧. جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمدٍ خير الأنام لابن القيم.

١٢٨. مفتاح دار السعادة لابن القيم.

١٢٩. الوابل الصيب لابن القيم.

١٣٠. بدائع الفوائد لابن القيم.

١٣١. إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي.

١٣٢. أعمال القلوب لخالد السبت.

١٣٣. رقائق القرآن للشيخ إبراهيم السكران فرَّج الله كربه.

١٣٤. لطائف المعارف لابن رجب الحنبلي.

١٣٥. المدخل للعبدري.

١٣٦. الترياق لأديب الصانع.

١٣٧. صيد الخاطر لابن الجوزي.

١٣٨. الحكم العطائية.

١٣٩. شرح الحكم العطائية لعبد المجيد الأزهري.

١٤٠. التوابين لابن قدامة.

١٤١. الكبائر لشمس الدين الذهبي.

١٤٢. قوت القلوب لأبي طالب المكي.

١٤٣. الأخلاق والسير لابن حزم الأندلسي.

١٤٤. عيوب النفس لمحمد السلمي.

١٤٥. مفهوم العالمِية من الكتاب إلى الربانية لفريد الأنصاري.

١٤٦. تحصيل المرام في علاج مشكلة الشهوات والنظر الحرام لمحمد بن محمد الأسطل.

ثامنًا: كتب ومواد متفرقة:

١٤٧. قصص القرآن لسعد يوسف أبو عزيز.

١٤٨. بدائع السلك في طبائع الملك لابن الأزرق.

١٤٩. مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق لابن النحاس.

١٥٠. الْحَقْ بالقافلة للشيخ عبد الله عزام رحمه الله.

١٥١. أسطر في النقل والعقل والفكر للشيخ عبد العزيز الطريفي فرَّج الله كربه.

١٥٢. فقه الاستدراك لمحمد بن محمد الأسطل.

١٥٣. سياسة الخطاب.. محطاتٌ في فقه الطرح المنبري لمحمد بن محمد الأسطل.

١٥٤. معارج العلوم.. من الأمية إلى الإمامة لمحمد بن محمد الأسطل.

١٥٥. مقال بعنوان: «حادث تحويل القبلة.. رسائل سياسية وتقريرات عقدية وإيمانية» لمحمد بن محمد الأسطل.

١٥٦. حوار مع الدكتور طه جابر العلواني تحت عنوان: مقاصد الشريعة.

١٥٧. سلسلة الثقافة، وهي سلسلة حوارية من عشر حلقات مع الدكتور مُحمد محمد أبو موسى وفقه الله.



فهرس الموضوعات

صدر للمؤلف

١. سراج الغرباء إلى منازل السعداء.. سياحة ماتعة في روائع فقه السنن.
٢. من عاش على شيء مات عليه.
٣. دليل المعتكف.. ميثاق ثبات وإيمان من رمضان إلى رمضان» بالاشتراك مع أخي الشيخ بلال بن جميل مطاوع.
٤. المنهاج في سعادة الزوجات والأزواج بالاشتراك مع أخي الشيخ د. محمد سليمان الفرا.
٥. فقه الاستدراك.. كيف تصحح المسير، وتستدرك ما فات من العمر الطويل في زمن قصير؟».
٦. تحصيل المرام في علاج مشكلة الشهوات والنظر الحرام.
٧. الرباط وأحكامه في الفقه الإسلامي.. غزة أنموذجًا.
٨. «تهذيب كتاب الرباط وأحكامه في الفقه الإسلامي.
٩. معارج العلوم.. من الأمية إلى الإمامة.. دليلٌ إرشاديٌّ في فقه الطلب ومدارجه وسُلَّمه التعليمي.
١٠. قصة المذهب الشافعي من التأسيس حتى الكمال، وقد تمت مدارسته في ١٢ مجلسًا علميًّا وهي منشورة عبر الشبكة.
١١. عُدَّة الفقيه.. الأدوات التي يتحتم على الفقيه أن يحوزها في رحلة التفقه.

وجميعها منشورة على الشبكة إلا المعارج، وهو قيد المدارسة وقد نُشِرَ عددٌ جيدٌ من المجالس العلمية المعقودة لمدارسته على الشبكة.

١٢. الحركة النسوية.. معركة تبديل الفطرة.
١٣. أنيس المتعبد.. دليلٌ يرافقك في رحلتك إلى الله لا سيما في المواسم الفاضلة كرمضان وعشر ذي الحجة. وهو كتابنا هذا.

ويصدر قريبًا بعون الله تعالى:

١. سياسة الخطاب.. محطاتٌ في فقه الطرح المنبري.
٢. سبائك الشيطان.. رحلةٌ في دهاليز سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ومنطلقاتها في مشروع الهيمنة وتفكيك الشرق واحتواء الجماعات الإسلامية وفقهُ المواجهة.

